حرب
الافكار

العقيد الركن المتقاعد
المحامي
عزيز قادر

مقدمــة المؤلف

ليس من قبيل الصدفــة ، أن نرى معظم المؤلفين من القادة العسكريين، والزعماء ، وكبار رجال السياسة ، وغيرهم ، ومن ذوي الاختصاص والمفكرين، قد وضعوا مؤلفاتهم ، او كتبــوا مذكراتهــم واصدروها ، في الفتــرة التي قضوها ، في الاجازة النهائية (فترة التقاعد ـ قبل الرحيل الى عالم الخلود) لسبب واضح هو : ربما ، لان « بومة أثينا لا تطير الا عند الغســق »(١) أو لان وضعهم لم يكن يتيح لهم الحصول على المعلومات الكافية ، بســبب المشاغل ودوامة الحياة الوظيفية واليومية العامة .

وهذا ماكان بالنسبة لهذا الكتاب المتواضــع الذي أضعه بين يــدي القارىء الكريم ... تحت عنوان « حرب الافكار » .. وهو حصيلة دراسة مختلف الفروع العلمية والفلسفية والانسانية ، والاجتماعية .. وغيرها ، فضلا عن الاستمرار في دراسة النظريات الحربية والستراتيجية (الســوقية) على وجه الخصوص ، ولمدة اكثر من عشر سنوات ، وهي المدة « منذ احالتي على التقاعد عام ١٩٧٦ وحتى الانتهاء من تأليف هذا الكتاب » .

---

(١) بومة : طائر يمثل الحكمة والتعقل عند الاغريقيين : ويضرب به هذا المثل: ويعني ان الفكر لا يصل الى ذروة تطوره الا عندما يصل الانسان الى عامه الخامس والاربعين او الخمسين وعليه من الغرور ان يحاول المرء قبل ذلك دراسة حياته السابقة ، وفهــم الالهــام الذي كــان يدفعه ، ليستنتج من ذلك دروسا يطرحها على الاخرين .

ولم تكن تدور بخلدي ، في بادىء الامر ، نية التأليف ، او الكتابة في أية موضوعات معينة ، بل الرغبة كانت تدفعني الى التتبع والدراسة، ردما للفجوات التي كنت أحس بوجودها في البنية الثقافية والعلمية ، الاختصاصية والعامة .. والتي كنت أمتلكها ، من مجمل دراساتي الاكاديمية ،ومطالعاتي الخارجية أثناء الخدمة وبعدها ..

غير أن فكرة الكتابة ، لم تتبلور في ذهني ، الا بعدما أحسست باكمال أقامة الجسور على بعض تلك الثغرات ، وردم الهوه بين مختلف الموضوعات، ولكن هذا ، لا يعني ، انني ادعي ، بلوغ التكامل الثقافي والعلمي ، لان ذلك أمر يستحيل الوصول اليه لكل انسان .

أما فيما يتعلق باختياري لموضـــوع الكتـــاب ، فقد قادتني تأملاتي ودراساتي ، واقنعتني مطالعاتي بان « الحروب ، ابتداءاً تنشأ في الافكـار وتنتهي في الافكار في نهاية المطاف » .

وهذا ما حملني ، على ان اعطي للحرب اسما جديدا هو : « حـــرب الافكار » واعتبره عنوانا مناسبا لموضوع كتابي هذا الذي يبحث ، بالدرجة الاساس ، عن كل ماله علاقة بالفكر وصـــفاته ، من موضـــوعات الحرب والستراتيجية ، ومفرداتهما ، بغية ابراز دور القيم الفكرية الواسع والحاسم في قيادة الاحداث والتأثير بالقيم المعنوية والمادية وتأثرها بهما ....

عسى ان اكون قد وفقت في هذا الاختيار للعنوان ، وموضوع الكتاب، بآن معا ، وآمل ان يحقق الفائدة المرجوة ، ويستفيد منه القارىء العسكري والمثقف والمدنـــي على حـــد ســـواء .

وقد يكون من الاوفق ، ان يعلم القارىء مسبقا لكي لا يستغرب ، خروجي عن العادة المتبعة في هذا النوع من المؤلفات ، وابتعادي عن ســـرد الشروحات التأريخية ، لغرض استنباط الدروس المســـتفادة من الحـــروب

السابقة ، لان ذلك ليس الهدف من هذه الدراسة ، وانما الهدف منها ، اعادة جميع الامور الى الاصل ، أي الى « الافكار » ، لان الافكار ، تكون مهلكة ومنقذة بمفرزات الخطأ والصواب تماما كاستعمال السلاح السيء او الجيد.. وينبغي ان نعلم بان الفكر ، لا يقارع الا بفكر ألمع ، كما ان العقيدة لا تناهض الا بعقيدة اسمى وأرسخ ..

على ذلك ، توخيت قدر الامكان ، تحاشي كل ماهو مألوف ، ومعروف وسبق ذكره وتكراره في العديد من المؤلفات ، فيما يتعلق بدراسة الحرب كأسباب ونتائج .. وعليه فقد اقتصرت البحث على الجوانب المؤلفة من عناصر القوى المعنوية والمادية وعوامل اخرى غير مادية وغير ملموسة ، التي لها جميعا علاقة ، وارتباط ، وآثار متبادلة مع القيم الفكرية ، ايجابا وسلبا وحيادا .

لذا فقد تضمن « الجزء الاول » من الكتاب في الفصلين «الاول والثاني» دراسة العلاقة القائمة بين الفكر والحدث ، والحرب (كحدث) تستمد قوتها من الفكر ..

ولما كان من السابق لاوانه ، البحث عن هذا الموضوع هنا عليه نكتفي بالتلميح الى وجود آثار متبادلة بينهما ، الا ان عمل الفكر ، هو الاول، الذي يميز الامور المتشابكة والغامضة ، ولكن ليس عمل كل فكر هكذا دائما . وانما هناك صفات فكرية عليا ، خلاقة ، مطلوبة في الحرب كضرورة ملحة .. ولكن المطلوب ليس الفكر المجرد وحده ، وانما الفكر المدعوم بالقوة المعنوية وقوى النفس والارادة والشخصية ..

وعليه فقد تضمن البحث في الفصول (الثالث الى العاشر) علاقة الفكر بعناصر القوى المعنوية التي فضلنا تسميتها « بالفضائل الحربية » وهي تتألف من (فضيلة العبقرية الحربية ، وفضيلة الشجاعة العسكرية ، وفضيلة الاقدام وفضيلة الحزم والصمود ، ، وفضيلة روح الوحدة او القطعة واخيرا فضيلة القيادة »

وفي الفصل (التاسع) تكلمنا عن الامزجة البشرية ، لعلاقتها بهذه الفضائل الحربية • كما وتناولنا في الفصل الاخير من الجزء الاول (الفصل الحادي عشر) البحث عن عوامل غير مادية وغير ملموسة وهي (القدر والحظ ـ والصدفة والشك) هذه العوامل التي تلعب دورها في الحرب بعمق وسعة اكثر مما تلعبه في الحياة • حيث قد تأتي لتعقد كل الامور او تحل كل العقد وتبسط كل المشاكل ••• مع ذلك فمن المدهش حقا ، تناسي ، او اهمال آثار هذه الظواهر الخارجية في الحرب بالرغم من أهميتها وخطورتها، وتأثيرها في تقرير مصائر الاشتباكات (المعارك) وعدم متابعتها سوى من قبل قلة من المنظرين العسكريين والمفكرين ، وبشكل عابر في معظم الاحيان •

ومن ثم عرجنا في « الجزء الثاني » من المؤلف في الفصول (الثاني عشر الى الفصل السادس عشر) على معالجة الفكر وعلاقته بالنظريات الحربية والستراتيجية ، على اعتبار ان النظرية (كل نظرية) تعني في حد ذاتها « رؤية فكرية » موجهة لكشف طبيعة الاشياء والقوانين التي تحكمها • وهي بهذه الصورة ، ليست رؤية محدودة المدى ••• وكما ان اول مهمة لكل نظرية من النظريات هي ، ترتيب الافكار والمفاهيم المتشابكة والغامضة، وتصنيفها ، بغية العثور على قواعد وأسس ومبادىء عامة وثباته ، للتعامل مع الاشياء وفق قوانينها الخاصة •••

ولا يقودني الخجل الى اخفاء حقيقة كون دراستي هذه ، اولية ، مبنية على أسس اولية مسبقة ، وضعها كبار رجال الحرب والفكر ، (ولست بحاجة الى ذكر اسمائهم هنا ، لانني اشرت اليهم في الهوامش) الذين صرحوا بانفسهم بانهم تركوا الباب مفتوحا لمن يأتي بعدهم ، للاستزادة والاستكمال، وها أنا فاعل ذلك ، وبدوري اترك الباب مفتوحا لغيري ، أقرارا مني بعدم الكمال ، لان الكمال لله وحده وهو ولي التوفيق •

المؤلف

الجزء الاول

الجزء الاول

الفصل الاول

« الفكر والحـدث

- الانســان هو صــانع الحرب ، وهو أداتهــا الاولى •
- ان القــوى العقلية للانســان ، هي محرك الحرب •
- ان الفــكر البشري فوق جميع القوى في العـــالم •
- الفــكر هو الاساس الخلاق لكـل حـدث ، حتى • وان كان انعكاسا للحدث ذاتـه •••••
- ان توليد الفكر يأتي لاحقا لتوليد الحدث (الحرب) فمن الذي يقود الاخر ـ الفــكر ام الحـدث •••؟
- هنالك علاقة خفية بين طرائق رجل الحـرب وطرائق رجل الفكر ، الا أن رجل الحــرب في وضع أفضل من رجـل الفـــكر •••••••
- ما علاقة النشاط الفــكري ، بباقــي النشـــاطات البشـــريـــة •••؟ وماهي ســـماتـه الاسـاسية وأوصافه ••• ؟•

الفصل الاول

- الفكر والحدث

« أنـا افـكر اذن أنـا موجود »

« ديكـارت »

« ان التفكير القوي الواضح في داخل المكتب شيء جميل حقا ، الا أن التفكير بمثل هذه القـوة والوضوح وسـط القذائف هو الممارسـة المثالية للقـدرات الانسـانيـة »(١) ٠

« غوفيون سان سير »

١ ـ الانسان هو صانع الاحداث ومنها الحرب ، كحدث ، وهو أداتها الاولى ، ولكن الحرب تستخدم جميع قوى هذا الكائن ، المادية ، والعاطفية والمعنوية والفكرية الكامنة ٠٠ الا ان القوى العقلية للانسان هي محـرك الحرب ، فمنها تنبثق الارادة والتصميم ، والفضائل الحربية الاخرى ، الى جانب اساليب القتال وفنونه ، وتنظيمه وشكله ، فلا غرابة في ذلك لان الفكر البشري فوق جميع القوى في العالم ، لانه مكتشـفها ، وفاتح رموزهـا ، واسرارها ، وموجهها نحو الخير والسعادة احيانا ، والدمار احيانا اخرى ، وهو الذي بدل سطح الارض ، وشيد الحضارات وقوضها(٢)٠

(١) الذكاء والقيم المعنوية ـ الجنـرال جـان بيريـه (ص ٢١٩) تعـريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي ٠

(٢) المصدر السـابق (ص ٥) ٠

اذا كنا سنتبع التقليد الدارج الذي جعل العسكريين في كل الازمنة ، يهتمون بتدخل الذكاء (الفكر) في الصراعات المسلحة ، علينا ان نحدد صفاته بوضوح بالنسبة للانواع الاخرى من النشاطات العقلية الواعية للانسان ، التي تتمثل ، منذ زمن بعيد ، على شكل نشاطات فكرية ، معنوية، جمالية ، دينية ، اجتماعية .

ونحن نقدم النشاط الفكري على الانواع الاخرى ، لا ، لانه يتمتع بقسط اكبر من الفعالية ، بل هو الاساس الخلاق ، لكل حدث ، حتى وان كان انعكاسا للحدث ذاته في ذهن الانسان كما يرى ذلك كارل ماركس .

وهذا لا يعني اننا نرى النشاطات الفكرية مختلفة بعضها عن بعض ، بصورة جذرية ، كما لا ننكر تأثيراتها المتبادلة في بعضها ، ولكن عمل الذكاء (الفكر) هو الاول الذي يميز الامور ، ويصنفها ، ويضع الاولويات ، والمفاضلة لمجموعة من الامور المتشابكة والغامضة ، ولكن ليس عمل كل فكر هكذا دائما ، وانما هناك صفات فكرية عليا مطلوبة في الحرب ابدا ، وهي كما يقول (كلاوزفيتز) .. « القدرة على التركيب والحكم .. على ان تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد، خلال تحليقها الف فكرة غامضة ، يتعرض الذكاء العادي الى صعوبات هائلة ، قبل كشف غموضها »(٣) ويقسم الجنرال (جان بيريه) في كتابه (الذكاء والقيم المعنوية) الافكار لدى الاشخاص المتفوقين الى نوعين : افكار منطقية ، واخرى تلقائية ملهمة .

وان امتزاج هذين النوعين ، ضروري ، فبالمنطق نبرهن ، وبالالهام نخترع(٤) .

---

(٣) المؤلف ــ في الحرب ــ كارل فون كلاوزفيتز ــ (ص ١٣٤) تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي .

(٤) المرجع المذكور (ص ٨) ، (الذكاء والقيم المعنوية ٢ .

ويكمل نابليون هذه الصفة الفكرية ، حين يقول :

« انني أبدو دائما جاهزاً للرد على كل شيء ، ومجابهة أي شيء ، وما ذلك ، الا لاني فكرت طويلا قبل الاقدام على العمل ، لقد توقعت كل مايمكن ان يقع ، وليست العبقرية هي التي تكشف لي فجأة وبصورة سرية ما علي ان اقوله او افعله ، في ظرف لا يتوقعه الاخرون .. اذن فمن يقوم بكل ذلك ..؟ . انه تفكيري ، انه التأمل »(٥) .

غير أن رفض نابليون فكرة العبقرية ، التي يعتبرها البعض ، هبوط شرارة في الوقت الملائم على رأس مختار . أو القدرة الروحية والفكرية الخلاقة ، والمنبعثة عن موهبة خاصة، والتي هي صفة ، مركبة من قوة النفس والذكاء الحاد ، الموجهة نحو نشاط من النشاطات البشرية التي منها النشاط الحربي ، لا يعني الغاء العبقرية ، في اساسها ، وانما دعوة الى التفكير والتأمل ، لان التفكير المنبعث من الذكاء الواسع والحاد ، المقترن بالتجربة، والالهام ، يؤلف الاسلحة الفكرية الثلاثة لكل قائد عسكري ..

٢ ـ ان الفكر هو ابن الذكاء ، وهو القدرة على فهم ، العلاقات بين الاشياء والاحداث ، يملكه الجميع بدرجات متفاوتة ، واشكال مختلفة ، ولا يخضع الذكاء الى القياس بشكل دقيق ، ولكن هناك عدة طرق واختبارات لتحديد بعض صفات الذكاء ، والسمات الرئيسة للفكر ، غير ان تلك الدراسات التي تقدم بعض المعطيات الكمية كلها تقريبية ، وهناك احتمال للخطأ عندما نأخذ بنتائج القياس الناجمة عن التجارب المعدة مسبقا وفق مخطط ، ذلك لان من المستحيل تمييز اعماق الانسان الوراثية عن صفاته المكتسبة ..

---

(٥) المصدر نفسه (ص ٣٧ ـ ٣٨) .

ومع ذلك فان الملاحظة والتجربة الدقيقتين المنهجيتين ، بالاشتراك مع المحاكمة التحليلية والتركيبية ، قد استطاعت ان تقدم بعض المساعدة والامكانية ، تسمح بتصنيف الافراد الى زمر ، ومعرفة الصالحين لبعض الاعمال السهلة ، وتقدير امكانيات الشباب ، الا ان هنالك اعمالا تتطلب صفات فكرية خاصة لدى (علماء ، مبدعين ، قادة) مع قدرة غريبة ، هي « مزيج من الالهام ، والتخيل المبدع ، والحدس ، وهذه الصفات الثلاثة تنم عن العبقرية »(٦) .

٣ ـ واني لا احاول تجنب التكرار هنا ، حينما أؤكد ثانية على أهمية اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية ، بعد استعراض آراء عدد من المفكرين فيما تقدم ، وعلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الفكر والحدث (الحرب) وبينه وبين القيم المعنوية ، والفضائل الحربية بالاضافة الى الفضائل البشرية الاخرى ، فضلا عن القيم المادية ، تلك العلاقات التي سنتطرق اليها بشيء من الاسهاب فيما بعد .

ومن الملاحظ ان التجارب الاوربية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة ، تمد جذورها الى اعماق التاريخ باحثة عن المبررات ، والحجج والاساطير ، متطلعة الى صيغة اكثر عملية ، وانطباقا على وقائع المسيرة البشرية من اجل ان تعتمد في التحرك على ارضية الواقع صوب المستقبل ، وليست تجارب الثورة الفرنسية ، والعسكرتارية الالمانية والاشتراكية الطوباوية ، والماركسية، والتوينبية ، في ابعادها الفكرية (الايدولوجية) والواقعية العملية ، الا نماذج فحسب لمدى الارتباط بين الفكر والحدث ، وبين التجربة والحصيلة وبين الرؤية التأريخية(٧) .

---

(٦) المصدر السابق (ص ٨) .
(٧) كتاب ـ التفسير الاسلامي للتأريخ ـ تاليف د. عماد الدين خليل ، ص٧

أن توليد الفكر يأتي لاحقا لتوليد الحدث (الحرب) فمن الذي يقود الاخـر ، الفكـر أم الحدث ..

بيد ان الجواب على هذا التساؤل يأتي في ديالكتيك (جدلية) ماركس مناقضا لجدلية هيغل ، فبينما يرى هيغل ، ان عملية التفكير خالقة العـالم الخارجي ، والعالم ليس الا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ... يرى ماركس على العكس من ذلك ، ان الفكرة ما هي الا العالم المادي ، بعد أن يعكسه ذهن الانسان ويصوغه في شكل افكار ... وبعبارة اخرى انها (الافكار) انما هي انعكاس الواقع الموضوعي على الدماغ البشري[8] .

ويمكننا القول ، ان تأثير طريقة او اسلوب التفكير على النشـاطات البشرية والاحداث العالمية ، لم يكن ملحوظا يوما من الايام مثلما هـو عليه في العصر الحالـي ..

كان التأريخ يبدو ، بسبب طبيعته ، وكأنه بمنأى عن امكانية التعليل بواسطة فكر الانسان ، اما ، لان هذا التعليل ، يتعذر انجازه بسبب وجود مستقبل للتأريخ ، او لان التاريخ عبارة عن احداث غير متوقعـة غـالبا ، ولا تتعلق في غالبيتها ، بالضرورة ، بالاحداث التي سبقتها[9] .

وما ان جاء القرن الثامن عشر ، حتى ظهر انصار التاريخ العام ، وتساءل هيغل بعد ليسينغ ، ما أذا كان من الممكن ايجاد قانون عام لحركة التأريـخ مماثل لقانون الطبيعة وقانون الفكر ، بحيث يكون الفـكر البشـري الذي يعرف قانون التطور ويطبقه جيدا ، قادرا على التطابق مع حركة الاحـداث المولدة للتاريخ ، ومنها الحرب (كحدث) .

---

(٨) المرجـع السـابع – ص ٤٢ .

(٩) الفكر والحرب – جان غيتون ، ص ٦٩ ، تعريب اكـرم ديري والهيثـم الايـوبـي .

والرائع في الامر ان الانجاز البشري يتم بالضرورة ، بفضل قانـــون التطور ، ان البشرية لا تستطيع ان تتمم نفسها كما يقول (غيتون) الا عبر معارضة نفسها ، عبر الصراع والصدام ، ويوجد هنـاك نـوع من المصير المحتوم ، حيث يكون الشر نفسه في خدمة الخير[١٠] •

فاذا انتقلنا من المفهوم السامي واصافي ، في مجال الافكار اي مجال الاحداث (الاعمال الوطنية ، الانتفاضات الشعبية ، انبثاق عقائد انسانية ، والامال القومية) وصلنا بسهولة الى الفكرة القائلة بان الحرب (كحدث) هي القانون الدائم للعلاقات ، وان من الضروري عدم الاستغراب من هذه الفكرة وعدم العمل لاصفاقها ، طالما ان الخير الاعلى لا يمكن ان يأتـي الا من الصراع الاقوى والاعنف ومن التعارض الاقصى •• لان كل شيء ، يعتبر حربا الى حد ما ، حتى السلم نفسه •• الامر الذي يفسر لنا ظهـــور تعابير متعددة تصف السلم القائم باسماء متعددة كالحرب الباردة ، والحرب الساكنة ، والحرب السرية ، الحرب الدعائية ، الحرب الاقتصادية والتجارية او حرب الكلام •••• الخ • وهي كلها احداث ترتبط بالحياة البشريـــــة ومآلهـــا ، كفكرة ورغبات واردة •

وفق هذا المسار ، أذا كانت الحرب هي الحدث المستمر ، والحـــوار العنيف ، او الجدل الداخلي للتاريخ (بحسب تعابير الفلسفة الهيغلية) عندئذ لا يمكن تصور حدوث - على هذا المسار - سوى انقطاعات وقتية قد تطول او تقصر ويبقى المسار مستمرا ولا يتوقف ابدا •

وعليه فلابد ان تتولد لدى قادة الشعوب يوما ما تقنية جديدة تكـــون اقرب الى سيكولوجية الجماهير منها الى استراتيجية القوات المســلحة ، تستهدف هذه التقنية التأثير المباشـــر على البنية التحتية اللاواعيـــة لدى

(١٠) نفس المصـــدر ، ص ٧٩ •

الانسان • ولايضاح هذه الفكرة ، التجيء الى التساؤلات التي اثارها (غيتون) قائلا :

لم لا نستخدم المعارف الجديدة التي نملكها عن اللاشعور وعن الحلم والهذيان ، وعن الايحاء •• ؟ ولم لا نستخدم الحد الاقصى لتفتيت القوى التي تجابهنا ••؟ • والتي هي في جوهرها قوى نفسية ! وقد كشف لنا الطب النفسي وجودها وقوتها ، من بينها مثلا « الشعور المرضي بالخطأ »(١١)•

ومن الجدير بالملاحظة ان كل هذه الطرائق ، سواء ما استخدمت من قبل عقائديين او رؤوساء (ماديين) عبارة عن اساليب للاقناع تفترض تفوق الفكر على الجسد ، وتفوق الفكرة على المادة ، والعقيدة على القتال •• وانطلاقا من هذا المنظور ، على الفكر ان يخضع للحقيقة لا ان يخضع الحقيقة لقوانينه ••

واخيرا ينبغي كما قال (اوغوست كوت) « ان يكون الفكر دائما سيد القلب ، لا أن يكون عبداً له »(١٢) •

فاذا كان من الضروري الاقرار ، بان دور القيم المعنوية الى جانب دور القيم المادية ، في العمل ، دور مهم وواسع ، علينا أن نقر ايضا بان دور الفكر الذي يقود ويوجه تلك القيم اعظم واوسع من جهة ، ومن جهة اخرى ، لانه مكتشف جميع القوى في العالم ، سواءاً أكان انعكاسا للحدث ذاته او خالقا له •• ولكن « اكبر ابتكار للفكر البشري هو الابتكار الذي يعطي وجوداً لما لا وجود له » برأي نابليون عند وصفه للعبقرية •

(١١) المصدر السابق ، ص ٨٧

(١٢) كتاب ـ الذكاء والقيم المعنوية ـ جان بيريه (ص ٦) تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي •

الجـدليـة ـ (الديالـيكتيكية) ـ والحرب :

٤ ـ لقد بحث (جان غيتون) وهو أحد الفلاسفة الفرنسيين من (المجمع العلمي الفرنسي) في كتابه (الفكر والحرب)[١٣] موضوع الحرب ، وفق جدلية ـ هيغل ـ وماركس ـ انطلاقا من ملاحظته بوجود علاقة خفية بـين طرائق رجل الحرب وطرائق رجل الفكر ، وأن هذه الطرائق قادرة على أن توضح بعضها وتدعـم بعضـــها تماما كما فـكر (ديـكارت) بالنسبة الى الهندســـة والجبـر ••

ولقد كان ابو الفلسفة (ديكارت) فيلسوفا وجنديا بآن واحد ، ولهذا فان الطريقة التي وضعها ، والتي انبثق منها الفكر الحديث ، مرتبطة ارتباطا غير عرضي بالتفكير حول الحرب •

وهناك قرابة خفية بين المبادىء التي تستوحي منها هذه الطريقة وفن الحرب ، المذكور في بديهياته الدائمة •

ويعتبر (غيتون) طريقة الجدلية (الديالكتيكية) طريقة طبيعيةبالنسبة الى الفكر البشري (لان الفكرة في الوقت نفســـه حـوار داخلي وحـديث مـع النفس) ••

ولنا الان ان نتوقف قليلا عن السير مع الفيلســـوف في مخاضـات الفلسفة الديالكتيكية هذه ••• ونقبل دعوته الى التفكير معه بالطبيعة الالية والسهلة والسطحية غالبا ، التي تقدمها لنا الطريقة الجدلية في حالات كثيرة والتي هي ببساطة عبارة عن تطبيق لحظات الجدلية الثلاث التي ـ كما هـو معروف ـ تتشـــكل من :

المقولـة ـ والنقيض ـ والمركب •

---

(١٣) الفكر والحــرب ـ جان غيتون ، ص ٣٩ ـ تعريب اكـــرم ديري والهيثم الايـــوبـي •

او كما يسـميها البعض :

الفرضية ـ والنـفي ـ والصـيرورة •

ويطبقها على موضوع الحرب باعتبارها ، حدثا يستمد قوته من الفكر •• حيث يقـول :

ان رجل الحرب في وضع افضل من رجل الفكر ، لان رجل الفـكر يهتم بالفكرة المجردة ، وهو ميال بشكل او باخر ، لايجاد النقيض (النفي) وفق صورته وشبهه •• في حين ان رجل الحرب ، لا يحتاج الى البحث عنه بعيدا •• فالنقيض بالنسبة له هو « العدو » وهو لم يخلق هذا العدو وفق صورته •• وهذا العدو شيء مختلف عنه . يعمل مافي وسعه بغية الاختفاء، والمباغتة ، وهو ليس متحدلا باستمرار ، ومعاديـا وغامضـا ، ومموهـا فحسب ، بل معقد ويعمل دائما لتحقيق الخداع انه نقيض (حقيقـي) لا مصنوع ، متحرك مخادع ، خبيث[١٤] ومن هنا يظهر الحرب ضمن مراحل الجدلية الثلاث كما يلي :ـ

المقولـة (الفرضيـة) = وضعنا ونوايانا •

النقيضـة (النفـي) = وضع العدو ونواياه •

المركب (الصيرورة) = الانتصـار •

وهذه المرحلة الاخيرة وهي المرحلة الاهم ، قادرة على خلق عدم توازن، يلائمنا ، ويتم الحصول على عدم التوازن هذا عن طريق التغلب على النقيض (العـدو) وهذا يعني النصر •

ومن ثم يستخلص (جان غيتون) في نهاية تطبيقه للجدلية على ادارة الحرب ، فكرة ستراتيجية رائعة ، حري بالاقتباس ، وهو حيث يقول :ـ

---

(١٤) نفس المصدر السابق ـ ص ٥٦ •

« نلاحظ هنا بالنسبة الى الانتصارات التي تستحق الاعجاب اكثر من غيرها ، بدأت غالبا بلحظة هزيمة ، وينطبق هذا القول على معركة مارينغو ، ومعركة اوسترليتز ، ومعركتي عام ١٩١٤ – ١٩١٨ ، وانا أميل الى الاعتقاد أن هذا يعود الى طبيعة الاشياء البشرية ، التي تعتبر ، ان اكثر النجاحات ضمانا هي عبارة عن نكسات اصلحت وسلبيات قومت ، ورفع مستواها وهذا هو جوهر مسار الجدلية »[١٥] .

ويحدد (غيتون) بعد ذلك الصفة الفكرية للقائد : بأن يتمتع بفكر لا يتمسك بمنهج محدد ، ولا يصاب بالتحطيم عند المفاجأة ، ولكنه ينتظر الاحداث المفاجئة ، نظراً لان عبقريته تتسم بميزة مجابهة مثل هذه الاحداث، ويعرف جيدا ، ان النصر ينبثق بسهولة من وضع يبدو وكأنه هزيمة ، لان اكثر اللحظات حساسية بالنسبة للخصم هي اللحظة التي يرى نفسه منتصراً[١٦] .

وحينها يتم تحليل الحروب عبر العصور ، بشيء من العمق والتجرد وفق قوانين ومنهجية جدلية ، ومن هذا المنطلق ، نرى حروبا ، قد دارت رحاها ، بفكر نابع من خلفية فلسفية او عقائدية ، أضحت انجازاتها هامة وحاسمة على الدوام .. وعلى العكس من ذلك ، كلما كان العمل متقدما على الفكر ، لا يستند على عقيدة او فلسفة معينة ، وكأن الفكر ينوء تحت وطأة العمل في ادارة الحرب .. انساقت اطراف النزاع الى طريق مسدود.. وكانت الحرب بينهما « عقيمة » لم تبلغ هدفها .. حتى وان أحرز فيها أحد طرفي النزاع الانتصار ، وهزم الطرف الاخر .. ذلك لان « المولود » أي « الصيرورة الجدلية » لم يتمخض الا عن سلم مؤقت ، يفتقر الى مقومات الديمومة والرسوخ ...

---

(١٥) نفس المصدر السابق – ص ٥٨ .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

وفق هذا المنظور نجد ان هنالك حروبا سعيدة (أذا صح لنا هــذا التعبير) قد نشبت في التأريخ ، كان قد اخضع فيها العمل لتوجيه الفكر ، ونعني به « انعكاس واقع العمل الموضوعي على الفكر » او بعبارة اخرى « انعكاس واقع شكل الحرب المقبلة على الفكر » كان « الوليد » سلما دائما وعادلا •• لم يتضمن في طياته ، احتمالات العودة الى الحرب ثـانيـة ، بين نفس اطراف النزاع على الاقل ••

هذا وأن الحروب الثورية (حرب فيتنام ، كوريا ، كومبوديا ، الثورة الجزائرية ••• الخ) عبارة عن نماذج وأدلة ساطعة لهذه الحقيقة التي خضع العمل الحربي لتوجيه الفكر الثوري (السياسى والاجتماعي والنفسى) •• في حين ان تلك الحروب في الجانب الاخر من التل (جانب الدول الاستعمارية التي شنت حروبا لقمع تلك الثورات وكـــذلك الحربــان العالميتــان الاولى والثانية ، وحملة السويس عام ١٩٥٦) تعتبر أدلة ونماذج للحروب العقيمة خضع فيها الفكر لتوجيه العمل ، فهزم القوي امام الضعيف ••

الفصــل الثاني

« الفكر والحرب »

* تنشأ الحروب والثورات ، في نهاية المطاف من تفكير المحاربين والثوار ، بالمعنى النهائي للانسان ، والحيـاة ، والمـوت •

* عالج الستراتيجيون من أمثال (جبير) الحــرب كفـكرة ، أسـوة بالسياسة ، والاقتصاد، والتشريع ، والفنون والتعليم•

* لم يعد الفكر الستراتيجي ، يكتفي بدراسة الحـرب كعمل مادي عنيف ، بل اصبح يهتم بدراسة الحرب كحدث يستمد قـوتـه من الفـــكر •••

* فما هي صفات الفكر العليا ••؟ وما هي خصائص هذا الفكر ووظيفته في الحرب ••؟ كذلك طبيعـة المعـارف الضروريـة وغـذاء الفـــكر ••!

ولـم لا يكـون القائـد الحربي عالمـا ••؟

الفصل الثاني

ـ الفكر والحرب

١ ـ لقد بات من الواضح ، بأن الحروب والثورات ، تنشأ في نهايـــة المطاف من تفكير المحاربين والثوار بالمعنى النهائي للانسان والحياة والموت، وما بعد الموت ، ومن البديهي ان تختلف ردود فعل الشعوب بحسب درجة قوة الأيمان بالعقيدة والاهداف •• وهذا ما نفترض وجود فلسفة ماوراء الطبيعـة (الميتافيزيقية) •• لان عدم التضحية ، او التضحية بحياة الاف ، وحتى ملايين من الافراد ، مسألة ، ترتبط ـ برأي جاك غيتون ـ بالحيـــاة البشرية ومآلها •• وقد عبر (بسكال) عن هذه النظرية بقوله « يتغير علـم الاخلاق تغييرا كبيرا وفق الايمان بخلود الروح او بفنائها »[١]••

ومع أن الحرب حدث من أهم واخطر الاحداث في حياة الشعوب والامم، وكانت تعتبر قدرا الهيـا محتوما ، في بدايات الحضارات وحتى الحـروب الاخيرة •• فان الاستراتيجيين (كما يقول جاك غيتون) يصمتون امام هذه الحالات العقائدية ، لانهم يعتبرونها مجالات ذاتية او خاصة او سرية ، لا تهم رجال الحرب ••• كذلك الذين يصنعون الثورات او يقاومونها يخضـعون لقانون هذا الصمت •••

---

(١) كتاب ـ الفكر والحرب ـ جان غيتون ، ص ١١ • تعريب اكـرم ديرى والهيثـم الايوبـي •

ولكن عصرنا الحالي الواضح ، لا يقبل الغموض والاساطير المقدسة السابقة أبدا •• وأن اكثر المشاعر احتراما ، والتي كانت حتى يومنا هـذا لا تمس ، دون ان يشكل مسها تدنيسا لمحرمات ، لم تكن كافية لتوحيد الضمائر ••

ولا يتساهل الشبان ، وهم صورة المستقبل ، ازاء النفاق والدجل ، حتى لو كان مفيدا ، وكذلك أزاء الخداع المقدس ، وهذا لا يعني ان الحب والاخلاص للوطن والامة قد تناقص وتدنى ، وانما يعني انه ينبغي ان يكون هذا الحب وذلك الاخلاص ، معللا ، ومقنعا ، وذاتيا ، وواعيا ••

فهل علل الشبان الايرانيون والعراقيون الصغار الذين زجوا بمحرقة الموت ، هذا الحب والاخلاص ••؟ فهل أقتنعوا بهذا الاندفاع المجنون ذاتيا وواعيا ••؟•

حينما ينظر الى الحرب باعتبارها حدثا من أهم احداث حركة التأريخ البشري ، ينبغي أن ينظر الى الفكر الذي يعكس هذا الحدث العنيف ، او ينعكس عليه •• فان اشكال العمل التي تنبثق من هذا الفكر تكون مختلفة، من سيء وحسن •

ويعتبر (ليدل هارت) في مؤلفه « الاستراتيجية وتأريخها في العالم »[٣] ان احسن شكل من اشكال العمل الذي يمكن ادراكه وتصوره واكثره فاعلية للانتصار على المدى الطويل •• هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة دون لف او دوران او قيود او تحفظات ، ويدعى هذا الرجل نبيا•• ويضيف ليدل هارت قائلا : مما لا ريب فيه ان عمل النبي يتعلق بعمل القائد ، وان على القائد ان يكون ستراتيجيا وفيلسوفا في الوقت ذاته • • وهذا يعني عليه ان يثبت اهتمامه بتجسيد مااعتبره النبي حقيقة •• وان يطابقها مع الظروف وان يقبل الشر الذي لا مناص منه ••

---

(٣) راجع المؤلف – الاستراتيجية وتأريخها في العالم – ص ٢٣ ، تعريب المقدم الهيثم الايوبي •

ولكن على حكمة القائد ، أن لا تضحي بالحقيقة على مذبح سير الامور الآنية دون فائدة مجدية للمصلحة العامة ، ولان : « كل من اعتـــاد اخفاء الحقيقة ، بغية تسهيل العمـــل الفوري ، انتهى الى فقدان قـــوة تفكيره وســـلامته » ..

ان ليدل هارت كما يقول (جان غيتون)[٣] عبر بذلك تعبيرا صـــادقا وقويا عما تقوله جميعا بصوت منخفض : ان العلم والتقنية والسياســـة والاستراتيجية ، ليست الا وسائل تقرب المرء من غرضه النهائي ، وهو امتلاك الحقيقة والتمتع بها ، وهذا مايسميه الاقدمون « الحكمة » وهناك فرق قائم بين العلم والحكمة ، معروف من قديم الزمان .

فالعلم يقتصر على المعرفة الشفافة ، أما الحكمة ، فهي فن السـعادة ، والسمو رغم الآلام ، والهدوء ورباطة الجأش في حالات المشـل .. وبـين العلم والحكمة ، يقف الفن ، وهو مركب من العلم والحكمة ، لانه الممارسة المستندة الى المعرفة ، وبأقامة هذه العلاقة بين العلم والحكمـة والفن رفـع (غيتون) الحرب على دعائم ثلاث كما سنوضحها عند الكلام عن الفـــكر والنظريـــة الحربيـــة[٤] ..

ان فن الحرب تقنية تستهدف الخير رغم الالم الـذي يســـببه موت الالوف ، ذلك حينما يكون هدف الحرب هو انقاذ الشعب الذي يخوضها، وتجنيبه الهزيمة الجذرية التي تتأتى من خســـارة الاســـتقلال والانتقاص من الحريـــة ..

---

(٣) كتاب الفكر والحرب – جان غيتون – ص ٧ ، تعريب اكرم ديرى والهيثم الايـــوبي .

(٤) راجع الفصل الثاني عشر – ص ١٣٩ .

٢ ـ الحـــرب كـفكرة :

في القرن الثامن عشر ، عالج الاستراتيجيون من امثال (جيبر) الحرب كفكرة •• أسوة بالسياسة والفنون والتشريع والاقتصاد ، والتعليم ، ولكن حتى الان ، ومازلنا ، ابناء هذا القرن المفكر والعاقل أحيانا ــ والمجنون والمدمر أحيانا اخرى ، حيث لا وجود لفكرة من الافكار ، أذا لم تـهز الاسس من جذورها ، ومع ذلك ، من الغريب ان نرى حروبا عديدة قد وقعت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تقدم فيها العمل على الفكر ، وبدا وكأن الفكر ينوء تحت وطأة العمل (الحــرب) ••

ويقول (جان غيتون) لقد انقلب التعبير العسكري الذي ، يدعــى (الستراتيجية) واضطراب عند بحث المسألة العاجلة التي كانـت تتضـمن دروسا من الحرب الاخيرة (العالمية الثانية) لاعداد حرب جديدة (الثـالثة المحتملة) •

ويضيف أما الذين حاولوا السمو على هذا الهدف (وكان اعظمهــم (كلاوزفيتز) بعد (جوميني) ثم ليدل هارت في انكلترة و (ريمون آرون) في فرنسا) ولكن الفلاسفة لم يستمعوا اليهـم كـما ينبغي ، ورغـم اهتمام فلاسفة القرن العشرين بالعلوم والاديـان والفنــون ، فانهم لـم يهتمـوا بالستراتيجية ابدا •• ولكن ، بيد ان الامر لا يمكن ان يبقى بهذا الشكل فيعصرنا الحالي بسبب الطفرة الستراتيجية الناتجة عن ظهور الردع النووي والاسلحة الحديثة المتطورة الفتاكة ، مما يدعو مد الانظار نحو مجال عمل اكبر من عمل الاسلحة والمعدات ، الى مجال الفكر •• الفــكر الذي يقـود السياسة والاقتصاد والحرب •• لان رجل الســياسة ورجــل الاقتصاد كالفيلسوف والرجل العادي ، أحسوا جميعا بانهم معنيون بالحرب المحتملة،

(٥) المصــدر الســابق ، ص ٨ ــ ٩ •

فمن واجبهم الاهتمام بالستراتيجية[٥] فاتجهت الانظار نحو هذه العلاقة القائمة في العصر النووي والاسلحة المتطورة الفتاكة ، بين الفكر ـ والحرب ـ والستراتيجية تباعا .

وهكذا فان العالم قد شهد في النصف الثاني من القرن العشرين طفرة فكرية وستراتيجية واسعة بسبب ظهور (المطلق) اي السلاح النووي ..

ولم يعد الفكر الستراتيجي يكتفي بدراسة الحرب كعمل مادي عنيف تشترك فيه القوات المسلحة لاطراف النزاع ، بل اصبح يهتم ايضا بدراسة الحرب كحدث يستمد قوته من الفكر ، ويسعى كل طرف مشترك فيها ، الى التأثير على فكر الطرف الاخر ، ومعتقداته ومفاهيمه ..

وتطرح هذه النظرة دراسة العلاقة الوثيقة القائمة بين الفكر والحرب.. لازدياد هذه العلاقة في العصر النووي الى حد لم تعرفه البشرية من قبل . وانعكاس هذا الازدياد على الستراتيجية المعاصرة التي لا تختلف عن ستراتيجية عصور ماقبل الذرة ، في درجتها فحسب ، بل وتختلف عنها في طبيعتها ايضا .

ويستخلص من كل ذلك : ان الاحداث الحربية ، ليست الا انعكاسات للافكار المسبقة ، لذا فان الحرب عبارة عن فكرة في الاساس والجوهر . . تتجلى فيها أهمية اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية ، ذلك لان الفكر هو الذي يربح الحرب وهو الذي يخسرها ، فالفكر من القوة والسعة في الحرب ، كما في النشاطات الاخرى في الحياة ، بحيث يكون قادرا على تبديل طبيعة الحدث الواحد ، واعطائه وصفين مختلفين مثال ذلك :

« القائد الذي يتمركز بين قطعتين معاديتين ، يصف الحادث لقيادته العليا .. (انه لقد مزق جيش العدو وشطره الى قسمين) .. في حين انالقائد المعادي يخبر مقره الاعلى من جانبه انه .. (قد وضع العدو نفسه بين النارين) ..

فأي القائدين على خطأ .. ؟ وايهما على صواب ..؟ .. ان المخطىء، ولا شك هو ، من يصاب تفكيره من بعد ذلك بالتردد او الشلل فيخسر المعركة .. أما الفكر المبادر في حالة تساوي الظروف على وجه التقريب ، لاسيما فيما يتعلق بالعدة والعدد فهو الذي يربح المعركة ، مع صحة كلا الوصفين السابقين »(٦) .

على ذلك يمكننا القول ، لابد من وجود صفات محددة وواضحة للفكر تمكنه من التعامل المتلاءم مع احداث الحرب المختلفة . كما سترى ..

صفات الفكر العليا :

٣ ـ ينبغي على الفكر ، الذي يتولى قيادة الحرب ، وتنعكس عليه أحداثها ومفرداتها ، بصيغ وقوالب محددة وغير محددة أن يتمتع بصفات عليا متميزة ، بحيث تتلاءم وحجم المخاطر ، وعنف الاحداث التي تنطوي عليها ، كذلك التغيرات الجذرية التي ستؤول اليها الاحداث في نهاية المطاف .. فما هي اذن صفات الفكر العليا ..؟ او بالاحرى ماذا يجب ان يتطلب من صفات الفكر العليا في الحرب ..؟

ان المطلوب منه كما يرد (كلاوزفيتز) على هذا التساؤل : « القدرة على التركيب والحكم على ان تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد ، خلال تحليقها الف فكرة غامضة ، يتعرض الذكاء العادي الى صعوبات هائلة قبل كشف غموضها ، (لان الحقيقة نفسها واقع ضعيف) وهناك اختلاف كبير بين العلم والارادة ، وبين المعرفة والقدرة كما ويشكل الشعور أهم الدوافع التي تحث المرء على العمل ، على حين يتلقى الانسان افضل الدعم من تلاحم الروح والفكر .. ذلك التلاحم

---

(٦) المثال مأخوذ من اقوال (جوزيف دوميستر) في حاشية ص ٣١٢ من المصدر السابق .

الذي يدعي بتسميات متعددة ، كالتصميم . والصلابة وقوة الشخصية[٧] وقـــوة الايمـــان .

ويتابع (كلاوزفيتز) « اذا فكرنا في الاختلافات الموجودة بين الصفات الفكرية التي تحددها تعابير اللغة العادية ، دون ان تحاول تعريف القـــوى الاسمى للروح بشكل ادق ، وتسألنا عن نوع الذكاء الذي يلائم العبقريـة العسكرية اكثر من غيره ، دلنا التمحيص ، وعلمتنا الخبرة ، على اننا نفضل في الحرب ، الافكار المستقصية اكثر من الافكار المبدعة ، والذكاء الواسـع اكثر من الذكاء الموهوب في اختصاص معين ، والادمغة المتزنـة اكثـر من الادمغـة المندفعـة[٨] .

وينبغي التمييز بين الادمغة المندفعة والادمغة المبادرة ويكون من المفيد ان نستمع الى (جان غيتون) وهو يقول بهذا الصدد :

« ان جميع العناصر التي ترتكز عليها مبادرة ما ، يزنها رجل واحد ، هو القائد » « ولذهنه المتردد » او « المدفوع الى المبادرة » نصيب كبير في التقويم الذي يكوّنه عن كل عنصر من هــذه العناصر ، فالذهن المتــردد يميل الى تضخيم الصعوبات في حين يميل الذهن المبادر الى تصغيرها ، ويتجه تفكير المتردد بشكل خاص نحو مايجب ان يخشاه لدى عدوه ، بينما يفكر الذهن المبادر ، قبل كل شيء في عمله هو ، دون ان يهمل ما ســـيقوم بـه الخصم .. والمتردد بطيء في اتخاذ القرار ، مما يتيح لخصمه فرصة سـبقه وضربه ، أما المبادر فانه يقرر بصورة اسرع ويفرض بالتالي مبادرته ...

(٧) المؤلف في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ـ ص ١٣٤ تعريب اكرم ديري والهيثم الايـــوبي .

(٨) نفس المصـــدر الســـابق ، ص ١٣٥ .

فالمبادر هو الذي يطرح المسألة ويمسك الورقة الرئيسية الرابحة بيده، التي ستؤمن له المكسب اذا كان قد زان الامور بصورة صحيحة»[٩].

غير اننا نرى ذلك يتبع مسألة المزاج وليس الفكر ، لان التردد ينتج عادة عن الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، في حين ان المبادرة على العكس من ذلك تنبع من الشجاعة ، والثقة العالية بالنفس ، وان كان للخوف والشجاعة والثقة بالنفس صلة وثيقة بالفكر والذكاء كما سنرى ذلك عند بحثنا الفضائل الحربية ـ وعلاقتها بالفكر في الفصول القادمة ـ « الفصل الثالث الى الفصل العاشر » .

خصائص الفكر ووظيفته في الحرب :

٤ ـ وتعتبر الخصائص الفكرية للقائد من الاهمية بمكان الى جانب خصائصه النفسية والمعنوية .. ان محصلة هذه الخصائص الثلاثة ، هي التي تضع القائد بمكانته الصحيحة .. فبالاضافة الى ماذكرناه ـ في الفقرة السابقة ـ فان ماينتظر من دماغ متقلب خيالي ، مندفع في الحماس ، قليل النضوج ، لا يشبه بما ينتظر من ذكاء متزن وحاد وهادىء في أية حال من الاحوال .

وتزداد وظيفة الفكر في الحرب ، وعند استخدام العنف ، وان هناك ثورة تتحقق في هذا المجال ، وانه لكي نتحرى بدقة معنى مايحدث تحت بصرنا ، علينا ان نتجاوز اختصاص الحرب او السياسة والقانون ، والاقتصاد، والاخلاق .. وان نحاول رؤية الفكر الذي يمثل اساس العلاقات الداخلية لهذه الاشكال المختلفة من العمل ، وأن ننظر الى كل شيء نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة[١٠]

---

(٩) كتاب الفكر والحرب ـ جان غيتون ـ ص ١٤٧ ، تعريب المقدم الهيثم الايوبي واكرم ديري .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٩ .

ان فكرة الحرب على المؤخرات ، مقرونة بالحرب النفسية ، التي تستهدف شل الجهاز العصبي المعادي ، التي اتبعها هتلر في الحرب العالمية الثانية ، فوسع بذلك مفهوم الستراتيجية ، في الهجوم غير المباشر ، ترتبط فكرته تلك كما يقول (ليدل هارت) بشكل دقيق ، بجميع القضايا الناجمة عن تأثير الفكر على الفكر[11] .

واذا كان المطلوب من الفكر ان يتمتع بصفات عليا وخصائص معنية هكذا عليه لابد وان يكون مزوداً بمعلومات ذات طبيعة معينة وضرورية في الحرب ، فما هي طبيعة المعارف الضرورية للفكر في الحرب ..؟

طبيعة المعارف الضرورية في الحرب :

٥ – ليس من الضروري ان يكون القائد مؤرخا واسع العلم او أديبا او كاتبا ، كما يقول (كلاوزفيتز) ولكن عليه ان يكون مطلعا على شؤون الدولة العليا ، ان كان قائدا عاما ، وينبغي ان يعرف كيف يقدر بصورة صحيحة النزعات التقليدية والمصالح الحيوية ، والمسائل الواجب حلها ، كما ينبغي عليه ان يعرف الشخصيات المسؤولة ..

وليس من الضروري ان يكون عالما نفسانيا حاذقا ، او يقوم بتحليلات عميقة للطبيعة البشرية ، الا انه ، عليه ان يعرف طباع مرؤوسيه ، وطرق تفكيرهم ، واخلاقهم ، وصفاتهم ، وعيوبهم الخاصة ...

غير ان لليدل هارت رأيا اخر في هذا الموضوع ، ويوافقه عليه المارشال مونتغمري فهما يريدان « ان يكون القائد استراتيجيا وفيلسوفا في الوقت ذاته ... ورجلا استثنائيا ونادرا ، أذا ماوصل حد الكمال ... ويعلقان عمل النبي بعمل القائد[12] .

---

(١١) كتاب الاستراتيجية وتأريخها في العالم ، ص ٣٣ ، ليدل هارت – ترجمة الهيثم الايوبي

(١٢) راجع نفس الفصل ، والفصل العاشر .

وانا نتطابق مع الرأي الاخير ، فيما يتعلق بالقادة في اعلى المستويات.

ولو ان القائد الاعلى لا يحتاج الى معرفة كل التفصيلات ، ولكن عليه، أن يكون فكرة صائبة عن الامور الجوهرية ، فضلا عن المعارف التي لاتكسب الا بالحكم الصحيح المطبق على الحياة العملية ، كما لا يمكن ادراكها الا بالموهبة او بشيء من العبقرية ..

ومن غير المجدي الاستعانة بحقائق مضادة وبحذلقة في سبيل اثبات القيمة الفكرية للنشاط العسكري .. فليس هناك في التأريخ رجل كبير او قائد عسكري بارز محدود الذهن ، ولكن الحالات التي نجد فيها رجالا في الوظائف الصغيرة حالات عديدة ، الا انهم عندما انتقلوا الى الرتب العليا ، بقوا في مستوى اقل من المستوى المتوسط ، لعدم كفاية مداركهم الفكرية..

لذا فمن الضروري ان يقام نوع من التسلسل بين الرجال الذين يتولون القيادات ، وكذلك ضمن قيادات عامة استنادا الى درجة السلطة التي يتمتعون بها ، وهذا ما هو متبع في جيوش جميع الدول تقريبا ، اليوم .

غـذاء الفـكر :

٦ ـ يتكون فكر الانسان ، وينمو عبر المعارف التي يتلقاها ، ومن خلال التوجيه التي يطبعه بطابعه ..

ان العظمة ـ كما يقال ـ هي التي تجعله عظيما ، أما التفاهات فتجعله تافها .. الا اذا كان لدى فكر ما ، الاستعداد الكافي للفظ كل هذه التفاهات دفعة واحد ، للتمسك بما هو ، قيم ، ومجد ونافع ..

ان النظرية الحربية تعالج عدداً ضئيلا من الاشياء ، وهذا مايقلل من المعلومات والمعارف الضرورية لادارة الحرب .. وعليه فان الكميات الهائلة والتفصيلية من المعارف ، يفترض وجودها قبل ان ينتقل الجيش المجهز تجهيزا كاملا الى مواقعه القتالية ..

وقد انكر البعض بساطة المعلومات والمعارف الضرورية للحرب وخلطوا دائما بين المعرفة الحربية ومجموعة المعارف والكفاءات الثانوية ، لذا فانهم وجدوا انفسهم غير قادرين على حل التناقض الخفي الذي يقعون فيه مع ظواهر الاشياء وحقائقها ، وعليه فقد أثارت لديهم هذه الارهاصات التساؤل التالي :-

« لِمَ لا يكون القائد الحربي عالماً .. !؟ »

٧ - من الملاحظ ان القادة العسكريين الكبار ، يبرزون بسرعة في الحرب ، وكثيرا مانجح رجال نجاحا باهرا في الحرب على المستويات العليا، وفي مناصب قيادات عامة ، مع ان نشاطاتهم كانت مختلفة عن النشاط الحربي ... والواقع ان القادة العظام لم يخرجوا أبدا من طبقة العلماء - برأي كلاوزفيتز - لان وضعهم لم يكن يتيح لهم الحصول على معلومات واسعة، لذا القي كل شيء برأيه على عاتق العبقرية ...[١٣]

وهذا لا يعني بالضرورة عدم خروج قادة بارزين من بين طبقة الضباط المثقفين ثقافة عسكرية عالية . الى جانب اولئك الذين كانت نشاطاتهم مختلفة عن النشاط الحربي .. والغريب ان كلاوزفيتز صاحب الرأي الاول الذي وضع معظم استنتاجاته (في الحرب) من الدروس التي استقاها من الحروب النابليونية لم يشر الى النخبة من القادة العسكريين الذين خرجوا من بين المثقفين العسكريين .

فاذا كان لا مناص من متابعة افكار (كلاوزفيتز) هذه وقبولها ، علينا ان نستمع اليه وهو يتابع القول بهذا الصدد :

« هكذا أمام هذه الحقيقة احس اصحاب الحس السليم بالفراغ الكبير الذي لابد من اشغاله بين العبقرية الفذة - والمثقف ثقافة عسكرية عالية ..

---

(١٣) الوجيز في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١٦٣ ، تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

فتوصل هؤلاء الى رفض كل نظرية ، واعتبار العمل الحربي ، نوعا من المهنة الطبيعية للرجل .. يقوم بها بشكل جيد او سيء طبقا للصفات الموروثة التي وهبتها لـه الطبيعـة .

ولا ينكر (كلاوزفيتز) كون هؤلاء أقرب الى الحقيقة من اولئك الذين أولوا أهمية كبرى لتزويد من يؤهل للحرب بمعارف خاطئة وغير نافعـة ، فلا وجود لنشاط ممكن للذكاء الانساني دون وجود كمية معينة من المفاهيم، ومعظم هذه المفاهيم على الاقل غير موروثة »[١٤] .

فالجواب على ذلك : ان على المفاهيم ان تكون موجهة نحو الامور التي تهمنا مباشرة في الحرب وان تتطابق مع الرتبة والمنصب والمهام .

تطابـق المعـارف مع الرتبـة :-

٨ - ينبغي ان تتغير المعارف مع اختلاف الرتبة والمنصب ، وتنصب على أشياء أقل أهمية واكثر تحديدا في المستويات الادنى وعلى امور أهم واوسع في المراتب العليا ، فلو تسلم بعض من كانوا في القيادات العامة ، قيادة لـواء مشاة مثلا لما نجحوا ، والعكس صحيح ايضا ..

فيمكن القول ان النشاط الفكري الحربي ، ليس سهلا ، وبسيطـا الا في المستويات الصغرى ، ويزداد صعوبة تبعا لعلوه في سلم القيادة .. ويغدو هذا النشاط من اصعب الصعوبات التي يواجهها الفكر البشري على مستوى القيـادة العامـة .

٩ - تحـويـل المعـرفـة الى الأرادة :

ينبغي أن تتحول المعارف في الشؤون الحربية الى الارادة .

ولكي تتحول المعرفة الى الارادة ، من الضروري ، تمثيل هذه المعرفة وهضمها كاملة في الذهن ، حتى لا يبقى شيء موضوعي ، على وجهالتقريب.

---

(١٤) الوجيز في الحرب - كلاوزفيتز ، الكتاب الثاني ص ١٦٣ ، تعريب : اكرم ديري والهيثم الايوبي .

ففي معظم الفنون ونشاطات الحياة الاخرى ، يستطيع الشخص القائم بها ، ان يستخدم الحقائق التي تعلمها برمتها ، ويمكنه استخلاصها من الكتب والمصادر ، دون ان يعيش روحها واتجاهها ، حتى بعض الحقائق التي يستعملها يوميا ، قد تبقى غريبة عنه ..

فأن حسابات المهندس وفحوصات الطبيب ، لا تنبع من الذهن دفعة واحدة .. في حين ان الامور في الحرب لا تجري بنفس الاسلوب ، فرد فعل الفكر ، والشكل المتبدل للاشياء باستمرار ، يجبران القائد العسكري ، على أن يحتفظ بكل علمه كاملا في جهازه العقلي ، وان يكون في كل مكان وفي كل لحظة ، قادرا على ان يستخلص من علمه القرار الضروري والمناسب مع الموقف .. وبهذا المعنى يردد العسكريون المقولة الشائعة « العلم في الرأس وليس في الكراس » .

ان هذا التمثيل الكامل للمعرفة في ذهن رجل الحرب وهضمها في حياته العسكرية الخاصة يحول المعرفة الى قدرة حقيقية للعمل وبأرادة قوية، وبمبادرات تلقائية ، وهذا هو السبب الذي يبدي كل شيء سهلا للرجال الذين يبرزون في الحرب .. لان معارفهم كما قلنا تتحول الى ارادة عمل قوية..وقد يعزي البعض ففهم هذا الى الموهبة الطبيعية ، غير ان ذلك، في الحقيقة يعزى الى تكوّن العادة الفكرية لديهم أي تتحول عندهم المنبهات الى الاستجابات بطريقة آلية ...

وهكذا نصل الى الاستنتاج من ان الحرب عبارة عن فكرة في الاساس، والجوهر ..فتتجلى فيها اهمية اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية ،لان الفكر هو الذي اضحى يربح الحرب ويخسرها .. فلابد اذن ، يتمتع بخصائص معينة ، كما بينا ، ان يكون له « القدرة على التركيب والحكم » على أن تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد خلال تحليقها ألف فكرة غامضة ، لتحديد الفكرة الوحيدة الصائبة،

وبدائلها ، ولاشك ان مثل هذا النوع من الصفة الفكرية ، لا ينبع الا من ذكاء الذي يتلاءم مع العبقرية العسكرية ، والذكاء المطلوب هنا ، هو الذكاء الواسع اكثر من الذكاء الموهوب في اختصاص معين ، النابع من الادمغـة المتزنة اكثر من الادمغة المندفعة ، على ان يجري التمييز بين الادمغة المبادرة، والادمغة المندفعة واخرى المتخاذلة او المترددة . وكذلك يفضل في الحرب الافكار المستقصية اكثر من الافكار المبدعة ..

ولما كان المطلوب من الفكر ، هكذا ، ان يتمتع بصفات عليا وخصائص معينة ، فلابد اذن ، ان يكون مزودا بمعارف ومفاهيم ذات طبيعة معينة ، وضرورية في الحرب .. حيث لا وجود لنشاط ممكن للذكاء الانسـاني لاستقصاء افكار خلاقة ، دون وجود كمية معينة من المعـارف والمفاهيـم ، ومعظم هذه المفاهيم على الاقل غير موروثة ... ولا غرو ، تناسـب تلك المعارف مع الرتبة والمنصب ، ولكن المطلوب التمثيل الكامل للمعارف فـي ذهن رجل الحرب وهضمها في حياته العسكرية الخاصـة ، بحيث تتحول المعرفة الى قدرة حقيقية للعمل ، وبأرادة قوية ، ومبادرة تلقائية ..

وكما ان وظيفة الفكر تزداد وتتسع كثيرا في الحرب وتتجاوزها الـى السياسة والاقتصاد والقانون والاخلاق .. اخ. مما يشكل رؤية الفـكر الداخلية ، اساس العلاقات لهذه الاشكال المختلفة من المجالات حتى ينظـر الى كل شيء في الحرب نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة .

واخيراً فان مكانة رجل الحرب ، لا تحدد بخصائص صفاته الفكريـة فحسب وانما تحددها له ، خصائصه الثلاث (الفكرية والمعنوية والنفسية). وينبغي علينا ان نعلم بان الشعور يشكل أهم الدوافع التي تحث المرء على العمل ، على حين يتلقى الانسان افضل الدعم من تلاحم الروح والفكر ..

الفصل الثالث

ـ الفكر والقيم المعنوية في الحرب

« الفصل الثالث »

الفكر ــ والقيم المعنوية
في
الحــرب

هناك عدد لا يحصى من المؤلفات ، تبحث عن القوى المعنوية في الحرب (المعنويات في الحرب) وجميعها تشير وتؤكد على أهمية العامل المعنوي في كسب الحرب ، وكما تستهدف تلك المؤلفات بناء القوى وترميمها في احوال التعرض للانهيار ، وبعضها تبحث عن الدوافع الكبيرة لها ، واخرى تدعم فضيلتها التربوية القومية والوطنية سواء عند الاعداد للحرب او خــلال ادراتهــا ...

ويكاد لا يوجد هناك قائد كبير ، او صاحب نظرية من نظريات الحرب لم يؤكد في يوم من الايام على أهمية القوى المعنوية في الحرب ..

[illegible]

وقديما قال نابليون حرفيا وبالنص « ان كــل شــيء في الحــرب معنوي »[1] ، هذا بالاضافة الى أقواله الكثيرة الاخرى بهذا الصدد .. وقد قصد فريدريك شارل ، امير بروسيا ، نفس الشيء عندما كان يؤكد على ذلك،

(١، ٢، ٣) راجع كتاب الذكاء والقيم المعنوية ــ جان بيريه ص ١٤٣ تعريب : اكرم ديري والهيثم الايوبــي .

« ليست الطرق المعنوية هي التي تقرر ، وانما روح المعنوية »[٢]٠٠ولا تصيبنا الدهشة أذا وجدنا بان المارشال (دوساكس) القائد الفرنسي المشهور ، قد فكر بنفس الشيء عندما قال : « القلب الانساني هو نقطة انطلاق كل شيء في الحرب »[٣] ٠٠ وكثيرون غيرهم ٠ ولكن ربما من المدهش حقا ، وبالتالي مع المقنع بصورة أقوى ـ كما يقول (جان بيريه) ان نكتشف تأكيد أهميتها من قبل ميكافيلي نفسه ، ذلك السكرتير الفلورنسي النحيل ، الذي يعتبر في نظر الكثيرين ، الداعية الى الكذب والاحتيال والغدر ، مع انه صاحب نظرية من اكبر النظريات العسكرية في زمنه اذ يقول « ان عامة الناس يخدعون انفسهم ، عندما يؤكدون ، ان المادة عصب الحرب ، فهل تغلب داريوس الفارسي على الاسكندر المقدوني ٠٠؟ او هل اخضع اليونانيون الرومان ٠٠؟٠ وهل قهر الدوق السويسريون ٠٠؟ كلا!! لقد برهن كل هؤلاء لنا ، على ان المادة ليست عصب الحرب ، وما عصب الحرب الا قيمة الجندي »[٤]٠

وقد قصد ميكافيلي بذلك ، بأن المهزومين جميعا كانوا يملكون كنوزا من الذهب ، ومع ذلك فقد هزموا ، لانهم كانوا يفتقرون الى القوى المعنوية٠

هذا وانني لا انوي أن اضيف الى ماتقدم تأكيدات اخرى لابراز أهمية القوى المعنوية على هذا النحو ٠٠٠ وانما احاول المساس بعلاقاتها بالقيم الفكرية من خلال عناصرها ، التي تتأثر ايجابا او سلبا بها والتي يطلق على تلك العناصر اسم (الفضائل الحربية) وتتألف من :

العبقرية الحربية ـ والشجاعة العسكرية ـ والاقدام ـ والحزم والصمود ـ وقوى الارادة والنفس والشعور والشخصية ـ والامزجة البشرية ـ روح الوحدة او القطعة او الجماعة ـ واخيرا القيادة ٠

هذه الفضائل الحربية سنأتي بذكرها ، بالتفصيل تباعا لبيان علاقاتها بالفكر ايجابا أو سلبا ، وأهميتها في الحرب في الفصول القادمة ٠٠٠

---

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٤ ٠

الفصل الرابع

الفكر والفضائل الحربية

« ان الفضائل الحربية التي يظهرها رجل من الرجال في المعركة، هي ثمرة الحياة ، فعلى الاسرة والمدرسة والمؤسسة بكاملها ، اذن تولده هذه الفضائل وتنميها ، فالمشكلة تتجاوز اذن ، اطارها العسكري الظاهر ، انها مشكلة السياسة القومية العليا ، التي يجب ان ينتبه اليها كل من يهتم ببناء المجتمع ، خاصة ، وان الفضائل الحربية ، تعبير عن فضيلة الرجولة والشهامة التي لا يجوز ان يتخلى شعب عنها ، حتى في ايام السلم » .

(جان بيريه)

« الفصل الرابع »

١ ـ الفضيلة الاولى :

الفـكر ـ والعبقريـة الحربيـة

وقد اشرنا فيما تقدم الى ان الفكر ، هو الاساس الخلاق لكل حدث، ومنها (الحرب) كحدث ، يستمد قوته من الفكر ... وان الفكر البشري فوق جميع القوى في العالم ، لانه مكتشف هذه القوى ، وفاتح رموزهـا واسرارها ... وان القوى العقلية للانسان ، هي محرك الحرب فمنها تنبثق الارادة والتصميم ، الى جانب اساليب القتـال وفنونـه وتنظيمـه وشكله وادارته .. كذلك تنبثق منها الفضائل الحربية جميعا تقريبا ومنها العبقرية الحربية ... فما هي العبقرية الحربية ؟ وما علاقة الفكر بهذه الصفة البشرية الـرائعـة ؟

فلو اردنا البحث بتعمق عن مفهوم العبقرية ، تعين علينا اللجوء الـى الكتب والمصادر المغمورة بالغبار ، وأهتدينا الى معان عديدة ، وتعـاريف مختلفة ومتحذلقة لهذا التعبـير .

وبما انني لست رجلا من رجال النحو والصرف والفلسفة ، عليه ينبغي الا احشر نفسي في مثل هذه الظلمات ، واقتنع بالمعنى الشائع للتعبير ، وبعض التعاريف المصاغة لها ... حيث يعتقد البعض ويعتبرها « هبوط شرارة ، في الوقت الملائم ، على رأس المختار ... أي انها موهبة الهية ...

وهناك من يعتبرها صفة فكرية خاصة ، تظهر لدى (علماء ، مبدعين ، قادة) مع قدرة غريبة هي « مزيج من الالهام ، والتخيل المبدع ، والحدس ». وهذه الصفات الثلاث عندما تقترن ، تنم عن العبقرية[1] .

ولكن قد لا يمنعني ذلك من محاولة ايجاد تعريف بسيط لهذه الصفة البشرية الخلاقة بالاستناد الى التعريف الذي صاغه (كلاوزيتز) لها واقول :

« انها القدرة الروحية والفكريــة الخلاقــة ، منبعثة من موهبــة خــاصـــة » ...

فهي بهذه الحالة صفة مركبة من « قوة النفس » و « الذكاء الواسـع والحاد » الموجه نحو نشاط من النشاطات البشرية ، التي منها النشـــاط الحــــربـي ...

بيد ان من النادر اقتران هاتين الصفتين في كل الاشـخاص لـذا فأن العبقرية العسكرية ، تظهر بشكل نادر عند الافــراد ، ولكن كـلما دعت الضرورة الى ترجيح النشاط الحربي لشعب من الشعوب ، كلما زاد ظهـور عبقريات حربية بين صفوفه ...

واننا نصادف في شعب بدائي مقاتل عددا من الرجـال المقاتلين يفـوق ماتصادفه في شعب متحضر ، لان جميع المقاتلين في الشعب ابدائي لديهـم ميل طبيعي للقتال .. على حين ان معظم افراد الشعب المتحضر يجندون للقتال عند الضرورة ، لا بدافع ميلهم الطبيعي ، ولكن العبقرية بمستوى القيـادة نادرا ماتظهر في شعب بدائي ، لانها تتطلب تطورا فكريا يستحيل الوصول اليه في شعب محروم من الثقافة[1]...

---

(١) راجع المؤلف ــ في الحرب ــ كلاوزفيتز ص ١١٧ . تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

يعترض الاستاذان اكرم ديري والهيثم الايوبي على فكرة (كارل فون كلاوزفيتز) هذه ، مع اقرارهما بتمتع فكرته بقسط كبير من الصحة ، ويشيران الى بعض الامثلة التأريخية التي تناقض هذه الفكرة بشكل سافر وهما يقولان :ـ

« أن ما قدمه الشعب العربي وهو في اول انطلاقته الثقافية وعلى بداية طريق تقدمه الذي ملأ العالم نورا فيما بعد ، قادة عسكريون ذوي موهبة ستراتيجية لا جدال فيها « كخالد بن الوليد » الذي كان بحق خريج مدرسة الصحراء القاسية ، لا خريج المدارس والكليات الحربية » .

ونحن نميل الى تأييد هذا الاعتراض بالنسبة للامثلة الاخرى[٢] ويمكن اعتبارها استثناءات عن القاعدة ، ولكن الشعب العربي لم يكن شعبا محروما من الثقافة كما يقولان وان كان في بداية انطلاقه جديدة لما كان لدى الشعب العربي من حصيلة متوارثة من المميزات الحضارية ، للحضارات القديمة قبل الاسلام ، وعليه ندون اعترافنا لرأيهما هذا .

ونعود الى الموضوع لنرى مع (كلاوزفيتز) ان افضل دليل على العبقرية الحربية التي يظهرها القائد على وجه الخصوص هو معرفته وبراعته ، بتنظيم حربه بتطابق صحيح بين وسائله واهدافه ، دون ان يبالغ فيها او يقصر في استخدامها ..

ولا تظهر آثار هذه العبقرية في اشكال العمل المذهلة التي يبتكرها بتجدد ، بل يظهر بالمحصلة النهائية الناجمة عن مجمل الاعمال في نهاية المطاف ...

---

(٢) للاطلاع على الامثلة الاخرى ـ راجع نفس المصدر حاشية الصفحةالمذكورة

وان ارتباط الفكر بالقوة الروحية ، ينتج عنه نوع من الحافز المتبادل يؤدي الى تنفيذ النشاط بمهارة فائقة ، وبقدرة عالية من الفهم والاحساس، فتقوم باستخدامات غريبة يمكن عندئـذ ، وصف الروح المنبثقـة منهـا بصفـة العبقريـة ..

وهنا سـؤال يطرح نفسه هو : هل بالامكان تنمية العبقرية العسكرية عند القادة ..؟.. ويجمل بنا ان نستمع الى (جان غيتون) وهو يجيب على هذا السؤال في ختام محاولته اقامة علاقة بين الفكر والحرب ويقول :ـ

« لا يستطيع الضباط كافة ان يكونوا كذلك (صناع الانجازات) أذ ليس لديهم جميعا العبقرية .. فالعبقرية العسكرية لحسن الحظ (برأيه) وقف على بعضهم فقط ، ولكن بالامكان تأهيلهم جميعا على طرائق التفكير الصحيحة ، وهذا مايفعلونه عند تعليمهم اسلوب التفكير » ويضيف « في معارك الحياة كما في معارك الحرب ، نجد ان الانسان بكل مايحمله من طبع وشخصية ، هو الذي سيستثير هذه الموارد ، ولن يستخلص منها ـ مهما كانت غنية ـ الا ما تتيحه له صفاته الشخصية ان يستخلص »[٣].

ونفهم من كل ذلك بوضوح ، ومن التعريف الذي قدمناه في بداية كلامنا عن العبقرية الحربية ، على انها صفة شخصية ومركبة من قوة النفس والذكاء الحاد .. ولكنها ليست صفة مجردة بهذا الشكل ، بل بحاجة الى كمية من المعارف والخبرات ، مع تنمية الفضائل الحربية الاخرى .. ومن هنا نلاحظ كلما دعت الضرورة الى ترجيح النشاط الحربي لشعب من الشعوب، كلما زاد ظهور عبقريات حربية بين صفوفه على ان يقترن ذلك الترجيح بالمستوى الثقافي والعلمي والتقني المواكب للعصر ، وينبغي عدم تناسي توفر الامكانات والظروف المادية والروحية المواتية ...

---

(٣) الفكر والحرب ـ جان غيتون ، ص ٥ ، تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي .



الفصل الخامس

٢ ـ الفضيلة الثانية

▪ الفكر والشجاعة العسكرية

● ليست الشجاعة العسكرية ، كما يظن البعض ، تابعة لغريزة قتالية بدائية ، بل على العكس من ذلك ، تكتسب اجتماعيا ، فهي تقدم فكري ، بقدر ماهي تقدم أخلاقي ، أنها فضيلة اجتماعية في روحها ، لانها القدرة على التضحية بالذات من أجل الجماعة •

(الجنرال جان بيريه)

١ ــ الأصل الفردي والاجتماعي للشجاعة العسكرية :

من المعروف ان الحيوان ليس شجاعا ، فهو يطيع غريزة البقاء الفردية، ورد فعله الاول هو الفرار من الخطر ، انه يخاف قبل كل شيء ٠٠ وهذا صحيح بالنسبة لاقوى الحيوانات وأضعفها ، فلدى اول حركة مشبوهة يهرب الاسد والنمر ، كما يهرب الارنب والفأر ٠٠ واذا لم يهربوا ، فذلك لانهم بوغتوا وفوجئوا ، ووجدوا انفسهم مضطرين لمجابهة الخطر ، وان المعركة تفرض نفسها باسم غريزة المحافظة على البقاء نفسها ، لان الفرار مستحيل او لان الجوع يزمجر في احشائهم ، او تحت دفع الغريزة الجنسية او غريزة الامومة ، هذه الغرائز التي ليست الا امتدادات لغريزة المحافظة على البقاء ٠

ان الرجل البدائي ، كالحيوان تقوده غريزة المحافظة على البقاء ، هذه الغريزة التي تولد الخوف بصورة طبيعية ، وهو بحاجة الى طعام ، ويلتزم بالمجابهة عندما لا يتمكن من الفرار ، وتدفعه الغريزة الجنسية ، وغريزة الامومة ، ان كل هذه الغرائز هي الغرائز الوحيدة للصراع ، فهو لا يعرف الا الشجاعة الضرورية[1]٠

الا ان الرجل المتحضر اجتماعي ، فهو لا يستطيع ان يعيش وان يحسن بصورة خاصة ، شروط حياته ، الا بالاندماج في جماعة من الجماعات ، اذن فمن الضروري ، ان يضحي الفرد بنفسه من اجل الجماعة ، عندما يتعرض وجودها للخطر ، وتحل عندئذ محل غريزة البقاء الفردية ، غريزة حفظ البقاء

---

(١) كتاب الذكاء والقيم المعنوية ــ جان بيريه ــ ص ١٥٩ ــ منشورات دار الطليعة ــ بيروت ٠

الجماعية الى حد ما ، ولو جزئيا ، ويتقوى هذا النقل كلما بدأ المجتمع في التحسن والرقي .

ويخضع هذا النقل الغريزي في بادىء الامر الى ضرورات مادية صرفة والزام خارجي ، والى العادة والتقليد ، ولكن يملك الرجل مهما كان بدائيا روحا مرهفة ، ان حاجته للحياة في المجتمع ، تتصدر الشروط المادية .. انه تواق للود والثناء والمدح ، ولا يستطيع الحصول عليه الا بالتضحية، ويظهر عنده الاخلاص للقائد وللرفاق ، وانضباط بارادة حرة ، والوفاء للجماعة الاجتماعية ، (القبيلة والامة) والالتزام بالمنطلقات المشتركة من المثل والقيم والمفاهيم المعنوية او الدينية او القومية والوطنية ..

وعندما تعي مجموعة من الرجال التشابه فيما بينها ، او تعي مصيرها المشترك فانها تحاول التمسك بتقديرها واحترامها المتبادل وتعمل من اجل مجد الشخصية المعنوية التي تمثل تلك الجماعة .

وتقوم بين هذه المجموعة من الرجال قواعد عامة والقيم والمثل ، لا يستطيع أن يبتعد عنها ، او مخالفتها ، دون التعرض لاحتقار وازدراء الاخرين .. وهكذا يولد الاحساس بالشرف ، كما يتحقق في هذه الكتلة البشرية تطور مواز مع التقدم الاجتماعي ، اذ يبدأ المخ النفسي يلعب دوره الموازن بفاعلية اكبر ، ويتدخل (التفكير) بمنابعه القوية[٢] عندئذ نجد غريزة المحافظة الجماعية قد نمت وامتدت جذورها القوية ، فتظهر في نفس الوقت الذي يظهر فيه الاحساس بالشرف ...

فالاحساس بالشرف هو الشجاعة العسكرية الحقيقية برأي (جان بيريه) فالشجاعة العسكرية ، ليست كما يظن البعض تابعة لغريزة قتالية

---

(٢) المخافر الامامية للخيالة الخفيفة ــ الجنرال دوبراك ــ حاشية في كتاب الذكاء والقيم المعنوية ، ص ١٦١ .

بدائية ورثناها من قرون طويلة ، بل ان الشجاعة العسكرية على العكس من ذلك تكتسب اجتماعيا ، وهي تقدم فكري بقدر ماهي تقدم اخلاقي ، انهـا فضيلة اجتماعية في روحها ، لانها القدرة على التضحية بالذات من اجـــل الجمـــاعـــة ..

انها قدرة تكمن في آلية مكتسبة بواسطة تتلاءم مـع واجـب محـدد وواضح ، طويل الامد ، وقد تعلمها الوجدان في بادىء الامر ، بواســطة ضغوط مادية ، وعقوبات معتدلة ، وباقناع على المستوى العقلي او العاطفي ، قبل ان تنزل وتندمج في اللاشعور لتولد فيه الاحساس بالشرف»[٣].

٢ ـ أســس الشــجاعة العسكرية :

يضاف الى العوامل الفرديـة في شل الخـوف والتشبث بالشـــجاعة العسكرية وتنميتها وتعميمها ، عامل الضغط الاجتماعي الذي يمارس دوره في كل الميادين المادية والمعنوية والفكرية ..

وهناك في بـادىء الامـر :

أ ـ الانضباط الحازم : مما يتبعه من الجزاءات الايجابية والسلبية (مكافآت مادية او معنوية ، او عقوبات مناسبة رادعة) .

ب ـ ثم يأتي في الترتيب العاطفي ـ الاخلاص للواجب وتقديسه ، للقـادة والرفاق بمنطلق الثقـة المتبادلة .

جـ ـ الوطنية الغريزية والوطنية الواعية ، اساسها الاخلاص لمثل اعلى فلسفي او عقائدي او معنوي ، وهذا ينبع من الترتيب الفكري .

د ـ الايمان الديني ـ ومن الملاحظ ان الروح الدينية تتجدد والايمان يقوى في مطلـع كـل حـرب .

---

(٣) المصـــدر الســـابق ، ص ١٦٢ .

غير ان مختلف هذه العوامل ذات فعالية غير متساوية ، فمن النادر ان يوافق رجل على المخاطرة بحياته دون ان يكون لديه سبب من الاسباب ، ولكن بعضها لا يمكن ان يكون الا دواءً مقويا ، في حين ان الرجال الذين يكون سبب التضحية لديهم سببا فكريا ، فانهم نادرون ، ولكنهم يصنفون في مرتبة عليا من سلم القيم الانسانية ، انهم ينتمون الى صفوة من القادة او انهم جديرون بمثل هذه المكانة •

فالحقيقة ان المبدأ الحاسم ، الذي يحرك ، في الواقع ، معظم المقاتلين في المعركة هو الشرف ، وان الشرف هو الذي يجعل من المقاتلين حماة للقيم المعنوية والمادية والفكرية المتنوعة كثيرا ، تبعا للظروف ، فهم بذلك حماة الوطن ، وعليه كما يقول الرئيس القائد : لا شرف للرجال اذا ضاع الوطن••

حقا لمن الصعب جداً ، كما يقول (جان بيريه) ان تقتصر في سطور بسيطة على شرح التعقيد اللامتناهي لردود فعل البشرية في الحرب •• وهو يحدد بشيء من التحفظ العوامل او الاسس الفاعلة المباشرة في تحويل الخوف ونقله الى الشجاعة العسكرية في عوامل الثلاثة الاتية :ـ

أ ـ الحماسة

ب ـ التعود على الخطر

جـ ـ الشرف

ولا يلعب الانضباط الحازم والعوامل المادية الا دورا ثانويا ، أما بالنسبة للعوامل المحركة (العاطفية والفكرية) ، مهما كانت أهميتها كبيرة ، فهي لا تعمل الا بصورة غير مباشرة ••• وليست فعالة الا ضمن المدى الذي تثير فيه الحماس والاحساس بالشرف برأي (جان بيريه) وفيه كثير من الصواب ، ولكن فبينما العوامل العاطفية يقتصر دورها كما يقول في اثارة

الاحساس الحماسي والشرف في حين ان دور العوامل الفكرية يتجاوزها الى تحليل الواقع المادي والعاطفي بآن معـا ..

واخيراً فأن الشعور الاصلي الذي يحس به البدائي ، هو ، الخوف ، أما الشجاعة ، فهي مكسب وتقدم انساني ، وفضيلة اجتماعية ... عنـدما ننكر الشجاعة ، لا يمكن ان نفهم ابدا عملية القوى المعنوية في الحـرب ، ومن ثم اننا نفقد بذلك ، احد المفاتيح التي تسمح لنا اكتشاف ، سر عظمـة الامـم وانحطاطها .

ولم يبق لنا ان نضيف الى تلك الصورة الرائعة لاســس الشـجاعة وأصلها الفردي والاجتماعي ، الا الدعوة الى التفكير والتأمل ، ثم الممارسة والعمل ، ونلقي نظرة على انواع الشجاعة العسكرية وآثـارها ...

٣ ـ انـواع الشـجاعة العسكريـة :

ان الانسان عبارة عن الجسد والفكر . ولا ينفك الاثنـان عن التأثير المتبادل الواحد في الاخر •• وليس ذلك لان هناك علاقة مباشرة بين القوى البدنية للفرد وشجاعته فهناك رجالا يتمتعون بأجسام رياضية رائعة ، بينما هم في منتهى الجبن •••

فالمقاتل يجد نفسه في مواجهـــة الخـــطر والتعب والآلام ، مدفوعا بنوعـين من الـدوافـــع :ـ

أ ـ الايجابية ـ كالحماس بمختلف انواعها ، والطموح والشرف والتعود على الخطر وتحمل التعب والآلام •

ب ـ السـلبية ـ وتصعد من اعماق أحشائه ، منبثقة من غريزة المحافظة على البقاء ، واحيانا اللامبالاة الناجمة عن التكوين الفردي•

على ذلك فأن الشجاعة نوعان(٤) :

الاول ـ الشـجاعة الشخصية •

الثاني ـ الشجاعة أمام المسؤولية المفروضة من قـوة خارجيـة او من قـوة داخلية (الاحساس بالواجب) •

ولن نتكلم هنا الا عن النوع الاول •

الشجاعة الشخصية :ـ وبدورها نوعان :

النوع الاول ـ ويعود الى اللامبالاة الناجمة عن التكوين الشخصي او عن أزدراء الموت ، او العادة ، فهي بهذه الصورة ، حالة دائمة•

---

(٤) راجع في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ـ الـكتاب الاول ص ١١٨ ـ تعريب أكرم ديري والهيثم الايوبي •

النوع الثاني _ قد ينجم عن اسباب ايجابية ، كالطموح ، والوطنية ،والحماسة بمختلف انواعها _ ولا يمكن اعتبار هذا النوع من الشجاعة حالة دائمة ، فهو اذن شعور وانفعال .

ومن البديهي ان لكل نوع من النوعين تأثيرا مختلفا عن الاخر :_

فالنوع الاول _ اكثر ضمانا ، لانه جزء من طبيعة الشخص ولا يمكن ان يتخلى عنه .

أما النوع الثاني _ فليس حالة دائمة ، بل يتذبذب مع قوة او ضعف الانفعال والحماس والشعور .. وغالبا ما يقود المقاتل الى مدى أبعد مما ينبغي .

فيعود الحزم الى النوع الاول ، على حين يرجع الاقدام الى النوع الثاني ... ويستثير الاول الذكاء بشكل محدود ، بينما يزيد الثاني أحيانا قدرة الفكر ، ولكن غالبا ما يضلل هذه القدرة . ويؤدي توافق هذين النوعين وتكاملهما الى افضل انواع الشجاعة .

وبما ان الشجاعة جزء ضروري من الاجزاء التي تتألف منها الفضيلة الحربية ، فقد تتأتى بالرغم من كونها استعدادا طبيعيا للفرد من التدريب ، والتعود على المخاطر بالنسبة للعسكريين ، وينبغي ان تخضع الى مطاليب القيادة العسكرية ، ومتطلبات الطاعة والنظام والقواعد والمناهج .

وتمنح الحماسة في سبيل القضية التي نحارب من اجلها اعلى درجة من الشجاعة والبطولة ..

وينبغي علينا ان نأخذ العنصر البشري بنظر الاعتبار ، وان نخلي مكانا للشجاعة والبطولة والجرأة والاقدام في خططنا الحربية ، لان الشجاعة النادرة تكون كفيلة ، بتعديل الخطأ المرتكب في بعض المناسبات ، ولكن يجب ان لا ننسى ان نقص الذكاء يظهر دائما في النتيجة العامة ..

الشـجاعـة والفـكر :

يحتاج المرء في الحرب الى صفتين هامنين ضروريتـين ، ليتمكن من اجتياز الصراع الدائم مع الامور غير المتوقعـة ـ وماكثرها في الحرب ـ دون التعرض لاضرار كبيرة :

الصفة الاولى ـ (الفكر) ـ لانه يقود الانسان وسـط الظـلام المتزايد ، ويحافظ على كل ذرة من ذرات الوضوح الداخلي اللازم للوصول الى الحقيقـة •

الصفة الثانية ـ (الشجاعة) : فهي ضرورية لمتابعـة هـذا القبس الضعيف فبينما تسمى الاولى « الفهم بنظرة خاطفة » في حين تدعى الثانيـة « الصـميم » •

الشـجاعـة الفـكريـة :

هنالك تلاحم بين التصميم والشجاعة المطبقة على حالة خاصة ، فأذا غدت صفة من الصفات الشخصية ، اصبحت عادة فكرية ولا يقصد بالشجاعة هنا ، الشجاعة أما الخطر ، بل امام المسـؤوليـة والخطر المعنوي ، وهذا ما يسمى (بالشجاعة الفكرية) •• لانها منبثقة من الفكر ، ولكنها لا تشكل عملا من اعمال الفكر ، بل من اعمال المزاج •

وعلى هذا يؤكد الجنرال جان بيريه في كتابه (الذكاء والقيم المعنوية) على افضلية التفكير ، على كل الصفات المسيطرة في ميادين القتال •

ان الذكاء المجرد لا يخلق الشجاعة ، لان اذكى الناس يفتقرون عادة صـفة التصـميم •

ان على الذكاء قبل كل شيء ان يوقظ الشعور ويدعمه ويحافظ عليه• أذ يطيع الرجل في اللحظات الحرجة أحاسيسه اكثر من ان يطيع أفكاره•••

ويبرهن بعض الاشخاص امام المعضلات الصعبة جدا عن تفكير حاذق ، ولا تنقصهم الشجاعة اللازمة لمواجهة مستويات كبيرة من الاوضاع ، على حين يقف هؤلاء الاشخاص امام الاوضاع متوسطة الصعوبة ، عاجزين عن اتخاذ أي قرار يتسم بالتصميم .. ذلك لان ذكاءهم وشجاعتهم أمران منفصلان لا يتفقان مع بعضهما .. وهذا مايمنع التصميم ، فالتصميم لا ينبثق الا من عمل الذكاء الذي يجعل الاقدام ضرورة واعية ويحدد الارادة، وانه ناجم عن توجيه الذكاء الذي يقهر خوف الانسان ، ويتغلب على تردده، ونقاط ضعفه ، وهذا مايضع التصميم في موضع القوة ، لذا فان رجالا متوسطي الذكاء ، لا يمكن ان يصمموا بكل معنى الكلمة ، وقد يتصرفون في الاوضاع الصعبة دون تردد ، ولكنهم يفعلون ذلك بلا تفكير ، ولا يخضع الرجل الذي يعمل بدون تفكير لمضايقات الشك واحكام الصدفة ، وانه قد يتصرف بصواب ما بين آونة واخرى .



الفصل السادس

- الفكر والاقدام -
في
الحرب

● فقد يسود الاقدام في جيش من الجيوش ، اما لانه صفة من صفات الشعب ، او انـه ثمرة حرب ظافرة ، يقودهـا قـائـد فـذ مقـــدام .



« الفصل السادس »

٣ ـ الفضيلة الثالثة
الفكر ـ والاقدام
في
الحرب

الأقـدام وعلاقتـه بالفـكر :

١ ـ وكما ان الشجاعة العسكرية أسمى الفضائل الحربية وأهمها ، فأن الاقدام بدوره ، يعتبر أهم وافضل فضيلة في الحرب ، وهو يظهر في **جيش يجند من شعب ترعرع فيه الاقدام ونما على مر العصور •**

ولا يمكن لهذه الفضيلة ان تظهر في جيش شعبه محروم من هذه الفضيلة •

وليس من حق أي انسان أن يقلل من أهمية القيمة الروحية والفكرية للاقدام في الحرب (كما يقول كلاوزفيتز) •• ولو انه يقف وجها لوجه أمام التعقل والحيطة والحذر •• لانه يعتبر القوة الدافعة النبيلة ، وكمبدأ خاص وفعال ،• ولان النفس البشرية تقتحم بفضلها أسوأ المخاطر واكبرها في الحرب •• على ذلك فان الاقدام أفضل فضيلة ، يمكن ان يتسم بها كل فرد مقاتل من الجندي البسيط حتى القائد العام •• فهي القوة الدافعة التي تتيح للسلاح حدته وبريقه[١]•

---

(١) في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ـ الكتاب الثاني ص ٢٣٨ • تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي •

وينبغي أن نعلم : ان للاقدام في الحرب مزايا خاصة ، فضلا عن نتائج الحساب المتعلق بالزمان والمكان ، حيث هناك نسبة مئوية اضافية للاقـــدام تضاف الى مكاسبه الخاصة ، نستخلص من الضعف الذي يصيب الخصم • ويؤدي الى جبنه ، وخفض معنوياته ، بتأثير الاقدام نفسه ، فكلما صـــادف الاقدام الجبن كلما زادت فرصة نجاحه وانتصاره ، وتكون عندئذ قـــوة دافعة تزيد من مستوى الشجاعة ، وتعممها بين الرفاق ، فيظهر التأثير المتبادل بين الشجاعة الحماسية والاقدام بوضوح تـام •

والاقدام لا يتراجع الا عندما يصطدم بالتعقل او الحذر الواعي ، الذي يميل (كلاوزفيتز) الى اعتباره نوعا من الاقدام ، لان التعقل في حد ذاته مواز في قوته وحدته للاقـــدام ••• اذن لا يجوز ازدراء الاقدام الطائش، لان في اعماقه قوة روحية نبيلة وجازمة ••• ولو انها تمارس عملها بشكـل عاطفي في غياب حكـم العقـل ••

ولكن ومع ذلك يجب ان نعامل الاقدام ، على انه شر خطير ، عندمـا يرفض الخضوع لمنطق العقل ، او عندما يرفض الخضوع لسلطة اعـلى منه ، علينا عندئذ ، ايقافه عند حده ، لا بسبب كونه خطيئة كبرى ، بـل لانه يرتكب خطأ عدم الطاعة فلا شيء في الحرب أهم من الطاعة[١] •

وكلما ارتفعت الرتبة ، كلما أضحى من الضروري ان يكون الاقدام مزودا بالتفكير ، حتى لا يفقد جدواه او يصبح غريزة عمياء ، او يكون تابعا لغريزة قتالية بدائية ، شأنه في ذلك شأن الشجاعة الحربيـــة (برأي بعض الناس) •• بيد ان تدخل الفكر الواضح ، او بالاحرى سيادة العقل، تسلب من كل القوى الانفعالية جزءاً كبيرا من عنفها •• ولكن كلما ارتفع الهـــرم التسلسلي للرتب ارتفعت مكانة الفكر والذكاء والفهم العميق للعمل • • واعيد الاقدام الذي ينبثق من ميزات الطبع الى المقام الثاني ، لكي يحتـل الاقدام النابع من الفكر المقام الاول •••

فالبسالة التي يوجهها ذكاء متحكم هي ، علامة البطولة والاقـدام ، على ان لا تشتمل مثل هذه البسالة على اعمال جريئة مضادة لطبيعة الاشياء، او مخالفة لقانون الاحتمالات وانما كلما أعطت البسالة اجنحة للفكر والفهم بنظرة واحدة ، كلما حلقت عالية ، وأتسعت رؤيتها وبلغت هدفها ..

ومن البديهي ، انه من المحال تخيل آمر او قائد بارز في الحـرب ، لا يتميز بالاقدام ، كما ان شخصا غير موهوب بهذه الصفة ، منذ الولادة ، لا يمكن ان يشار اليه بالبنان في مهنة الحرب .. لان هـذه الصـفة تعتبر شرطا هاما من شروط امتهان الحرب .

الأقـــدام والشـــجاعـة :

٢ ـ ان الشجاعة والاقدام في الحرب صنوان لا يفترقان ، والتفـريق بينهما ، أذا ريد لهما ذلك ، لا ينصب على الطبيعة ، بل على الدرجةفحسب، ويظهر ذلك في مجال ممارسات كل منهما ... ومن الواضـح ان مجـال ممارسة الشجاعة في الحرب اوسع من مجال ممارسة الاقدام .. (والمقصود هنا الشجاعة الشخصية وليس أمام المسؤولية) . فبينما يقتصر الاقدام على العمليات الايجابية من صفحات القتال (كالهجـــوم ، والهجوم المقابـل ، والاغارات وبعض المهمات الخاصة) .. في حين ان مجال الشجاعة يشـــمل بالاضافة الىالعمليات الحربية الايجابية، عمليات اخرىتنطوي علىشيء من السلبية (كالدفاع المستكن والانسحاب ، والكمائن .. وغيرها) .

وكما أسلفنا فيما سبق ، ان الشجاعة العسكرية ، ليســت كما يظن البعض ، تابعة لغريزة قتالية بدائية ، ورثناها منذ قرون طويلة ، بـل علـى العكس من ذلك ، تكتسب اجتماعيا ، وهي كما قنا تقدم فكري بقـدر ماهي تقدم أخلاقي ، وانها فضيلة اجتماعية في روحها ، لانها القدرة على التضحية بالذات من آجل الجماعة ، كذلك الاقدام ، فهو افضـل فضيلـة من بـين الفضائل الحربية الاخرى ، انه القدرة على أقتحام أسوأ المخاطر واشدها ، ويرتبط بالتقدم الفكري فضلا عن التقدم الاخلاقي .

الأقــدام والتخــاذل :

٣ ـ ينبثق الاقدام من الادمغة المبادرة ، على حين ان التخاذل يرجع الى الادمغة المترددة ، ومن البديهي ، ان المتردد بطيء في اتخاذ القرار ممـا يتيح لخصمه فرصة سبقه وضربه ، أما المبادر المقدام ، فانه يقرر بصـورة أسرع ويفرض بالتالي مبادرته على الخصم ، فالمبادر المقدام هو الذي يطرح المسألة ويمسك الورقة الرابحة بيده ، التي ستؤمن له مكاسـب مادية ، ومعنوية وفكرية اضافية ، أذا كان قد زان الامور بصورة صحيحة •

وبما ان الامور ، يزنها رجل واحد ، هو القائد ، وعليه فان (لـذهنـه المتردد) او (المدفوع الى المبادرة) كما قلنا سابقا ، نصيبا كبيرا في التقـويم الذي يكونه عن كل عنصر من عناصر النجاح او الفشل •

فالذهن المتخاذل والمتردد ، يميل عادة الى تضخيم الصـعوبات في حين يميل الذهن المبادر للرجل المقدام الى تصغيرها ، ويتجه تفكير المتردد بشكل خاص نحو مايجب ان يخشاه لدى عدوه ، بينما يفكر المبادر المقدام قبـل كل شيء في عمله هو ، دون ان يهمل ما سيقوم به الخصم ••

الأقــدام والتصـميم :

٤ ـ ان التصميم الذي يتغلب على حالة الشك ، واحكام الصدفـة ، ثمرة من ثمار الفكر النير الفذ •• بهذه الصورة ، لا ينبثق التصميم الا عن عمل الذكاء الواسع الذي يجعل من الاقدام ضرورة واعية ، ويحدد الارادة الصلبة •• انه ناجم عن توجيه الفهم العميق الذي يقهر خوف الانسان ، ويقضي على تردده ، ونقاط ضعفه ، وحالة الشك والقلق من احكام الصدفة•• اذا فان رجالا متوسطي الذكاء ، او ذوي الافكار المشوشـة لا يمـكن ان يتصفوا بالعزيمة الصادقة بكل معنى الكلمة ، وبالتالي لا يتوقع منهم الاقدام والتصميم في العمل •• لانهم يميلون عادة الى الحذر ، كلما لاحظوا الخطر

الذي يضخمه لهم ترددهم ، ذلك التردد الذي يشلهم شـلا اكبر ، لانهـم اعتادوا على العمل المتسم بالحيطة المبالغ بها ، بحيث تتحول الى ما يشـــابه الخوف المفضـــي الى الجبن •

وقد برهنت التجارب ، بمالا يقبل الشك ، بان مايســـببه الخـوف وبالتردد من الخسائر ، يربو عدة اضعاف على مايحدثها الاقدام ، حتى وان كان يعتبر طائشا من بعض النواحي ••• واني لواثق من موافقة القـارىء المجرب ، المشارك في حروبنا السابقة ، وفي قادسية صـــدام المجيـدة على هـذه الحقيقــــة •

وهناك فرق قائم بين الاقدام والتصميم ، من حيث طبيعة الاشـــياء وينبغي للمتميز بينهما ، النظر لاهدافهما •••

أذ نحن نعجب اشد الاعجاب من عمل شخص قام به ، بمنتهى الجرأة والجسارة ، ويمكن وصفه بانه عمل مقدام ، ولكن أذا ماتعمقنا في البحـث عن هدف عمله هذا ، فعندئذ يمكننا الحكم ، فيما أذا كان عمله « مقداما » أم انه مجرد تصميم ، تحت ضغط الضرورة ••

مثـال ذلـــك :

عندما يقفز ، فتى ، ترعة عريضة او سياج عال ، كي يظهر لنا براعتـه كفارس بطل ، فهو يبرهن على البسالة والاقدام •• أما عندما يقوم بالعمل ذاته ، تخلصا من أفراد عصابة تطارده لقطع رأسه ، فهو يكون مصمما فقط تحت ضغط الضرورة ، وقد قبل الخطر الاصغر ، ليدرىء عن نفســــــه الخـطر الاكبـر ••

ومع ذلك ليس من حقنا ان نقلل من أهمية تصميمه الذي لا يخلو من قيمة ووزن • وفي الحرب مجالات خاصة مطلوبة لكل من الاقدام والتصميم وبحسب الحـالات •••

وبقي علينا ان نضع تقديرنا الاخير لصفة الاقدام بوجه عام :

- فقد يسود الاقدام في جيش من الجيوش ، اما لانه صفة من صـفات الشعب ، او انه ثمرة حرب ظافرة يقودها قائد فذ مقدام .
- وينبغي ان نعلم بأنه : لا يمكن لشعب من الشعوب ان يأمل ذات يوم بأحتلال موقع مرموق بين شعوب العـــالم ، الا أذا كان لخصائصه القومية ولاعتياده الحرب تأثير متبادل ومتواصل ..

الفصل السابع

- الفكر والحزم والصمود - في الحرب

● ان التمسك بالقناعات المسبقة ، والاخلاص لها ، في الحالات التي يكتنفها الغموض ، يكفيان لاعطاء تفكيرنا ثباتا واستمراراً يرفعان من قدرتنا على الصمود •

« الفصل السابع »
٤ ــ الفضيلة الرابعة
الفكر ــ والحزم والصمود
في
الحرب

١ ــ وان كان هنالك تشابه كثير ، وصلة وثيقة بين كلمتي « الحزم » و « الصمود » ، ورغم استخدام كلمة الحزم غالبا مكان الصمود ، ولكنهما في الحقيقة من طبيعة مختلفة •

فكلمة الحزم : تعني المقاومة الصلدة ، ضد صدمة منعزلة ووقتيـة ، ولانه يرد على انفعال واحـــد وعنيف ، وقد يـــكون ناجمـا عن مجـرد قـــوة الشـعور •

في حين ان كلمة (الصمود) تحمل في طياتها معنى المدة والاستمرار ويتطلب الصمود بلاشك دعما من الذكاء والفكر ، ومما لا ريب فيه ايضا ، أنه كلما طالت مدة العمل كلما اصبح الفكر بحاجة الى التلاءم مع مخطط معين ، يتضمن دعما للصبر واستمراراً للصمود طويل الامد ••

وغني عن القول •• انه ليس هناك انتصارات مجيـدة تحققت بدون جهود مضنية ، وعناء كبير ، وحرمان ، وآلام •

ان الانسان ميال بطبعه للاذعان، فيحالاتالأحساس بالضغط والانهاك والآلام••• غير أن هنالك طاقة تظهر بثبات يدهش العالم والاجيال الصاعدة، وهذا الثبات هو الصمود في الحرب الذي يقودنا الى الانتصار •

ان المقاتل في الحرب بحاجة الى القوة معنوية وقوة مادية كبيرتين ، لكي يحافظ على استمراره في القتال في جو مضطرب وقاس .. وهذه القـــوة المعنوية تعرف عند الكتاب العسكريين ، بالحزم والصمود ، نابعين من قــوة النفس – وقوة الشعور – وقوة الارادة – وقوة الشـــخصية ... تختلف استخدام هذه التسميات حسب تبدل الظروف المتعددة ، ومتطلبات الموقف، ويمكننا ان نعتبر جميع هذه الظواهر في الحقيقة من طبيعة واحدة ، تنم عن البطولة ، والاستبسال ، اساسهما قوة الارادة معدلة حسب الظروف ..

تنحدر هذه الصفات البشرية من اصل واحد ، الا انها لا تكون صفة واحـــــدة ...

ومن المفيد ان نلقي ومضة خافتة من الضوء على هذه الصفات البشرية وعلاقتها بالفكر وأهميتها في الحـــرب ..

الصمود – وقــوة النفس أو قوة الشعور :

ويعني هذا المفهوم ، ميزة الاستماع الى صوت العقل وسط أقـــوى الانفعالات ، وفي عاصفة أشد الاهواء .. ولا يدل ذلك على عنف التعبـير عن المشاعر أو الاهـــواء ...

فهل تتعلق هذه الميزة ، بقوة الذكاء او رجحان الفكر ..؟. هذا الامر مشكوك فيه (كما يقول كلاوزفيتز) .. حيث يوجد اشخاص عاجزون عن السيطرة على النفس ، رغم تمتعهم بذكاء خارق او فكر لامع ، لان السيطرة على النفس ، قد تتطلب ذكاءً خاصا يتصف بالقوة اكثر من الاتساع، وتلك الميزة التي يسمونها السيطرة على النفس ، كامنة في المزاج نفسه ، والحقيقة أن هناك شعوراً آخر يؤمن رجحان العقل ، وهو الشعور بالكرامة البشرية، انه الكبرياء النبيلة ، لذا فيمكننا القول ، بأن النفس القوية ، هي النفس التي لا تفقد توازنها حتى في اعنف حالات الاضطراب .

وهناك أيضا ملهمان ، يشكلان أفضل وانبل فضائل الطبيعة البشرية وهما : الطموح للشرف والمجد • وكما يشكلان في الحرب الفكر الصحيح الدافع الذي يعطي الروح لهذا الجسد الضخم ، على حد تعبير (كلاوزفيتز) فهو يعلو ويسمو على بعض الاحاسيس الاخرى القادرة على اعطاء قوة دافعه للفرد كالاخلاص الحماسي ، والثأر والانتقام ، غير انه لا يمكن ان تحل محل الطموح للشرف والمجد ، الذي يوقظ لدى القادة الرغبة في العمل ، يفوق ما لدى زملائهم ، والصمود يفوق صمود عدوهم •

الصمود وقوة الارادة :

٣ ــ ان مقاومة العدو وصموده يؤثران على القائد والمقاتلين ، ولكن بطريقتين مختلفتين (تماما كما تؤثر مقاومتنا وصمودنا على قائد ومقاتلي العدو) فالمقاومة الطويلة ، تمس مسؤولية القادة من الخسارة في الامكانات، أذ تقع قوة ارادته موضع الاختبار وسط جو محاط بالقلق والشك •• وهذا أول عبء من اعباء القائد ، فهو اول معضلة يحلها بنفسه مع نفسه دون ان يحس بها احد •• بينما التأثيرات الاخرى الناجمة عن صمود ومقاومة العدو تنعكس على المقاتلين الخاضعين لاوامره ، وتؤثر فيه من خلالهم ••

فاذا كانت شجاعة رجاله متأججة وقواهم المعنوية عالية فان بلوغ الهدف لا يتطلب من القائد قوة ارادة كبيرة •• ولكن ما ان تنبعث صعوبات ــ وهذا الامر كبير الاحتمال ، عندما يتجاوز العمل حدود السير العادي ــ حتى تتعثر الامور ، فلا تسير بصورة آلية . فتظهر امام القائد صعوبات اضافية ، للتغلب على المقاومات ، عندئذ يتطلب منه ذلك اظهار قوة ارادة كبيرة •• فعلى القائد ان يتغلب على تأثير هذه الصعوبات في نفسه اولا ، ليسيطر عليها بعد ذلك عند الاخرين ، الذين ينقلون له احاسيسهم ومشاعرهم ومتاعبهم ، وآمالهم بصورة مباشرة او غير مباشرة •

وينبغي أن لا نتجاهل تناقص قوى الافراد وتلاشيها الواحدة بعد الاخرى •• وتهالك ارادتهم وتحولها لكي تقع على ارادة القائد وحدها •• وعلى هذا القائد استخدام الحماسة المتأججة لاذكاء الحماسة والتصميم ، واشاعة نور الامل عند المرؤوسين •• ولا يتمكن من ذلك ويحافظ على رقابة هذه الكتلة البشرية ، والبقاء سيداً لها ، الا أذا كان على مستوى هذه المهمة ، فاذا أضحت شجاعته غير كافية لاثارة شجاعة المرؤوسين وحماستهم، سقط مستوى شجاعتهم الهابطة ، وضاع وسط هذه المجالات الدنيا للطبيعة البشرية التي تتراجع امام الخطر ، لانها تجهل معنى الخجل[1].

ولا يمكن حساب قوة الارادة ، ولكن يمكن حساب قوة السبب الذي اوحى بهذه الارادة ، فاذا افترضنا ان تقديرنا لقوة العدو كان صحيحا الى حد ما ، فعلينا عندئذ ان نكييف جهودنا حسب ذلك ، وان نعزز هذه الجهود بالقدر الذي يحقق لنا الصمود لفترة اطول ، او ان نعمل قدر المستطاع أذا لم نكن نملك من الوسائل مايعزز هذه الجهود ••

ويلجأ الخصم الى الاسلوب ذاته ، فيقوم عندئذ نوع من المبارزة ، وهنا يظهر العمل المتبادل بصورة فعل ورد فعل •• وينبغي في هذه الحالة تدقيق امكانات الطرفين بطريقة تراكمية ، مع عدم اغفال قانون الاحتمالات ، •• فاذا وجدنا ان عامل الوقت قد بات ينصب من نفسه حكما ، يعود اليه قول الفصل ، عندئذ نكون أمام مايسمى بـ (حرب الاستنزاف) فيكون النصر الى جانب الذي يتمتع بقوة الصمود لفترة اطول بدعم من (الموارد المادية والمعنوية) وفي هذه الحالة يبرز مبدأ الاقتصاد بالقوى والموارد ، لتحتل الصدارة من بين المبادىء الاخرى ••

---

(١) في الحرب — كارل فون كلاوزفيتز — ص ١١٩ ، تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي •

ولكن لو فرضنا ان هناك توازناً ، يملك فيه الطرف الذي يتابع الهدف الايجابي أقل الموارد واضعفها ، ولكنه يخضع للدوافع والمغريات أقوى مما لدى الطرف الاخر الذي يملك موارد اكثر بشكل ينتج عنه التعادل والتوازن في مجموع الدوافع والقوات والموارد •• عندئذ نستطيع القول : أذا لم يتوقع أي تعديل في هذا التوازن من تدخلات خارجية او تغييرات داخلية فأن المعسكرين سيضطران الى اقرار السلام •• أما اذا كان هناك توقع لحدوث تعديل في التوازن المذكور ، ولصالح معسكر واحد فقط ، الامر الذي ، لابد من ان يستحث الطرف الاخر على العمل بنشاط اكبر ، فيستمر صمود الطرفين لمواصلة الحرب •• وهكذا نرى اذن ، ان فكرة التوازن لا تفسر هدنة المعارك ، بل فكرة انتظار وقت اكثر ملائمة •

ولكن هناك دوافع للصمود •• فالدولة المعتدية ليست لديها السبب للصمود ، بل الرغبة في الحصول على مكاسب •• في حين يترتب على الدولة المعتدى عليها الصمود الذي يرتفع الى اعلى مستوى بسبب دوافعه النبيلة، وهي ، حق الدفاع عن الوجود ، والارض والسيادة ، والاستقلال •

يتجه تصميم المعركة في الهجوم الى الحاق الضربة الاولى ، بضربات متتالية حتى يتم تدمير كل شيء (الموارد المادية ، وتفتيت المعنويات) وان مدى التدمير والتفتيت يتوقفان على الهدف من شن الحرب •• أي بعبارة اخرى ، يتبع المهاجم ــ كما يقول (الادميرال الاميركي جي سي ديلي) السوق المتعاقب في حين يتعين على المدافع الصامد اتباع مأيسميه (جي سي ويلي) (بالسوق التراكمي) ويعني انزال ضربات متفرقة وفردية على الخصم، والقيام بالتجريد السوقي الجوي و / او البحري ، فاذا كان لابد من المثابرة والصمود في الصراع اكثر من العدو فعليه ينبغي الاكتفاء بنتائج متواضعة، قدر الامكان ، تتناسب مع الوقت ، لان طبيعة الاشياء تتطلب ممن يبغي هدفا كبيرا ، ان يحاول تبديد قوى الخصم ، بتخصيص مايطلب الهدف

الصغير •• واصغر هدف يمكن تحديده في هذه الحالة ، هو المقاومة البحته البسيطة ، أي القتال الذي لا يحمل اية نوايا ايجابية •• وفي هذه الحالة يتأكد ضمان النتيجة اكثر ، أذا كانت الوسائل قوية نسبيا •• ولكن الى أي مدى يمكننا ان نذهب في هذا السبيل ••؟ •

اننا بلاشك لا نستطيع السير ، في حدود السلبية المطلقة ، لان الاستمرار والجلد وحدهما لا يحسمان المعركة، والمقاومة عبارة عن نشاط يرمي الى تدمير مجموعة من القوى تبلغ مايدفع الخصم الى التخلي عن مخططه ، وهذا كل مانود الحصول عليه في كل عمل من اعمالنا ، وهذا مايتضمن الصفة السلبية للنوايا ، وهذا مايعكس للعدو صمودنا •••

ولا شك ان النية الدفاعية السلبية المتمثلة بعمل واحد ، هي أقل فعالية من العمل الهجومي الموجه في الاتجاه ذاته •• ولكن النية السلبية الدفاعية تتيح عملا اسهل من العمل الهجومي الايجابي وتقدم ضمانات اكبر ، وان ماتفقده من الفعالية ، تسترد بفضل الوقت أي بفضل الاستمرار في القتال ، لهذا فان النية السلبية الدفاعية التي تكون المبدأ الاساسي للمقاومة الصرفة ، وهي وسيلة طبيعية للاستمرار في القتال مدة اطول من مدة قتال العدو ، انها عبارةعن استنزافه وانهاكه وبالتالي اجباره على التخلي عن نواياه •

وهذا هو الفرق بين الدفاع والهجوم بالنسبة لاهدافهما ، فالدفاع ينم عن الصمود ، في حين ان الهجوم بحاجة الى الاقدام ••• الا ان الاقدام ، أذا كان نابعا عن المزاج وليس عن الفكر ، فانه سيقود الى الهاوية •

والنتيجة : أذا استطاعت النية الدفاعية تجميع كل الموارد بغية المقاومة البحتة وتحقيق التفوق في القتال ، واذا بلغ التفوق مبلغا كافيا لموازنة التفوق المحتمل لدى العدو ، فأن استمرار المعركة كاف وحده لتبديد قوى

العدو شيئا فشيئاً ، حتى يصبح هدفه غير ملائم لجهوده ، عندها يضطر الى التخلي عن القتـــال ••• وهكذا فأن طريقة انهاك الخصم واستنزافه تشمل فعاليات متعددة منها الاستمرار في القتال والصمود ••

الصـــمود وقـوة الشخصية (أو الشخصية) :

٤ ـ تـدل قوة الشخصية او (الشخصية) على الاصرار والتمســك بالقناعات سواءً أكانت هذه القناعات ناجمة عن احكام الشخص نفسه أو مستمدة من احكام الاخرين ، وسواءً أكانت مستندة الى مبادىء ثابتة او آراء وليدة ساعة ، وقتية او مرحلية ، أو أي شكل من اشكال القناعـــات الفكرية •• ومن المؤكد ان مثل هذا النوع من الصلابة ، لا يظهر ، عندما تتعرض القناعة لتبدل مستمر ، ولتحولات غير ناجمة بالضرورة عن مؤثرات خارجية ، بل تنبثق عن الحركة القلقة الذاتية للفكر نفسه •• الامر الــذي يدل على عدم ثبات الافكار عند الشخص ••

ان من يغير رأيه في كل لحظة يفقد كثيراً من المقومات الشخصية ، حتى ولو كانت أسباب التبديل نابعة من ذاته •

ولا يدل الصمود الناجم عن الصلابة ، الا على قناعات ثابتة وصافية ، وعميقة الجذور ، عندئذ فقط لا تتعرض للتغيير ، أما عند الرجال اللمفاويين (البلداء) فان نقص النشاط الفكري عندهم لا يتيح أي مجـــال للتغيير ، ولكن لا يوصلهم الى اعمال مجيدة •

أما في الحرب ـ فأن الشك يهز كل معلوماتنـــا وقناعاتنـــا ، فتتعرض الروح لتأثيرات عنيفة وعديدة ، لذا يزداد عدد الدوافع التي يجعل الرجل ينحرف عن الطريق الذي بدأ اليسر عليه ، كما يجعله يشك بنفســـه بمـــن حوله ، ولكن هذا الانحراف ، وذلك الشك في الحرب اقوى منهما في أي نشـــاط انســـاني آخر ••

وكما يثير الخطر ومنظر الالم في الحرب مشاعر تسيطر بسهولة على القناعات الفكرية .. فأن بصيص النور الخافت والقلق المنتشر في كل مكان، يجعل (الاحساس) الواضح والعميق في حالة من الاضطراب ضمن مثل هذا المناخ في الحرب ، ولا تستند الا على حقائق مخمنة او متوقعة ، لذلك تظهر اختلالات في وجهات النظر ، تتعارض مع القناعات الاولية ، ولا يستطيع اكثر الناس لمقاوية حماية نفسه من ذلك ..

أما الافكار والمبادىء العامة والقناعات الثابتة التي تنطلق من وجهة نظر عليا والتي توجه العمل ، فلا يمكن ان تكون الا ثمرة تفهم كامل وواضح .. على حين تغدو الاراء المتكونة عن الحالات الخاصة والانية ، ضعيفة امام المبادىء .. ولكن الصعوبة تكمن في ان علينا التمسك بكل صلابة بنتائج التفكير السابق رغم الاحكام والظواهر المتناقضة التي تظهر في العمل .

وبين المبدأ وآراء حالة خاصة طارئة ، هوة كبيرة ، لا يمكن ، غالبا ، ردمها ، بتسلسل منطقي ظاهر ، في هذه الحالة ، يفيدنا أمران هما :

أ - الثقة بالنفس .

ب - درجة معقولة من التشكيك .

هذا المبدأ هو الاصرار في حالة الشك على وجهة نظرنا الاولى ، والتمسك بها ، وعدم التخلي عنها .. الا امام قناعة واضحة جداً .. وهذا أصعب الصعوبات التي يتعرض لها الفكر البشري في الحرب .

ولكن ينبغي ألا ننسى : ان الايمان الذي لا يتزعزع بالحقيقة السامية لمبادىء اكيدة ، تثبت صمتها مدة طويلة ، ويبقى اقوى من الظواهر العابرة، رغم قوتها الآنية ..

وان التمسك بالقناعات المسبقة في الحالات التي يكتنفها الغموض ، والاخلاص لهذه القناعات ، كافيان لاعطاء تفكيرنا ثباتا واستمراراً يرفعان من قدرتنا على الصمود •

الصـــمود والعنـــاد :

٥ ـ ولقد علمنا لحد الآن ، ان دوافع الصمود ناجمة عن قناعات فكرية عليا ثابتة ، وفهمنا مدى اسهام المزاج المتزن ، والذكاء الخاص في بناء قــوة الارادة ، التي تكون ساساً للصمود في الازمات ، ولكن الكلام عن قــوى الارادة والشخصية يقودنا الى الحديث عن شكل آخر من اشكال هذه القوى وهو « العنـــاد » ••• وغالبا مايســـتشهد بوحـــدة مقاتلـة دافعت عن موقعهـا بعنـاد ! !

فماذا يعني العناد ••؟ وما علاقته بالصمود ؟••

وقد يصعب على المرء ان يحدد نهاية الصمود وبداية العناد الا أن ايجاد الفرق المجرد النظري بين هاتين الصفتين ، ممكن بدون صعوبة كبيرة ••

يعرف علماء النفس العناد : على انه ليس عيباً من عيوب الذكاء، ولكنه تعبير يستخدم لتحديد رفض الخضوع لفهم اعلى رفضا ، لا يمكن ان يعزى الى الذكاء الذي هو قدرة كبيرة على التفهم ، بدون ان يكون في ذلكتناقض، فالعناد اذن ، عيب من عيوب الطبع ، وليس نقصاً في الذكاء •• ويمكننا ان نعتبر العناد قوة اكبر من قوة الصمود ، ولكن بدون دوافع واضحةوسامية••

وبهذه الصورة يكون للقناعات الفكرية دور أهم يحث المرء على العمل على حين يتلقى الانسان دعما افضل من تلاحم الفـكر مع الشـعور ، ذلـك التلاحم الذي يدعى بتسميات متعددة •• كالصمود ، والصلابة ، والاصرار، وقوة الشخصية ، والعناد وهذا ما عالجناه في هذا البحث •

الفصل الثامن

ـ الفكـر ـ والمـزاج ـ
واثرهما في الحرب

« المزاج خاصية بشرية لها مردوداتها المختلفة على الانسان فـي الحيـاة .. كما لـها تأثيراتها المتباينة في الحرب »

« الفصل الثامن »

الفكر ـ والمزاج واثراها في الحـرب

١ ـ ان الانسان هو « معيار كل شيء » في الحرب ، كـما يقـول (العقيد البرتغالي ـ ميكشه) وأن العلم والتقنية ، والمعدات المتطـورة • وأساليب القتال وفنونه •• كذلك السياسة ، والستراتيجية (السـوق) والتعبية ، كلها وسائل تقرب الانسان من غرضه النهائي من الحرب ، وهـو الحياة الافضل ضمن اطار من السلم الدائم والعادل •••

وأن الانسان عبارة عن الجسد والروح ، والفكر ، •• لقابليته البدنية، وروحه المرهفة ، ولقوة نفسه وشعوره وفكره النير ، مساهمات جادة وفعالة في الحـرب ، كما في الحياة ••

وان كل مايحمله من الطبع والشخصية ، هو الذي سيستثمر هـذه الموارد ، ولكن سوف لن يستخلص منها ، الا ماتتيحه له صفاته الشخصية أن يسـتخلص •

وتبرز أهمية هذه الظواهـر البشرية ، بحسـب الظروف المتعددة ، ومتطلبات المواقف المختلفـة •

ويؤثر الفكر ، ويتأثر بها ايجاباً او سلبا ، فتنبثق الطاقات البشـريـة بالمحصلة ، ليدهش العالم ، والاجيال الصاعدة وقد تنضمر تلك الطاقـات لتحل اللعنة والعار ، ابـد الدهـر ••

ومن المعلوم ان فكر الانسان ومزاجه (طبعه) أمران منفصلان الواحد عن الآخر •••• اذ يطيع الانسان ، في المواقف الحرجة احساسه اكثر ممـا

يطيع أفكاره ••• فبينما يستند عمل الفكر او الذكاء ، على مجموعة من المفاهيم معظمها على الاقل غير موروثة ، في حين ان عمل المزاج ، لا ينبثق الا من معلومات وهمية ،لا اساس لها في الغالب ••

ومما لا ريب فيه ، ان الامزجة البشرية ، متعددة ومختلفة وانها نابعة من التكوين الفردي للانسان ، ولها آثارها في حياة الانسان وانعكاساتها عليه ، وعلى الاخرين من اتباعه •

٢ ـ لقد صنف علم النفس ، الامزجة البشرية ، بشكل عام ، عدة تصنيفات ، لا يتسع المجال لخوض تفصيلاتها ، وتشعباتها نظراً لعدم الاختصاص ، ولاننا نرى في التصنيف التالي تلائما وانسجاما اكثر ، مع موضوع بحثنا هذا ، لذا نكتفي بأستعراضه ، وتجنب انفسنا من سبر أغوار تعقيدات النفس البشرية اللامتناه •• ويجري تصنيف الرجال بناءً على نوعية أمزجتهم وطبائعهم الى اربع مجموعات وكما يلي :ـ

أ ـ اللمفاويون او (البلداء) :

وأن هؤلاء ، أناس ، قليلو الانفعال ، والاحساس بالمخاطر •••

ب ـ الحساسون الهادئون :

وهؤلاء انفعاليون ، وحساسون ، ولكن لا تتعدى مشاعرهم درجة معينة •

جـ ـ أصحاب المزاج الانفعالي :

أما هؤلاء ، فهم المندفعون الذين ينفعلون بسرعة وتنفجر مشاعرهم فجأةً ، وبعنف كالبارود ، ولكنها تنطفىء بسرعة ايضا •

د ـ المتزنون ذوو الاهواء القوية :

وهؤلاء ، لا ينفعلون بسرعة ، وفي ابسط الظروف ، ولا تستيقظ حساسيتهم بسرعة وفجأة ، بل وبصورة متدرجة وتصبح مشاعرهم ،

عندئذ قوية ، تدوم مدة طويلة من الزمن ، انهم متزنون ذوو الاهواء القوية والعميقة ، والصامتة •

لنر ما هي انعكاسات هذه الطبائع البشـرية المختلفـة على النشاط العسكري وتأثيرهما في خلق قوة شخصية ••؟ •

اولا ــ الرجل اللمفاوي : نراه لا يفقد توازنه بسهولة ، وينعدم عنده كل مظاهر الفاعلية ، ولكن ذلك لا يعني انه قوي الشخصية •

وقد يظهر نوع من الفعالية لدى أمثال هذا الرجل في الحرب ، ولكن وحيدة الاتجاه ، تقود الى الثبات الكامل ، ولكن حرمانه من الدافع الايجابي للعمل والنشاط ، لا يوصله الى النهاية المجدية ، كما ان ثباته او نشاطه ، لا ينتقلان الى الاخرين ، لانهم لا يقتدون به ، لوضوح محدودية نشـاطه وعملـه ••

ثانيا ــ أما افراد النوع الثاني (الحساسون الهادئون) فهـم ينفعلون بسهولة مع الامور الصغيرة ، ولكنهم يقفون عاجزين أمام القضايا الجليلة، أنهم سريعو الاندفاع لنجدة شخص بائس ، ولكن منظر بؤس جماعي يثقل كواهلهم بدلا من ان يدفعهم للعمل •

أما في الحرب فيعمل هؤلاء الرجال بفاعلية ونشاط وتوازن ، الا انهم لا يقومون ابداً باعمال جليلة ، أنهم رجال الظل ، يصلحون لمناصب درجة ثـانية بعد القـادة •

ثالثا ــ اصحاب المزاج الانفعالي : لا يصلح اصحاب المزاج الانفعالـي المندفع للحياة العملية ، كما لا يصلحون للحرب بشكل عام •• ولـكن من الملاحظ ان ميل حساسية هؤلاء الرجال الى الشجاعة والطموح ، يجعلهـم قادرين على القيام بأعمال حسنة في وظائف صغيرة •• وذلك لان الاعمـال الحربية الخاصة بالمراتب الصغيرة هي عادة اعمال محدودة المدى ••

ان الايعاز « الى الامام » ينطلق بكل قوة من هذا المزاج الانفعـالي المندفع ، ولكن سحره لا يدوم الا لحظات بسيطة على حين ان القتال العنيف الذي يعقبه يستمر طول اليوم او عدة ايام •• وعلى ذلك يجد هؤلاء الرجال بسبب عنف مشاعرهم صعوبة مضاعفة للمحافظـة على توازنهـم ، وغالبـاً ما يطيش صوابهم ، وهذا أمر خطير اثناء القتال •

الا ان التجربة تبرهن لنا ، على وجود رجال مزاجهم من هذا النوع ، ولكنهم مع ذلك أقوياء ، أي قادرون على حفظ توازنهم •• وهؤلاء ، هم في الغالب اناس يحملون في اعماقهم طبعا نبيلا •• وأنهم يتمتعون غـالبا بهذا الشعور ، الذي لا يجد الوقت الكافي ليعمل بفاعلية كاملة • لذا ما أن ينتهي الاندفاع الاول ، حتى يصبحوا فريسة احساس قـوي بالهـوان •• ولكن أذا ما تعلموا بالمراقبة والتجربة والممارسـة ، كيف ينتبهـون الـى انفسهم ، ويراقبون في لحظة الانفعال القوة المعاكسة الكامنة في نفوسهم، أصبحوا قادرين على التصرف بنفس قوية •

رابعا ــ وأخيراً هنالك الرجال المتزنون ، ذوو الاهواء القوية الـذين ينفعلون بصعوبة ، ولكن انفعالهم عادة عميق وعنيف ويعتبرون بالنسـبة لسابقيهم كالجمر بالنسبة للهب ، وهم بفضل قدرتهم الجبارة ، أقدر الناس على تحريك كتل الجماهير العريضة ، وتشبه مشاعرهم حركات الجماهير التي لا تقاوم ، رغم بطء مسيرتها ••

ولا يقع هؤلاء الاشخاص ضحية مشاعرهم ، ولا تستطيع هذه المشاعر جرهم الى أفعال يخجلون منها بعد ذلك ، كما هي الحالة بالنسـبة للنـوع السـابـق ••

ولكن التجربة تدلنا ، رغم كل هذا ، على انهم يفقدون بعض توازنهم، ويقعون ضحية هوى اعمى ، وهم يقعون في مثل هذه الهاوية ، أذا لم يتمتعوا

بالأنفة والكبرياء ، والسيطرة على النفس •• أو أذا لم يكن آنئذ لمشاعرهم أتــزان كــاف •

ونتهي من كل هذا الى القول : ليست النفس القوية ملكاً لمن لا يعرف، الا ، الانفعالات القوية ولكنها ملك لمن يعــرف كيف يبقى سيد نفسه ، تحت تأثير اعنف الانفعالات ، وأشدها سوءاً ، بحيث يحتفظ بقدرتــه على الحكم بكامل مهارتها ، رغم العاصفة المزمجرة في قلبه ••

وهذه فضيلة اخرى من الفضائل البشرية ، لها مردوداتها المختلفة على الانسان في الحياة •• كما لها تأثيراتها المتباينة في الحرب •••

وعليه فأن هذه الدراسة البسيطة للامزجة البشرية ، تفيدنا ولا شك ، لمعرفة مايدور حولنا ، في جو القتــال المضطرب ، الباعث للقلــق والملــيء بالانفعالات ، والاهــواء ••

وتمكننا من فهم دوافع تلك التصرفات التي يبديها الرجال في وحــدة مقاتلة ، أيام السلم او الحرب ، ويهمنا ذلك كثيراً في بناء مايسمى بـ (روح الوحدة او القطعة) على أسس نفسية راسخة ومتينة •

ويكون عندئذ من الحكمة والدراية ، عندما تعهد للرجال مهام معينة، أن تؤخذ ، نوعية مزاجه بنظر الاعتبار ، وينبغي أن يخضع للاختبار مسبقاً، تماما ، كما تخضع قدراته الفكرية والبدنية والفنية والعلميــة للاختبــار ، خاصة عندما يعهد لهم ، بمهام او مناصب قيادية او أدارية مختلفة •

« حضــور البديهــة »

يقودنا الكلام في موضوع « الامزجة البشرية » الى موضوع آخــر هــو « حضور البديهة » •

ولقد اعتبره (كلاوزفيتز) صفة فكرية ، التي ولا شك ، تعتبر فضيلة مفيدة من الفضائل البشرية ••• وانها ميزة خلاقة للفكر هذه الميزة التي لابد

وان تأخذ مكاناً كبيرا في مجال عمل مليء بالمفاجآت غير المتوقعة ، وفي حقل الصراع مع الامور الطارئة ..

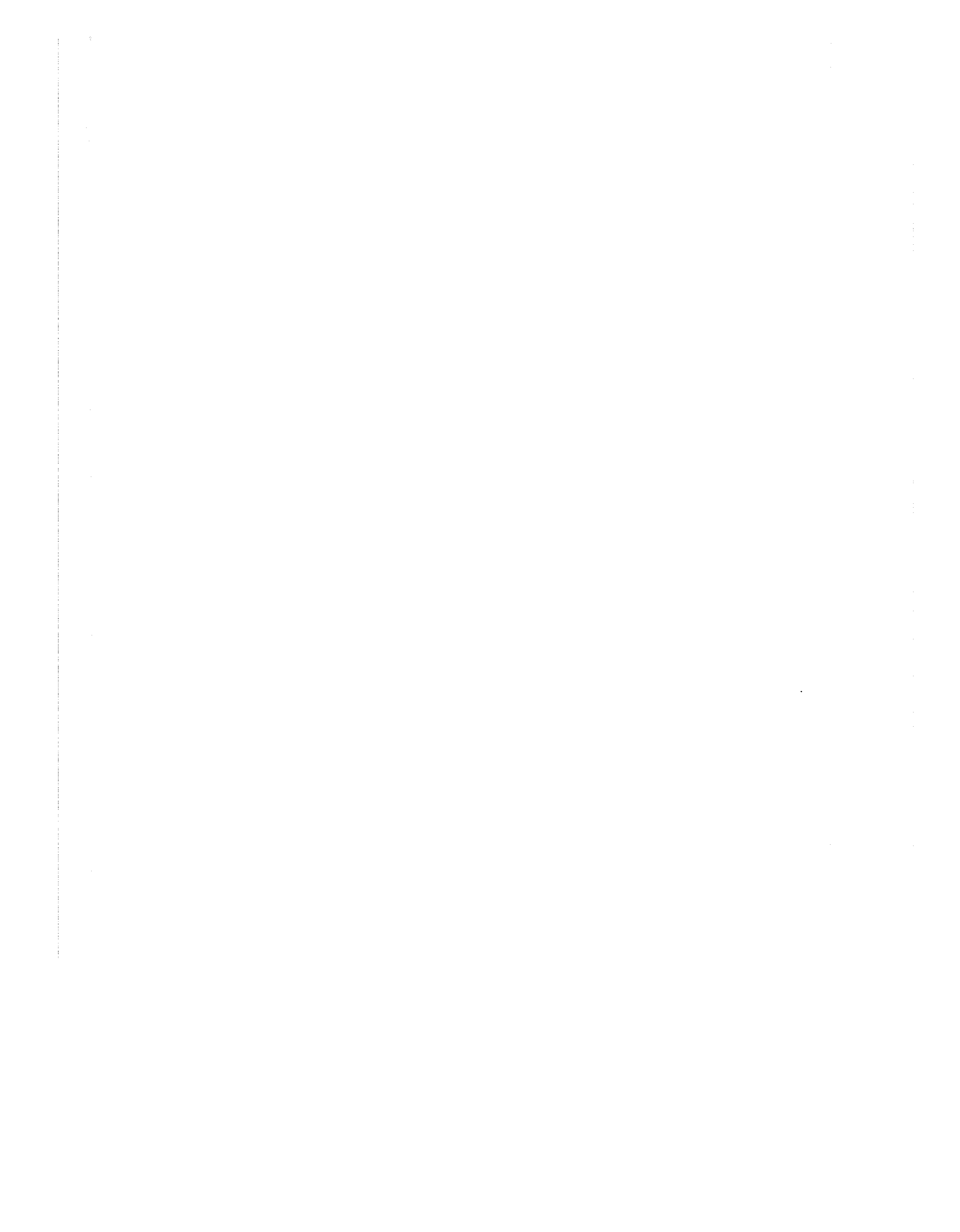
وما اكثر مايجد القائد الحربي نفسه في مثل هذه الامور في الحرب واننا نعجب كل العجب بحضور بديهة الفرد ، عندما يرد بشكل صحيح على سؤال غير متوقع ، كما نعجب بحضور البديهة ، بأتخاذ اجراء ملائم وسريع ضد خطر مفاجيء ... ولا يهم بعد ذلك ، ان كان الرد او الاجراء عاديين، لان اكثر مايهمنا هو ، قدومهما بشكل فوري وملائم .. لان الامر يبدو عديم الاهمية اذا ماجاء بعد تأمل طويل .. وهذا التصرف المفاجيء للذكاء يأخذ أهميته الخاصة ، عندما ينبثق في الوقت المناسب ، فيقدم لنا عندئذ سرعة الانقاذ والتدارك بكل دقة وسهولة ...

فهل تنجم هذه الصفة البشرية الرائعة عن اسلوب خاص بالفكر أم تنحدر من طبع متوازن .؟ أم هي بنت تأملات طويلةومسبقة لدقائق الأمور في حقل المعارف ؟ .

هذا الامر يختلف باختلاف الحالات .. وان كان حضورها باعتقادي بحاجة الى الامور الثلاثة معاً .. فسهولة الاجابة تتأتى عادة من عقل مفكر ومتأمل ، ومعطاء وفق اسلوب خاص اما الرد الذي يصيب كبد الحقيقة ، في اللحظة المناسبة ، امام خطر مفاجيء فأنه من دون شك ، يتطلب توازنا كبيراً في الطبع والمزاج .

الفصل التاسع

- روح الوحدة او القطعة او الجماعة



الفصل التاسع

روح الوحـــدة ، القطعـــة ، الجماعــة .

« وهذه فضيلــة اخرى من انفضائل الحربيــة »

١ ـ مما لا ريب فيه ان الحرب مهنة صعبة من بين المهن وحتى عندمـا يتخذ الرجال الصالحون للخدمة العسكرية ، لذا فانها تبقى مع ذلك مختلفة كل الاختلاف ، ومستقلة عن النشاطات البشرية الاخرى .. بممارسة هذه المهنة الخاصة تتكون لدى كل مقاتل فضيلة تسمى بـ (روح الجماعة او روح القطعـــة او روح الوحــدة)[1] .

فعند تشبع كل فرد بروح المهنة وفكرها ، واكتسابهم الثقة والالفـة الناتجين عن التدريب والمعايشة مع حسن الادارة والتنظيم والقيادة ، يتعزز لديهم روح الطاعة والنظام والتفاني والاخلاص في نفوسهم فيكون لديهم هذه الفضيلة النافعة في القتال ..

« فأن افراد الوحدة او التشكيل ، عندما يحافظون على تشكيل القتال تحت نيران الحارقة المدمرة ، ولا ينساقون للمخاوف الوهمية ، ويعرفـــون كيف يقاومون اعنف الاوضاع ، ويفخرون بضحاياهم ، ويحتفظون ، حتى وقت الهزيمة بالنظام والطاعة واحترام الرؤساء ، والثقة بهم ، ويعتبرون رغم

(١) يختلف الكتاب والمؤلفون في تفصيل استخدام احدى التسميات الثلاثـة في كتـــاباتهـــم .

انهاك قواهم البدنية ، ومعاناتهم من الحرمان والجهد المستمرين ... ان هذه الجهود التي يبذلونها في المعارك هي وسيلة للنصر ، وليس لعنة نزلت عليهم من السماء ، عندئذ ، تكفي فكرة المجد وشرف الوحدة والسلاح ايقاض هذه الفضيلة عندهم »[٢] .

ولكن في التأريخ شواهد تدلنا على امكانية الحصول على النصر دون ان يحضى الجيش بمعونة هذه الفضيلة ، وذلك بفضل قائد محنك ، قاد جيشه للنصر رغم غياب هذه الفضيلة في بداية الامر . لذا يمكننا القول ، بأن انعدام الفضيلة المذكورة ، لا يعني عدم حصول حرب ظافرة ، فهي تظهر كقوة معنوية محدودة ، لا يمكن تجريدها ، وبالتالي لا يمكن حساب تأثيرها ، هذه هي خصائصها ، أما تأثيرها فلا يمكن قياسها ومعرفتها الا مع الاجزاء الاخرى من الفضائل الحربية ،.. كعبقرية القائد ، والصفات الطبيعية لافراد الجيش ، وأبناء الشعب .. من الشجاعة والاقدام والمهارة ، وقوة التحمل ، والصبر والحماسة ...الخ[٣]

فكيف يمكن تنمية هذه الفضيلة ..؟.

٢ ـ لقد ابرز (غوستاف لوبون) في كتابه المشهور (بسيكولوجية الجماعات) تأثير الافراد بعضهم على بعض ، ضمن اطار جماعة من الجماعات، بشكل تكسب معه هذه الجماعة ، اشكالا من الاحساس والتفكير ، خاصة بها ، تختلف عن الاحساس والتفكير الفردي لدى كل منهم بصورة مستقلة، تحت ظل بعض الشروط ..

ويتم التوصل الى خلق « روح مشتركة جماعية » ليس من محصلة النفوس الفردية ، وانما بخضوعها لنفسية (بيكولوجية) وفكرية خاصة ..

---

(٢) المؤلف في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ـ ص ٢٣٤ تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي .

(٣) المصدر نفسه (ص ٢٣٥) .

وقد تنتقل الحالة النفسية والفكرية الفردية الى الحالة الجماعية النفسية والفكرية وفق شروط معينـة ••

لقد نقل جان بيريه[٤]••• ملخص استنتاجات (غوستاف لوجون) مع اضافة بعض نظريات (جبرائيل دونارد) عن التقاليد •• لبيان حركـة نقل هذه في كتابه ـ الذكاء والقيم المعنوية ـ أراني مضطراً على القيام ماقام به (بيريه) نظراً لاهمية الموضوع ومسايرته خط تفكيري في هذا البحث•• بعد ان اقتنعت بدوري بالاسس التي وردت في هذا الملخص •• مما يكون من السهل الحصول على بعض الاستنتاجات المفيدة وذلك باضافـة بعض الايضاحات الضرورية من وجهة نظرنا وخبرتنا عليه في الاسطر التالية •••

٣ ـ انتقال الاحاسيس والافكار من الفرد الى الجماعة :

من الملائم ، في بادىء الامر ، تعريف (جماعة بسيكولوجية) او كما يسمى في المفردات العسكرية (روح الجماعـة ، او روح القطعـة ، او روح الوحـــدة) ••

« ان مجموعة من الافراد المجتمعين في مكان واحـــد ، لا تشـكل بالضرورة والالزام (جماعة موحدة نفسيا ـ جماعة بسيكولوجية) •• أذ ينبغي وجود فعل بعض عوامل الاثارة العقلية والفكرية ، وبصورة خاصة ، العاطفية ، كي تنبعث (روح الجماعة) » •

على ذلك هناك جماعات من مختلف الانواع •• ولكن يمكن تقسيمها بشكل عام الى نوعين من الجماعات البشرية • وكما يلي :

---

(٤) راجع كتاب ـ الذكاء والقيم المعنوية ـ جان بيريه ، ص ١٨١ ، تعريب: اكرم ديري والهيثم الايوبـي •

أنـــواع الجمـاعـات :

أ - جماعة غير متجانسة ، مؤقتة (غير ثابتة) : كجماعة عددية كبيرة ، اجتمعت بمحض الصدفة ، في الوقت والمكان المعينين أو لهدف محدد أو غاية معينة كالجماعات السياسية أو الدينيـة او العقائديـة .. او الجماعات ، لدى أفرادها نوع من التشابه في الوظيفة او طراز المعيشة (كطبقة بورجوازية ، عمالية فلاحية ، مهنية ... الخ) .

وتعتمد هذه الجماعات كثيراً على زعمائها (القياديين) لغرض توجيههم في الاتجاه السليم .. ولكن من المعلوم ان مجال عمل وتأثير هؤلاء الزعماء محدود ، وانهم قادرون على دفع الجماعة الى الامـام في موقعة قتالية قصير الامد ، متوسط الاهمية ، الا انهم سيئون في هجوم عصـري كبـير[٥].

ب - النوع الاخر - فهو قطعة عسكرية (وحدة او تشكيل) فهي جماعـة متجانسة وثابتة ، تملك بدلا من الزعماء (القيادين) قادة معينين بالنظر لكفاءتهم ، لهم حقوق وواجبات محددة ، وهيبة تعتمد على رتبهم ، ويملكون وسائل شرعية لضبط قطعاتهم ، وعنـــدما تكـون الدولة صحية ، تحاول كسب الشـــبان مسبقا ، وتقويمهـم لانهـم جنـود المستقبل ، ولان عليهم خدمة الواجب المقدس ، وســـيرهن هـؤلاء الشباب ، شرفهم الشخصي ، بشكل تلقائي وخفي لاتمام هذا الواجب، وقد سبق وقال السيد القائد (صـدام حسـين) (نكسب الشـباب نضمن المســـــتقبل) .

والجيش يقسم نفسه دوما الى مجموعات متجانسة (وحدات ، الـويـة ، فرق) .. تتدرب ، وتتجهز ، تتسلح ، تبعاً للـدور الـذي يقع على عاتقها في المعركة - وقبل ان يعرف افراد القطعة ، الآلام ،

---

(٥) المرجــع الســـابق ، ص ١٨٣ .

والأخطار المشتركة، فانهم يكونون قد تكيفوا على الحياة المشتركة ، فهم يأكلون الحساء معا ، وينتقلون ويعسكرون معا في مكان واحد ، ولوقت طويل ، ويعرفون بل يتعلمون روابط الزمالة التي تنسج الجهد الجماعي ..

وان اسباب ميلاد مثل هذه الروح هي كما يلي :-

أ - يأخذ الفرد الغارق في الجماعة ، مفهوم مشاركة قوى كبرى ، ويفقد الشعور (بالفردية الخاصة) ولو جزئياً .

ب - تنمى ظاهرة التقاليد وما يسمى (بالعنعنات) العسكرية في القطعة العسكرية بفضل مراسلات عقلية ، وبفضل مغناطيسية جماعية ليست معروفة جيداً لحد الان .. وتنمي هذه الظاهرة عدوى عقلية حقيقية.. وتكون هذه العدوى اكثر قوة ، كلما أزدادت قوة تلقين الملقنين والموجهين والمحاضرين ، في الوحدة او التشكيل ، وكلما تجاوبت الاعمال الموصى بها مع أهواء افراد الجماعة ..

جـ - ان الفرد كعضو في جماعة من الجماعات ، ميال الى تحويل الافكار التي اوحيت اليه الى الاعمال فورا ، حتى ولو كان معتادا في مجرى حياته العادية على استخدام حاسة النقد ..

د - ان المعايشة والزمالة ، والشعور بالمسؤولية ، والوعي بالمصير المشترك والتشابه ، كلها عوامل تنمي قوة الالتزام بالتقاليد ، والتمسك بها ويكون من السهل عندئذ ملاحظة مايقدمه هذا السلوك من النتائج الايجابية أثناء القتال .

ويمكن القول بان الالتزام بالتقاليد والتفاني يقدمان نوعا من الاسمنت يربط افراد الوحدة ، في كتلة واحدة متينة عندئذ لا يشكلون حفنة من الرمال مهددة بالانهيار .. ولا يهم من بعد ذلك ، ردود الفعل

المتعددة والمتشعبة للافراد ، التي تضادد الاتجاه الموحد للجماعة ، بعـد آن تماسكت واستقطبت في اتجاه واحد ••

ولكن في أي اتجاه ؟ •• أهو اتجاه نحو الاندفاع ام اتجاه نحو الفرار؟• وهل يرتفع الرجال الى مستوى الابطال ••؟ أم ينحرف الابطال بموجة من الهلـع •• ؟ • وهل ستنتشر عدوى الشجاعة أم عدوى الخوف ••؟

ان كل ذلك مرتبط بالظروف ، وينبغي ان لا نعتمد كثيراً على هـذه الفضيلة بصورة مجردة ، ونعتبرها الدواء الوحيد الناجع ، انما ينبغياعتبارها كقوة معنوية محدودة فحسب •• ولكن ما أن تندمج مع الفضائل الاخرى وبفضل حسن الادارة والتنظيم والقيادة حتى تصبـح قـوة دافـعة ايجابية ونبيـلـة ••

وتجد القطعة العسكرية (الوحدة والتشكيل) نفسها مزودة بالعقـل والذاكرة والارادة ، عندما تتكامل فيها روح الطاعة والنظام والتفانـي ، تتكون لديها غريزة المحافظة على بقاء الجماعة ، لتحل محل غريزة المحافظة على البقاء الفردية ، وبوجود القائد على رأس قطعته العسكرية ، يلعب ازاءها الدور الذي يلعبه المخ النفسي في الفرد ، وهو دور معدل للخيال ودليلا له ويزوده بكل القدرات التي لا تلعب أي دور في قيادة جماعة غير منظمة •

ويمكن بالاضافة الى ذلك ، قيادة القطعة العسكرية ، بشكل افضل من قيادة جماعة غير منظمة ، ويرجع ذلك الى تجانسها وانضباطها ، وترتيبهـا ، وتمفصلها ، وباندماج بناء قيادي في كتلتها ، ووجود شبكة لنقـل الاوامر والمعلومات ، فالاثر المعنوي فيها « سريع ومباشر » وتطير كهربائيا منالسبب الى الانطباع (من المنبهات الى الاستجابات) على حد قول (دوبراك) •

فالتقليد الاجتماعي ، يتقدم في القطعة العسكرية ، وينمو ويوجه الى أقصى ما يمكن وتتألف الكتلة البشرية في كائنات ضـعيفة ولـكن تتكيف

بصورة رائعة ، ويقع (اللافعالون) (الكسالى انصار الراحة والنوم) الذي عناهم (ربيو) في دراسته تحت تأثير (أقوياء الشخصية) وانصار العمل والكد وكل قطعة مرتبة بشكل يكون معه « أقوياء الشخصية » قادة مكلفين بضرب اروع الامثلة وكوادر مساعدة يشكلون مصادر الاشعاع ومراكز الجاذبية المغناطيسية لهؤلاء اللافعالون والتأثير عليهم وحثهم الى المحاكاة والتقليد والمشاركة الفعلية ويقول (ثوسيديد) :

« يقاتل الجنود من اجل القادة ويقاتل القادة من اجل النصر » . ومحاكاة المثل الذي يعطيه القائد وتقليده ، يدعم ويكمل ، أذا استدعت الضرورة ، بواسطة الزام الانضباط السريع .. والثناء والمديح والتكريم المناسب .

ان الشخصيات الفردية القادرة على التضحية بذواتها في سبيل مثل اعلى ، هم القادة في معظم الاحوال ، أو الرجال الجديرون بأن يكونوا قادة، انهم نادرون ، ولكن مثلهم الذي يدعو الى المحاكاة والتقليد ، يرفع من همم الافراد المتوسطي الحماس وقدرتهم على التضحية كما قلنا ، ويحرك فيهم لا قيمتهم المعنوية فحسب ، بل يحرك ايضا قوتهم البدنية[٦]..

لا يتمتع الجندي في القتال المعاصر ، بنفس الفاعلية والحماية المباشرة اللتين كان يتمتع بهما في العهود الماضية ، انه لم يعد فعالا ومحميا بقوته الجسمية ، ومهارته في استخدام سيفه او رمحه وترسه ، ولكنه يجد عزاءً

---

(٦) هناك قصة معبرة ، تتحدث عن الانقضاض على قلعة (سانت ــ فليب في بورت ــ ماهون) من قبل قطعات المارشال ريشيليو .. وكان ذلك الانقضاض يتطلب تسلق سور صخري ، وكانت السلالم قصيرة ، ومع ذلك ، تسلق الجنود على اكتاف بعضهم البعض ، وتوصلوا الى الهدف، وبعد عدة ايام أراد المارشال ريشيليو تكرار هذه العملية خارج نيران المعركة ، الا ان الجنود الذين نفذوها تحت نار العدو لم ينجحوا في تنفيذها في المرة الثانية . راجع المصدر السابق ــ (حاشية ص ١٨٥) .

قوياً في وجوده مندمجا ضمن اطار جماعة ، مقادة بصورة جيدة ، جماعة مدربة ومسلحة تسليحا قويا ، ويتمتع باليقين بأنه وقادته ورفاقه ، يعرفون دورهم الخاص ، وانهم مصممون على القيام به ، كما ان لديهم وسائل تنفيذه • ان كل هذا يوحي للجندي المعاصر بالثقة في الحماية الجماعية التي تضمن حياته الى حد ما ، وتعنيه الى حد كبير على التحكم بانفعالات الخوف•

وقد ذكرنا عند بحثنا ـ الفكر والشجاعة العسكرية ـ في الفصول السابقة ، على الدور والاهمية الرئيسة للشعور بالشرف في تنمية الشجاعة العسكرية وتطويرها ، وعندما تعي الوحدة او التشكيل بواسطة روح القطعة ، فرديتها الجماعية ، تزداد الشعور بالشرف والنخوة لدى أعضاءها فيصبح الفرار او الضعف أمورا مشينة ، ويطالب كل فرد من افراد القطعة بأمكانية الاعتماد على اخلاص الجميع ، ويتطلع الى ثقة وتقدير الاخرين ، وتقوم بين افراد القطعة قواعد لا يستطيع أي فرد الابتعاد عنها دون انيتعرض للازدراء •

وبما ان الحياة ، حياة مشتركة ، فأن الاحساس بالشرف والحرص على سمعة الجماعة ينمو بسرعة لان كل فرد يجد ، في كل لحظة ، في الجماعة : مثلا ، ودعما ، ومشجعا ، ومشاركا للالام والافراح ، وكذلك مراقبا ومحاسبا للاخطاء والانحرافات •

هكذا فان الرجل الشريف كما قال (رونونيه) هو الرجل الذي قيد مصلحته الخاصة بقانون القطعة او الوحدة ـ انه ينظر الى نفسه ، ويحمل اعتباراً قد لا يعود اليه كفرد من الافراد •• انه يغار على القطعة ويراقب روح القطعة لدى الاخرين • فالقطعة مستودع مقدس ، اودع من قبل الجميع بحراسة كل فرد ، ويحترمه ويقدره كل فرد بآن واحد كأنه للجميع ، ويعتني به كأنه لكل فرد »[٧] •

---

(٧) راجع نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦ •

ولكي نولد روح القطعة ونطورها ، وبخاصة في زمن السلم ، نحتاج الى كوادر جيدة وتنظيم رصين ، ووقت ، وجهود ، وكثير من الانضباط والتدريب والتأقلم والمعايشة ، وان روح القطعة او الوحدة ، المولدةللشعور بالشرف والنخوة ، تسمح بتوليد ثقة ثابتة لا تتبدد بالصدمات الاولى في القتال ..

وكما قلنا ان من المفهوم ان القطعة العسكرية ، مجموعة بشرية ، وهي قابلة للفناء والزوال ككل ماهو بشري ، فاذا هزل عمل القيادة ، وقلت اهتماماتها بتنمية وتقويم روح الجماعة في القطعة ، تعرضت هذه الفضيلة للهبوط والانهيار .

واخيراً ، فأن الروح الفردية باندماجها في روح القطعة تزيد من قوتها، فتكسب جدارة فكرية ومعنوية اعلى من جدارتها الخاصة ، فتكون القطعة العسكرية قادرة على المحافظة على كيانها وتصبح اكثر شجاعة ، وأحد ذكاءً وأشد ثباتا من مجموع الافراد الذين تتشكل منهم أية جماعة من الجماعات غير منظمة .

الفصل العاشر

الفكر وفضيله القيادة
في الحــرب



« الفصل العاشر »

٦ ـ الفضيلة السادسة :

الفكر ـ وفضيلة القيادة في الحــرب

١ ـ لا يمكن تجريد أهمية ودور الفضيلة المسماة (روح القطعة أو روح الوحدة)[١] عن الفضيلة الخاصة بالصفات الفكرية والنفسية والمزاجية للقيادة العسكرية والتي نفضل تسميتها بـ (فضيلة القيادة) •

هناك تأثير متبادل بين الفضيلتين ، وتلاحم يكاد يستحيل الفصل بينهما بحيث أذا تخلفت احداهما ، انهارت الثانية ، فليس لاحداهما القيمة والوزن بدون الاخرى ، لقد عالجنا فضيلة « روح القطعة او روح الوحدة » فــي الفصل السابق ، وتتناول الان فضيلة القيادة وعلاقتها بالفكر :

فما هي القيــادة وما هي فضيلتها •• ؟

٢ ـ لكي تعمل جماعة من الجماعات ، ينبغي ان يكون فرد من الافراد قد قرر مسبقا اتجاه وطريق العمل ، ثم فرض هذا القرار ، وبالتالي تحمــل مسؤوليته ، هذا الفرد هو القائد او بعبارة اخرى (القيادة) •

ان أوجز تعبير عن القائد ، كما يقول المارشال مونتغمري : « هو ذلك الرجل الذي يجعل الناس يتبعونه ، ويمكن ان يكون مثل هذا الشخص ، انسانا طيبا او ســـيئا »[٢] •

(١) راجع الفصل التاسع من الكتاب •

(٢) كتاب السبيل الى القيادة ـ المارشال اللورد مونتغمري ، ص ١١ ، ترجمة العميد الركن حســن مصطفى •

ويكاد يكون مستحيلا وجود عمل مشترك يتعاون لانجازه عـدد من الرجال مالم يتولى أحدهم مسبقا ، اتخاذ القرار ، ويعين اتجاه سير العمـل وانهائـه .. ومالم يتمتع بشيء من سلطة الالزام للاخرين ..

وليست السلطة ضرورية في أي مكان كالحرب ، ويحس المقاتل بذلك، ولكن ربما يكون احساسه مشوشا او مرتبكا ، الا ان احساسـه بضرورة وجود سلطة احساس قوي ، ومما لا ريب فيه أن كلما كان حجم العمل اكبر ويتضمن مسؤوليات اخطر ، يزداد التعطش لوجود سـلطة قوية تفرض الالـزام .

وقد عبر (فيني Viyny)[٣] عن هذا التعطش للسـلطة الذي تفرضه المعركة بالشكل التالي :ـ

« ان افضل مساعد يستطيع ان يجده الانضباط ، هو الخطر ، فعندما يتعرض الجميع للخطر ، يسكت كل فرد ، ويتعلق الامر بأول رجل يعطـي أمراً او يقدم مثلا مفيداً »

ومن القصص المثيرة من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) التي تبرز ضرورة وجود القيادة واحساس المقاتلين واقرارهم الضمني بحـاجتهم اليها ، عندما يداهمهم الخطر المحدق ، القصة البسيطة التالية ..

« عندما فقدت جماعة من المشاة متمركزة في حفر القنابل ، ضابطها ، أثناء الانقضاض ، فرفع احدهم صوته قائلا ، بتردد مبهم ، أنه سيتسلم قيادة الجماعة .. فأرتفعت همهمة عنيفة على بضعة امتار منه قائلة « دعنا وشأننا.. تسـلم القيـادة »[٤] .

ولكن السلطة الحقيقية ، هي السلطة التي تؤثر في نفوس الافراد ، لتثير فيها طاعة فعالة ، والقائد الحقيقي ، لا يفرض من الاعلى فرضا ، وانما

---

(٤) المصـدر السـابق ، ص ١٨٩ .
(٣) كتاب الذكاء والقيم المعنوية ـ جان بيريه ـ ص ١٩٠ .

يفرض نفسه بنفسه ، أي أن تعينه ، لا يفعل سوى ان يضعه في وضع أفضل كي يكتسب السلطة الحقيقية ،.. فمن الذي ، في الواقع ، يمنحه السلطة الحقيقية ، وتتيح له الظروف الصحية لقيادة العمل .. ؟. مما لا ريب فيه ، أن القطعات التي وضعت بأمرته ، هي التي تمنحه السلطة ، فهي التي تكرسه لقيادتها ، وممارسة السلطة عليها ، وذلك بمنحها له ثقتها المضمرة والكاملة، منحنية أمام حقه ، في الرؤية والتفكير ، والتقدير ..

ولكن كيف يمكن للقائد او الآمر ، أن يكون أهلا لهذه الثقة ..؟..

لا ينبغي أن نعتقد ان بامكان أي قائد أو آمر أن يكرس نفسه بفضل المساعدات والوعود الوهمية ، او بفضل مجموعة من الوسائل « الديماغوجية »[٥]، التي يتعاطاها عادة المرشحون للانتخابات ، لان لدى الجنود أحساسا عميقا ، بسبب تعلق الامر بحياتهم ومصيرهم ..

فكيف السبيل الى ذلك .. ؟.

عندما يعين القائد ، ليمارس وظيفته ، فان الوسائل الوحيدة التي يتلقاها من سطلته الشرعية ، هي تلك التي تقدمها له ، الانظمة والقوانين العسكرية ، ويكفي القاء نظرة على بنود تلك الانظمة والقوانين ، وجداول الالتزامات التي تنص على متطلبات الضبط والالزام ، حتى نلاحظ عدم كفايته ، وسخفه في بعض الاحيان ، بحيث يكون من المدهش ، بل من المذهل حقا ، أن نرى ، مع ذلك جماعة من عدة مئات او الالوف من الرجال المسلحين، لديهم امكانية معارضة أي قرار ، قد يولد موتهم ، ولكنهم مع ذلك ، ينحنون أمام ارادة شخص واحد ، او عدة اشخاص ، زينت ثيابهم بالرتب

---

(٥) الديماغوجية : تعني حب السلطة من اجل السلطة فقط ، والمحافظة عليها بممارسات قهرية ، ووعود كاذبة .

والنياشين والنجوم ... فلابد اذن من وجود مشاركة ضمنية لدى الجميع، بفضل العوامل الفكرية والمعنوية التي تحرك لدى المرؤوسين شعوراً الزامياً خفياً .... يتولد هذا الشعور عندهم في الواقع من الثقة والانطباع ، بأن الآمرين والقادة المباشرين على الاخص لا ينطلقون من منطلق شخصي ، ولا يسعون لبناء ، أمجاد وسمعة شخصية ، وانما يعملون لصالح الجميع ، أي لصالح قضية تتجاوزهم جميعا .

والواقع ان القائد أو الآمر ، لا يمكن له ان يغزو قلوب مرؤوسيه غزواً كاملا ، الا عندما يحسون بانه يعمل من اجل قضية كبرى ، وهكذا يجب أن تكون سلطته الحقيقية بعيدة عن (الديماغوجية) كما هي بعيدة عن التحيز والانانية .

وكما قال مونتغمري : « ان القيادة هي معركة للفوز بقلوب الناس وافكارهم ... فالقيادة مشكلة بشرية كبيرة ، انها دراسة الطبيعة البشرية، هذه الحقيقة ، يجب ان يفهمها بوضوح كل من يصبو الى القيادة .... وان المخلوقات البشرية ، هي العوامل الحقيقية في العالم الذي نعيش فيه .. فأذا استطعت أن تكسب قلوب الذين يعملون لك ، وان تنال احترامهم ، أمكنك ان تحقق أعظم المنجزات ، وليس في وسع المرء ان يكون عظيما أذا لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة ادراكا تاما ..»[٦] .

وهكذا تتبدى في ضوء ساطع ، ضرورة وجود صفة فكرية لامعة للقائد ، وتتبدى الى جانب ذلك ، ضرورة الاستقامة والامانة مطلقتين .. وتفترض مثل هذه الصفات الفكرية ، التعايش مع ذكاء واسع ، مستقيم ، وواضح .

---

(٦) السبيل الى القيادة – مونتغمري ، ص ٢٨٩ ، ترجمة العميد الركن حسن مصطفى

لقد قال مولنكه مايلي :-

« ان الصفات الشخصية تؤثر بثقلها في الحرب ، اكثر من ثقل الذكاء » ...

ولكن تعبير « تؤثر بثقلها اكثر » لا يرضي (جان بيريه) كما لا يرضيني رضىً كاملا ، فهو موجز ووحيد الاتجاه ، وتفضل عليها كلمة (نابليون) الذي كان يريد قادة (مربعين) لهم (من قوة الشخصية بقدر مالهم من فكر) ومن ثم يعود (بيريه) ويفضل على كلمة نابليون هذه ، الصيغة العذبة للشيخ الحكيم (لانو) :

« أن كوني جنديا أمر عظيم ، ولكنه يصبح اكثر عظمة ، أذا ما ضممت الى هذه الصفة ، صفة الحكمة ».. اذ كان يعني بهذه الكلمة توازنا فكريا ومزاجيا صحيحا .. أن هذا التوازن ضرورة الزامية ، لان الرجل الذي يستلم منصب تتجاوز مستواه ، لا يلبث ان ينحني ، وتنهار بنيته المعنوية، ويضعف تحت ثقل مهمة لا يتقنها ، فيضر بنفسه وبالمهمة ، وبالقضية ككل، لقد قال نابليون بهذا الصدد : « ان أسوأ عمل لا أخلاقي يرتكبه فرد من الافراد هو قيامه بمهنة لا يتقنها »[٧]

ومن بين الفضائل الضرورية للقائد او الآمر ، التي ينبغي أن يركز تفكيره بها ، هي الشجاعة التي تكلمنا عنها (فيما سبق)[٨] ولكن عليه تجسيدها بصيغة متميزة وخاصة هنا : وهي ان يعرف كيف يضرب المثل ، ويعلم بان هنالك طريقة واحدة فقط لتعليم الاخرين ، كيف يتلقون الموت ، بصدر رحب ، وهذه الطريقة هي : « التعرض للموت معهم ، والاقدام اليه قبلهم » .

---

(٧) الذكاء والقيم المعنوية – جان بيريه ، ص ١٩٧ .
(٨) راجع الفصل الخامس .

ومن الممكن معرفة قوة ورصانة هذه الطريقة ، في اوقات الازمات ، حيث تنتقل العيون لتتركز على القائد او (الآمر) ونستطيع ان ندرك عندئذ التأثير الذي تمارسه هيبة القائد او الآمر ، بهدوئه ، ومظهره الدال على السيطرة على النفس ، وبشجاعته الفكرية في اتخاذ القرارات الحاسمة والصائبة ، ومن ثم تنكبه مسؤولياتها .

ومن المعلوم ان هذا النوع من الشجاعة المعنوية يتطلب استقامة فكرية كاملة ، لكي يتجنب القائد اتخاذ قرارات تتلاءم مع بعض النتائج الفورية الناجحة ظاهريا ، وقد تحقق له نجاحه الشخصي ويحافظ على سمعته ، مع علمه بأنها سيئة التأثير على مجموع النتائج في المستقبل، وعليه فان الاستقامة الفكرية الكاملة ، تعني هنا ، التمسك بقاعدة سلوكية معروفة منذ زمن بعيد ، تتضمن « تفضيل المستقبل دوما على الحاضر » وهذا يتطلب دوما أختيار الابعد ، والاكثر خطرا في ضباب الشك .. وان يفكر أخيراً مع غوته ..

« أن الله لا يدفع الاجر كل اسبوع » .

ان تعداد كل الصفات الضرورية للقائد او القيادة امر غير مجد ولكن هناك اهتمامات تتطلب وضوحا فكريا ، وصفاء النفس ، ضمانا للانتصار الداخلي (فكري ونفسي) وذلك نظراً للطبيعة التناقضية لمجموعة من الصفات التي ينبغي على كل قائد حقيقي ، تحقيقها في ذاته بواسطة التركيب الفكري ، والتوازن النفسي ..

وكما نوهنا فيما تقدم ، بأن للقائد العسكري سلطة واسعة ، وأكثر اتساعا وعمقا من أية سلطة اخرى ، بسبب طبيعة عمله ، وهو قيادة الرجال الى الموت ، رغم مراوغات وتملصات غريزة المحافظة على البقاء . وعليه فأن سلطته لا تكون على هذه الشاكلة ، الا اذا بدأ بوضوح انه يمارسها ، لا لفائدة ومجد شخصيين ، بل اخلاصا لقضية تتجاوزه هو ايضا .

فالقائد الذي لا يتمتع بروح قوية ومستقيمة يتعرض للاغراء بتحويل سلطته الى خدمة طموحه الشخصي •• فيرضخ للنتائج ، لا تتطلبها المصلحة العامة ، بل تحكمها رغبة بالنجاح والسمعة الشخصية ••

ومن المعروف أن هناك نوعين من الطموح :

ومن الجدير بالاشارة ان هناك فرقا كبيراً ومعروفا منذ القدم بين الطمح والطمع •• وهذا الاخير مرفوض في كل الاحوال ، وعليه فلن نتكلم الا عن الطموح :

الاول ـ الطموح الشخصي : وهو رغبات وتطلعات شخصية مشروعة نوعا ما •• وليس مجرد من نفع عام ، وينتمي اليه في الحقيقة عدد كبير من الناس الذين يفتشون عن المكاسب ومميزات وامجاد شخصية ، ولا يصعد هذا النوع من الطموح الى القمم الا نادراً •

الثاني ـ الطموح من اجل قضية اعلى : وهذا اكثر ندرةً من الاول ، ولكن أكثر قوة ونبلا ، فهو خاص بالافراد الراغبين بالسلطة من أجل التأثير على الاحداث ولخلق عمل عظيم ••

وهؤلاء يضعون به بصماتهم على المستقبل ••

وهذا الطموح ملك لاولئك الذين يملكون روح القيادة الحقيقية •• ومن هنا يصح القول بمالا يقبل الشك : لا يمكن لفرد من الافراد أن يكون قائداً حقيقيا ، الا اذا كان عميق الجذور في شعبه ووطنه ، ويعيش بصورة كاملة أحداث مصيرهما ، حتى في احلك اللحظات المؤلمة من المعركة •• انه لا يمكن ان يكون قائداً حقيقيا الا اذا أحس في قلبه كل نبضات قلوب مرؤوسيه من أبناء شعبه •

وعلى ماتقدم ، قد يقال لنا : هل يمكن اعتبار القائد أنسانا استثنائيا••؟ ينبغي ان لا نتردد بالجواب : بنعم !•• حقا انه استثنائي ونادر ، أذا وصل

مستوى الكمال .. ولكن القطعة العسكرية مليئة بشبكة قيادة كاملة ، ومؤطرة باسلوب تسلسلي بقاده ، يعتمدون بعضهم على البعض ، عليه فأن توازن هذا البناء يعوض الى حد ما ، من عدم كمال بعض الافراد منهم ..

وكما قال دون الحمبراء[٩]

« أذا كان كل فرد شخصا مهما

فلا احد اذن شخص مهم »

فمن النادر من جهة اخرى أن نجد في فرد من الافراد كل الصفات اللازمة للقيادة الناجحة ..

ولكن كما قال المارشال مونتغمري : أن العناصر الاساسية للقيادة تكمن في الانسان نفسه .. ان قليلين من الناس يستطيعون ان يقولوا : أين تكمن المشكلة التي نجابهها ... هل ينبغي ان يكون المرء عبقريا حتى يحسن الحل ...؟. يجيب نفسه على هذا التساؤل « بالنفي » ولكن بدون تعليل او توضيح[١٠]... على عكس نابليون الذي نفى فكرة ضرورة وجود العبقرية ، ولكن لم يكن نفيه قاطعا ، ومع ذلك قدم تعليلا مقنعا لعدمضرورة وجودها دوما[١١].

ومن ناحية اخرى ، نرى ان (مونتغمري) ، يتطابق مع (ليدل هارت) فيما يخص بتعلق عمل القائد بعمل النبي[١٢].. محدداً اربع فضائل أساسية مستمدة من الايمان المسيحي .. باعتبارها فضائل صحيحة من الوجهة النفسانية ، لانها تعالج ، الفكرة ، والرغبة ، والارادة .

---

(٩) السبيل الى القيادة – مونتغمري – ص ٢٩٠ : دون الحمبراء : بطل في تمثيلية (كيلبرت وسلفان) .

(١٠) المصدر السابق (ص ١٥) .

(١١) راجع الفصل الاول .

(١٢) راجع الفصل الثاني من الكتاب .

وهذه الفضائل الاساسية الاربع هـي :ـ

١ ـ الهـدى ـ وهي عادة ارجاع جميع الامور الى الارشاد الالهي وتستند الى هذه الفضيلة ، الحكمة ، والانصاف ، وحسن التصرف .

٢ ـ العدالـة ـ وهي اعطاء كل فرد حقه ، حتى الالهة والانسان نفسـه والى هذه الفضيلة ، تستند الـواجبات الدينيـة ، والطاعـة والشكران ، وكذلك النزاهة والاستقامة ، وحسن النية .

٣ ـ الانضباط ـ وهي السيطرة على النفس لغرض تطوير الطبيعة البشرية الى ارفع المستويات وللاغراض الشخصية والاجتماعية .

والى هاتين الفضيلتـين الاخيرتـين يسـتند الطهـر والتواضع والصـبر .

٤ ـ الجـلادة ـ وهي روح التي تقـاوم ، وتتحمـل ، وتتغلب علـى محن الحياة ، واغراءاتها ، والى هذه الفضيلة تستند ، الشجاعة الادبية **والمثابرة وضبط النفس[١٣] .**

ويرى مونتغمري ان اعظم القادة في كل الازمان ، هم مؤسسو الديانات العظمى (محمـد (ص) ، المسيح (ع) وبوذا) ويلاحظ فيهم صفتين بارزتين همـا كما يقـول :

أحداهما : قـوة التركيـز :

أن من الجدير بالذكر ، ان ثلاثتهم اعتزلوا مدة معينة من الزمن في حياتهم ، والمفروض ان ذلك كان استعدادا لماحدث فيما بعد .. وكان المسيح (ع) يبقى وحيداً لمدة طويلة ، يقضيها في البرية أو في مكان آخر ..

---

(١٣) كتاب السبيل الى القيادة ـ مونتغمري ص ١٦ ، ترجمة العميد الركـن حسـين مصطفـى .

أما محمد (ص) (الذي ظهر سنة ٦٠٠ بعد المسيح تقريبا) فقد اعتزل ردحاً من الزمن (ويقصد خلوته في غار الحراء) .

أما بـوذا (الذي ظهر في نحو القرن الرابع قبل المسـيح) فقد جلس ست سنوات تحت شجرة (بوم) وهي نوع من اشجار التين البري – وقد جاءته خلال مدة التركيز هذه ، الهداية التي اهتدى بها لتأسيس دينـه ..

وتعتبر القدرة على التركيز صفة ضرورية لكل قائد ، وان التمريـن المستمر لهذه الملكة تساعده في ضبط نفسه ، انها تمكنـه من تذليـل كل مشكلة ، والكشف عن الامور الجوهرية ، التي يجب أن يبنى عليها العمـل كله ، وعن التفاصيل غير الضرورية ، وبعبارة اخرى ، تمكنه من فرز الذهب عن النفـايـة ..

الاخرى – القدرة على اتخـاذ القـرار :

أن المقدرة على اتخاذ القرار ، ضرورة اولى لكل قائد وفي حالة هؤلاء الرسل الثلاثة ، كان من الضروري لهم الوصول الى قـرار قبل ان يبـدأوا جهـادهـم[١٤].

ومن ثم يحدد (مونتغمري) بعض الصفات والفضائل البارزة للقادة، نعتقد من غير المجدي تعدادها .. مع انني كنت سأجد نفسي مضطراً لتحمل عناء تدقيق وتحليل آرائه هذه ، لو لم يكن قد أقرَّ مسبقا ، بانه ليس من السهل على جندي مثله (ومثلي أيضا) أن نـدلـي بآرائنا في مثـل هـذا الموضوع ، لذا اراني مضطراً على تركه لذوي الاختصاص ان يفعلوا ذلك، ان شاؤا ، وذلك بالرجوع الى كتابه المشار اليه (السبيل الى القيادة) ترجمة (العميد الركن حسن مصطفى) .

---

(١٤) المصدر السابق ص ١٥ .

ولكن مع ذلك يمكننا بسهولة أن نستنتج من تحليله الذي حاول فيه ايجاد نوع من العلاقة بين الدين والقيادة ، أو بينها وبين اليقين الباطني[١٥] اخفاقه في ابطال دور العبقرية على الرغم من افصاحه بذلك صراحة (كما أشرنا اليه) ذلك لان الانبياء المرسلون ، فضلا عن تلقيهم التعاليم السماوية، كانوا يتمتعون بصفات شخصية تنم عن العبقرية .. وعليه فان اقامة صلة بين عمل القائد وعمل النبي ، تعني الاقــرار ضمنيــا بالعبقرية ودورهــا فــي الشــؤون البشــريــة .

ومن ثم فأن (مونتغمري) بأعتباره مسيحيا ، يكون من حقه ان يفضل الفضائل المسيحية ويرى ضرورة تحلي القادة بها ، في حين ، يكون من حق أصحاب الديانات الاخرى ، التحلي بفضائل دينهم والتمســك بهــا ، على الاخص المسلمين منهم ، لان دينهم الاسلامي الحنيف ، اكثر الاديان كمالا وعظمة ، وكذلك الأمر بالنسبة لاصــحاب اليقــين الباطنــي ، كما يــرى هــو ذلــك ..

على أية حال ، لا يمكن لاحد ، انكار ضرورة وجود ، صفات وفضائل بارزة ومشتركة للقادة العظام العسكريين منهم وغير العسكريين ... تتربع في قمة تلك الصفات والفضائل باعتقادي صفتان ، وفضيلتان هامتان :

الاولى ــ الصفة الفكرية ، وتلاحمها بالصــفة الروحيــة ، حتى تنم عن صفة الالهــام والعبقرية[١٦] .

الثانية ــ الصفة الخلقية : التي تؤلف الفضائل الانســانية الفرديــة والاجتماعيــة .

---

(١٥) المصــدر الســـابق ص ١٥ .

(١٦) راجع الفصلين الاول والثاني ــ من الكتاب ــ للاطلاع على التفاصيل .

فبأندماج هاتين الصفتين بالفضائل الحربية ، تظهر « العظمة » عندئذ يمكننا أن نستخلص بأيجاز :

ان الصفة الفكرية والخلقية العليا مع التحلي بالفضائل الحربية (من الشجاعة العسكرية والاقدام ـ والحزم والصمود وقوى « الارادة والنفس والشخصية»)[١٧] ـ وبالفضائل الانسانية من (المثل والقيم ـ كالنزاهة ، والاستقامة ، والصدق ، ونكران الذات ... الخ) تكفي بمجملها « بأن نشعر بأنفسنا ـ العظمة » .. وايضاحا لما اعنيه في بضعة الكلمات الاخيرة هذه ... اذكر بعض الابيات من قصيدة لـ (جون درينكووتر Johen Dimkwater) في تمثيليته المسماة « ابراهام لينكولن »

فهو يقول :

« عندما نمجد الشجاعة
ونبجل الفكر الثاقب
ونعبد العظمة في الناس
اذن فنحن انفسنا عظماء »[١٨]

حكرر

فما هي اذن النصيحة التي يمكن تقديمها الى كل شخص يصبو الى القيادة .. ؟ .

« لا شيء اكثر مما تقدم »

---

(١٧) هذه الفضائل الحربية ، كانت مواضيع الفصول السابقة .
(١٨) السبيل الى القيادة ـ منتغمري ـ ص ٢٩٢ ، ترجمة حسن مصطفى .

الفصل الحادي عشر

- اثر القدر والحظ - والصدفة والشك في الحرب



الفصل الحادي عشر

اثر القدر والحظ والصدفة والشك في الحــرب

(اللهم أجعل اولادي من اصحاب الحظوظ ليخدمهم اصحاب العقول)
ينسب البعض هذا الدعاء للامام علي (كرم الله وجهه) خطـأً

١ ــ لسنا بصدد نفي أو اثبات نسبة الدعاء اعلاه الى الامام علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) ، ولا بصدد معالجة مسألة القدرية والجبرية ، لانها لا تتحاشى مع خط تفكيرنا المركزي في هذه الدراســـة ، وان كانت هناك ، ثمة علاقة خفية بينها وبين موضوع هذا البحث ، فيما يتعلق بـأثر القدر والحظ في الحرب •• الى جانب دور الصدفة والشك فيها •• هــذه العوامل غير المادية وغير الملموسة ، تأتي لتحتك بالقيم الفكرية والمعنوية في الحرب •• كما في الحياة ، فتحدد مصائر الاشخاص ، والجماعات وتعطـي للاحداث الحربية مسارات محددة نحو الاحسن او الاسوأ •••

وعندما تكون أسلحة القدر والحظ ، وكذلك دور الصدفة والشــك ضد طرف من الاطراف ، يتعرض ذلك الطرف الى صعوبات هائلة ، لايمكن له التخفيف من حدتها الا بفكر ثاقب وذكاء حاد وأرادة صلبة •• لانالظروف والحظوظ ــ الى جانب دور العقل وقوة النفس ــ صنوان لا يفترقان •

هذا ما سنتناول بحثه في هذا الفصل ، لتوجيه الانظار الى طبيعة وآثار هذه اعوامل غير المادية ، دون ان نضع حلولا جذرية ومحددة لها لان ذلك **بحاجــة الى دراســـة عميقة ومستفيضة قد تدعو الى وضع مؤلــف مستقل**

لمعالجةهذا الموضوع الهام ، لذا نترك ذلك لمن يجد في نفسه القدرة على ذلك ..

٢ ـ قال (جوميني) في الاستراتيجية :

« تقود الاستراتيجية الجيش الى النقطة الحاسمة من منطقة الحركات، تعد وتحصر لنجاح المعركة ، وتحدد نتائجها مسبقا ، غير ان بلوغ النصر ، لا يكون الا بالتعبية المتحالفة مع : الشجاعة ، والابداع ، والتوفيق » .

ونحن نود ان نقف عند الكلمة الاخيرة من هذه المقولة ، « التوفيق» لنجد ان جوميني ، وهو من اوائل الاستراتيجيين في العالم اعتبر التوفيق في الحرب عاملا من عوامل النجاح وسراً من أسرار الفشل .

وان تأريخ الحرب يحدثنا عن الكثير من المعارك ، وضعت خططها بعناية كبيرة ، وفق أسس وقواعد صحيحة ، وطبقت فيها مبادىء الحرب ببراعة ، كما وكرست لها جهوداً جبارة ، وهيأت لها المستلزمات المطلوبة من الاسلحة والاعتدة والمؤن وغيرها ، الا انه مع ذلك كان نصيب القوات الفشل ، لا لشيء الا لسوء الطالع وعدم التوفيق .

ومن المعروف ان كل قرار حربي ينبثق عن فكرة ناتجة عن المحاكمة العقلية ، سواءً كانت هذه المحاكمة ذهنية ، بوقت قصير اثناء معمعات القتال ، او بالدراسة المستفيضة للامكانات ، والمعطيات والعوامل .. هذه الدراسة التي تتم بالتسلسل المنطقي وبصورة منهجية تسمى في الاوساط العسكرية بـ « تقدير الموقف » ..

ومن المعلوم ايضا ان تقدير الموقف الحربي على الصعيد الستراتيجية والتعبية ، يبنى على مناقشة عدة عوامل ، كلها تقريبا مادية ، يجر عمل مقارنات كمية بين قوات الطرفين (فرق المشاة والدرع ، وحدات المدفعية أجنحة وأسراب الطائرات ، عدد السفن البحرية وقاذفات ومقذوفات ، (عدد

ونوع وقدرات هذه الاسلحة والمعدات) ويتم التوصل الى الاستنتاجات من مقارنة هذه العوامل ، فضلا عن تأثير الارض والانواء الجوية ، ويتضـــمن أحيانا (المعنويات) التي لا يمكن حساب تأثيرها بدقة كافية ، بل غالبا ماتدخل كعامل مضلل •• هذه هي البنية الحتية للقرار المتضمن عدد من المســالك المفتوحة للطرفين ، المحكومة بقانون الاحتمالات ، ومن الجدير بالاشارة على صعيد الستراتيجية العليا (او الشاملة)[1] تقتضي الضرورة ادخال عوامل اخرى في المناقشة ، كعامل السياسة والاقتصاد ، والتقنيــة ، والامكانــات العلمية ، لكلا الطرفين المتنازعين ، اضافة الى العوامل الآنف الذكر ••

وما من شك أن جميع الانظمة العسكرية في العالم ، تتبع هذه المنهجية، في دراسة عوامل القوى ، في عملية تقدير الموقف واتخاذ القرار ، مع عــدم اغفال قانون الاحتمالات ، والمتغيرات المتاحة لنا وللخصم ، في اختيار المسالك المفتوحـــة ••

والملاحظ هنا عدم شمول عملية (تقدير الموقف) هذه على العوامل غير المادية التي لها آثارها الكبيرة ، في تغيير مجرى الامور في الحرب •

وهذه العوامل غير المادية وغير الملموسة هي :

القدر والحظ ــ والصدفة والشك ــ في الحرب ، موضوع البحث في هذا الفصل ، المبني على اسس نظرية ، نظراً لاستحالة تحديد أثر هذه العوامل على مجرى الاحداث ، وحساب نتائجها مسبقا وبصورة منهجية •• كما أن من المؤسف ، ان تأريخ الحرب يسقط من تســـجيلاته أثر هذه الظواهــر الخارجية ، في تشخيص أسباب النجاح والهزيمة ، لذا يأتي حكمه في الغالب ناقصا وغير صحيح •

---

(۱) راجع الفصل الخامس عشر من الكتاب •

فما هو اذن أثر القدر والحظ ـ والصدفة والشك في الحرب ؟•

يبدو لنا ابتداءً ، وجود تشابه ، ونوع من العلاقة الوثيقة بين الكلمات الثلاث الأول (القدر ، الحظ ، الصدفة) وقد يكون بالامكان استخدام ، احداها مكان الاخريين ، في معظم الاحوال ••

فالصدفة الحسنة ، قد يأتي بالحظ السعيد ، والصدفة السيئة تعني تباعاً ، الحظ العاثر ، والقدر ينشر ظلاله عليهما بأعتباره قيمة عليا ••

ليس هنالك صاحب نظرية حربية عالج هذا الموضوع بجدية ، سوى ميكافلي ، الذي اشار الى مسألة القدر او الحظ ، وأثرهما في شؤون الافراد وطرق معالجته في كتابه الشهير « الامير » وقد استلهمنا فكرة بحثنا هذا فيما يخص بالقدر والحظ منه ، وكما ان لكلاوفيتز ، قصب السبق في معالجة مسألة الصدفة والشك في مؤلفه الشهير (في الحرب) وسواهما لم يتابع أحد من المنظرين العسكريين ، أثر هذه الظواهر الخارجية في الحرب، بالرغم من اهميتها وخطورة تأثيرهما في تقرير مصائر الاشتباكات (المعارك)•

ولكن ربما لدى الجميع عذر في هذا الصمت ، نظراً لاستحالة ادخال مثل تلك الظواهر ، كعوامل في تقدير الموقف ، ودراستها بصورة منهجية ، لانها عوامل غير مادية وغير ملموسة لذا فقد ترك الامر الى الموهبة لتتعامل معها وفق منطقها الخاص •

بيد انه سيكون من المفيد جداً ، على الاقل ، أن نفهم طبيعة هذه الظواهر الغريبة التي تأتي لتعقد كل الامور •• وان نضع نصب العين ، بأن الصدفة والحظ يلعبان دورهما في الحرب كما يلعبان دورهما في الحياة ، بالرغم من أن الحرب اصبحت تقاد بشكل جماعي ، يتعاون لتقييم الاوضاع فيها ، وحساب الامكانيات ودراسة الاحتمالات القائمة ، الكثير من الهيئات، والادارات والمقرات •••

ولكن ينبغي ان نعلم ، في مجال الرياضيات ، تؤدي الحسابات التـي يتم بنفس العناصر ، الى النتيجة نفسها حتماً ، ولكن في الحرب وفي مجال الستراتيجية من النادر ان نحصل عند جمع أثنين الى اثنين على رقم اربعة .

لذا فقد تحاول الدول الكبرى التي حصلت اليوم على اكبر تقـدم وضع قواعد ثابتة لاحوال غير ثابتة ، وتحاول الحصول على حرية العمل ، ضمن أطار وحدود من (المعايير) . ولكن هذا يقود الى وضع خطط ، قـد تبدو منطقية لاول وهلة ، غير انها « متناقضـة ومتعارضـة » مع آلاف التجـارب[٢].

أثـر القـدر والحظ - في الحـرب :

٣ - كتب ميكافيلي (كما قلنا) عن أثر القدر في الشؤون الانسـانية وطرق مقاومتها قائـلا :

« ان الاعتقاد السائد لدى اكثرية الناس ، بأن الاحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر ، ويتحكم فيها الحظ ... وأن ليس في وسع البشـر عن طريق الحكمة والتبصر ، تغييرها او تبديلها ، وان لا علاج لذلك مطلقا.. لذا فأن من الجهد غير المجدي ، أن يعمل الانسان شيئاً لرد ماحكم بهالقضاء، وأن عليه ان يدع الامور تجري في أعنتها وفقا لمشيئة الحظ .. واني عندما أتأمل الاحداث والتبدلات أميل أحياناً الى مشاركة اولئك الناس رأيهم ، ولكن مع ذلك اعتقد ، أن ليس في وسعنا تجاهل ارادتنا تمام التجاهل وفي رأيي ، أن من الحق أن يعزو الانسان الى القدر التحكم في نصف اعمالنا ، وانه يترك النصف الآخر او مايقارب منه لنا لنتحكم فيه بأنفسنا[٣].

---

(٢) كتاب آراء في الحرب - تأليف اكرم ديري - ص ٦٤ - منشـورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٣) الامير - تأليف نيقولو ميكافيلي - ص ١٩٠ ، ترجمة خيري حماد .

فكيف السبيل الى ذلك ••؟ وماهي طرق المقاومة المتاحة أمامنا لتحديد أثـر هذا المجهول •• فهل هي ، الحكمة والتبصر ، واتخاذ الحيطة والحذر والتعقل ، أم بالجرأة والشجاعة والاقدام والتهور •• ؟•

يجيب ميكافيلي نفسه على هذا التساؤل قائلا ••

« أن الناس يختلفون في الطرق التي يتبعونها للوصول الى مايستهدفونه دائماً من مجد واثراء ، فمنهم من يلجأ الى الحيطة والحذر ، ومنهم من يندفع ويتهور ، ومنهم من يتبع العنف ، واخرون يتبعون الحيلة والمكر ومنهم من يصبر ويصابر ، وآخرون يتسرعون ، ولكنهم جميعا قد يصلون الى اهدافهم أو لا يصـلون ••

وقد نرى شخصين حذرين ، ينجح احدهما في مشاريعه بينما يفشـل الثاني ، رغم كون طريقهما واحد ، وقد نجد من ناحية اخـرى شـخصين يصلان الى هدف واحد ، بطريقتين مختلفتين ، تنطوي طريقة أحدهما على الحذر والأناة والآخر على التسرع والمجازفة ، كل هـذا ينجم عن اختلاف طبيعة الزمن التي قد تتفق او لا تتفق مع طريقة الاجراء وينتج عن هذا كما أسلف (ميكافيلي) أن رجلين يعملان بطريقتين متباينتين يصلان الى نفس النتيجة ، بينما هناك رجلان آخران يعملان بنفس الاسلوب فينجح الاول من حيث يفشل الثاني •• وعلى هذا يتوقف أيضا التبدلات في النجـاح والتوفيق •• وفي الحرب «الانتصار» فقد يكون عوامل الزمن والظـروف ملائمة لرجل او لطرف من أطراف النزاع ، يعمل بحذر وحسن تبصر ،فيلقى النجاح ، ثم لا يلبث أن تختلف عوامل الزمـن والظروف ، فيلقى الهزيمـة ويتحطم ، لانه لم يغير طريقته في العمل وفق متطلبات الزمن والظروف ، ولم يحدث قط ، ان وجد انسان على هذا القدر من التعقل والروية ، بحيثيكيف نفسه لجميع هذه العوامل ، أما لانه ، لا يستطيع الانصراف عما يميل اليـه طبيعته ، أو لانه ، قد ألف النجاح من السير على طريق واحد ، لا يستطيع

أقناع نفسه ، أن من الخير له أن يتركها ، لذا فان من تعود على الحذر والأناة، يرى نفسه عاجزاً عن تكييف اعماله ، عندما تقتضي الضرورة السرعة، فيلحق به الدمار والخراب •• حتى أذا كان بأستطاعة الانسان أن يغير طبيعته وفقا لتغيير الازمنة والظروف ، فان القدر لا يتغير أبداً[٤]» •

ان مايصح لشؤون الانسان الفرد ، في مفردات الحياة يصح أيضـــا لشـــؤون المجتمعات البشرية ومفردات الاحداث التي تمر عليها •• والحرب كما هو معلوم تعتبر احدى تلك الاحداث الهامة في حياة المجتمعات والافراد•

فعلى هذا الانطباق والتشابه بين حياة الافراد والمجتمعات يتشابه أثر القدر والحظ في الشـؤون الانسانية ••

ويتابـع (ميكافيلي) كلامه فيما يتعلق بطرق معالجة هذا الأثر وهو يقـــول :

« وأخيراً فأن الحظ يتدبل ، أما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم ، وهم ينجحون ، طالما ان اساليبهم تتوافق مع الظروف ، أما عندما تتعارض ، فأن الفشل سيكون من نصيبهم ، وأحياناً نجد بان التهور خير من الحذر ، ذلك لان الحظ كالمرأة ، تميل الى السماح بأمتلاكها للرجل الشـــجاع ، لا للرجل الذي يسير بتمهل وأناة •• والحظ في الحرب ، كما في مفردات الحياة، شأنه في ذلك شأن المرأة ، تميل دائما الى الشباب ، لانهم أقل حذراً ، واكثر قـــوة وضراوة واقدامـاً»[٥] •

ومن هنا يمكننا أعتبار الجرأة والشجاعة ، والاقدام ، والصـمود ، أســمى فضائل الحربية وبفضلها يمكن أحتجاز الحظ في جانبنا مع عـــدم امكان ادخال تأثيره في حسابات صنع القرار وتحديد نتائجه مســبقا كما بينـاه فيما ســبق •••

---

(٤) المصدر الســابق ص ١٩٣ •

(٥) المصدر الســابق ص ١٥٩ •

أثـر الصـدفـة فـي الحـرب :

٤ - وقد قلنا فيما تقدم : انه ، ليس هناك صاحب نظرية في الحرب عالج موضوع الصدفة والشك كما عالجه (كلاوزفيتز) ، الا انه مع ذلـك لم يضع أسساً وقواعد عامة صالحة للتطبيق لغرض التعامل مع هذه الظواهر كما لم يقدم حلولا جذرية لها ، وعليه فأن نظريته عن الحرب ، فيما يخص بـ (الصدفة والشك) أقتصرت في الغالب على بيان طبيعتهما ، ولكن بأيجاز رائع ، ومن ثم رمى ، أمر معالجتهما على عاتق الموهبة والعبقرية ، بالتعويل على قانون الاحتمالات ... وهذا مافعله الاخرون من بعده ، وكان لديهـم جميعاً عذراً في ذلك ، كما ذكرنا .

وقد قـال (كلاوزفيتز) ما يلي :-

« أن الحرب مجال واسـع للصدفة ، وليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكانـاً فسيحاً لهذه الظاهرة الغريبة كالحرب ، أذ ان المجالات الاخرى ، لا تحتك كالحرب مع الصدفة في كل لحظة ، ومن المؤكد ان الصدفة تزيد ضـباب الشـك في جميـع الظـروف ، وتعرقـل سـير الاحـداث »(٦) .

وفي مكان آخر يقـول :

« أن تعدد العلاقات وغموضها ، وعدم استقرارها في الحرب تـدخـل في الحساب عدداً كبيرا من العوامل المتباينة التي لا يمكن تقويم معظمهـا الا بناءً على قوانين الاحتمالات ، فاذا لم يتمتع الشـخص العامـل ، بقوة البصيرة اللازمة لكشف الحقيقة العامة ، نجم عن ذلك ، فوضى في الافـكار والتقديرات لا حل لها ، وما أن يجد المرء نفسه وسط هذه الفوضى حتـى يعجز عن ايجاد فكرة تساعده على تحديد موقعه وسط مجموع الافكار ..

---

(٦) المؤلف في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١١٩ تعريب اكرم ديري والهيثم الايـوبي .

لقد قال كلاوزفيتز في هذا الصدد : نقلا عن نابليون :

« أن كثيراً من القرارات التي يطلب من القائد الحربي اتخاذها ، لــو تحولت الى مسائل رياضية ، لطرحت معضلات تستحق ان يدرسها نيــوتن وأولــر »[٧].

وأخيراً يشكل عدم صحة المعطيات صعوبة خاصة في الحرب ، لان كل عمل يتم في جو من العتمة ، ويصبغ الاشياء غالباً بطابع غامض ويعطيها حجماً مبالغا فيه ، ومسلكا غريبا ، وينبغي ان تعوض موهبة التنبــؤ ، او نــزعــة التسليم للاقدار ، عن انعدام الرؤية التي تسببها هذه الانارة الضعيفة، وهنا ينبغي علينا ايضا ان نعتمد على الموهبة الخلاقة وعلى منحه الصدفة في غياب التعقل الموضوعي[٨] .

هذا هو مجمل افكار كلاوزفيتز عن الصدفة في الحرب .

واذا اردنا التفكير بعمق اكثر ، في الصدفة ، وفن استخدامها ، فــأن علينا ان نعيد قراءة (باسكال) ، حسب نصيحة (جان غيتون) الذي يقول:

« لقد كان طموح باسكال (أمير الاحتمالات) القضاء، قدر الامكان على مانسميه (من وجهة نظر انسانية وذاتية) ، الصــدفــة السيئة والحظ العاثر ، الهزيمة ، واللعنة ، ونظراً لاننا لا نملك معلومات وان علينا رغم ذلك ان نعمل ، وان نراهن بالتالي ، ولنراهن ولكن ليكن رهاننا بضربة واثقة ، والمثل الاعلى لمهندس الصدفة (باسكال) هو تحديد رهان يستبعد منــه عنصر الخطر »[٩] . واني اتسأل كيف يمكن اســـتبعاد عنصر الخــطر من العمل الحربي وهو مشبع بالمخاطر ؟.

---

(٧) نفس المصدر ص ١٣٤ ، الجزء الاول ــ الكتاب الثاني .

(٨) نفس المصــــدر ص ١١٥ ــ الجزء الثالث ــ الكتاب الثامن .

(٩) الفكر والحرب ــ جان غيتون ص ١٠٣ــ١٠٤ منشورات المؤسسة العربية للدراســــات والنشــــر .

وليس من المدهش ، ان فن استخدام الصدفة لقهر الصدفة ، والتغلب عليها ، بأخضاعها لمشروعاتنا ، يجد تطبيقه في العمل الحربي ، وان اكتشاف وسيلة توجيه مصادفات الحرب لصالحنا في ظرف من الظروف هو الرغبة الغامضة للرجل الحربي عند قيامه بحساباته ..

وأذا اردنا ان نطرح المسألة بصورة اخرى ، نقول :

هل توجد في مغامرات الحياة ، كما في مصادفات الحرب ، تدابير معينة جيدة نسمح لنا بالقضاء على الفشل ..؟. وهل بوسعنا السيطرة على الصدفة.. بمواقف ومسالك مضادة للمصادفات ..؟ .

يرى (جان غيتون) في معرض اجابته على هذه التساؤلات ، ان مثل هذه التقنية (ان كانت موجودة) فهي تهم (السبيرنيطفي)[١٠] سواءً كان رجل حرب او رجل سياسة ، ولكن ما أندر المفكرين العسكريين الذين واجهوا هذه المسائل بجدية وعقلانية أن « القادة الكبار » و « كبار رجال السياسة » يحلون مثل هذه المسائل دون حساب واضح ، واعتماداً على الحدس وحده . هكذا (غيتون) يعود بنا الى نقطة الصفر الى النقطة التي اشار اليها كلاوزفيتز قبله بحوالي قرنين من الزمن . عندئذ يكون من الطريف حقاً ان تتطلع الى رأي نابليون في هذه المسألة : وقد قال بعمق ووضوح للسيدة دو ريموزا[١١] .

« يشتمل العلم العسكري على حساب كل الفرص في بادىء الامر بصورة جيدة وحساب حصة الصدفة بالضبط بصورة شبه رياضية ، وينبغي 'ن لا نخدع أنفسنا حول هذه النقطة ، فبوسع جزء عشري صغير زيادةً أو

(١٠) السبيرنيطيقية — هو العلم الذي يدرس ميكيانيكيات الاتصال والتوجيه الالات ولدى الكائنات الحية — حاشية ص ٩٦ — نفس المصدر .

(١١) الكونتسية دو ريموزا (١٧٨٠ — ١٨٢١) الفت كتابا عن ذكرياتها في قصر نابليون ، حيث كانت تعمل كوصيفة شرف .

نقصاً ، ان يبدل كل شيء ، غير ان هذا التقسيم بين العلم والصدفة لايمكن ان يستقر الا في رأس رجل عبقري ، لاننا نحتاج الى العبقرية في كل مكان نريد ان نبدع فيه ، ان اكبر ابتكار للفكر البشري هو الابتكار الذي يعطي وجوداً لما لا وجود له . وتبقى الصدفة اذن لغزاً دائماً بالنسبة الى المفكرين الضعفاء ، وحقيقة بالنسبة الى رجال المتفوقين »[١٢].

ولكن هنالك رأي آخر يقول : ان الفكر المتوسط والصدفة ، قادران على الانقاذ اكثر من العبقرية .

فاذا كنا ولا نزال ، مجبرين على قراءة عموميات سطحية وفارغة أحياناً ، ومخطوءة أحياناً اخرى حول آثار عامل الصدفة في الحرب ، كما في الحياة ، ينبغي علينا ، على الاقل ، ان نقبل ، بأن في تعقيدات الحياة ، واكثر منها في ملابسات الحرب من المصادفات التي لا يمكن السيطرة عليها سيطرة كاملة ، ولا يعني هذا عدم امكان العمل على التخفيف من وطأتها ، والتقليل من شدتها ، قدر المستطاع ، ذلك باتخاذ تدابير مضادة للمصادفات ... (تطبيق مبدأ الامن ، واتخاذ تدابير الحيطة والحذر ، او ممارسة النشاطات حربية ايجابية من الشجاعة والاقدام ، الحزم والصمود ...) مع دراسة الاحتمالات ووضع حلول تبادلية مسبقة لكل احتمال من الاحتمالات القائمة ولكل موقف من المواقف ... ولن نتكلم هنا عن احكام القدر والحظ وتحالفهما ، او تسخيرهما للصدفة ايجابا لصالحنا أو سلبا ضدنا ، ففي هذه الحالة الاخيرة ، ليس لدينا ، سوى التعويل على الموهبة الخلاقة والعبقرية الفذة او الخضوع الى نزعة القدر .

---

(١٢) من نابليون الى السيدة دو ريموزا ــ ذكرها مالسيميليان فوكس في « محادثات نابليون بونابرت » حاشية ص ١٠٩ ــ الفكر والحرب ــ جان غيتون .

أثـر الشـك في الحـرب :

٥ ـ ان الشك زائر مستمر ، ثقيل الظل ، يزاحم أفكارنا في الحرب ، ويسبب لنا كثيراً من الازعاج •• وهو يحتك بالمعلومات التي تأتينا خـلال الحرب ، والتي تتصف بأنها غالبا ما تكون متناقضة وخاطئـة ، تكتنـف معظمهـا الشـكوك •

ونحن بحاجة الى المعرفة بيقين ، او على الاقل بوضوح ، ولكن نادراً ما يكون ذلك ممكناً • فنحتاج الى وقت طويل ، وتقتضي الضرورة الى تأجيل العمل ، فيزداد ضباب الشك اكثر ، وكما انه ليس دائماً من الممكن ان يؤجل كل شيء الى المستقبل ، وغالبا مانجد انفسنا في الحرب ، مضطرين على العمل فـوراً •• لذا علينا ان نعمل وسط شك من صحة المعلومات التي تـكونت لدينا ، كما لو اننا واثقون من معارفنا ••

وهذا يعود بنا الى القول بان الانسان نظراً لانه كائن عاقل يعيش على الاحتمالات في معرض الشكوك ، عليه ان يعمل في جو من العتمة ووسط ظـلام ، بلا وضـوح •

هذه المفارقة تلقي بظلها علينا في حياتنا ، في الامور الصغيرة والكبيرة، وتصل الى اعلى نقطة في الحرب • وقد قال (كلاوزفيتز) ذلك بعبارات رائعة في أيجازها « ان القائد الحربي يعيش ويقرر وسط ضبباب الشك ، وهـذه هي مهنته » •• وكل مايطلب منه في هذا الصدد شـيئاً من التمييز الـذي لا يتم الحصول عليه ، الا بفضل المهارة المهنية ، والنفسـية ، والقـدرة على الحكم ، وعليه الاعتماد على قانون الاحتمالات •• وهذه الصعوبة لا يمكن تجاهلها ، عندما يتعلق الامر بوضع خطط اولية ، موضـوعة في مكاتـب الاركان ، وخارج نطاق ميدان الحرب نفسها •• وتزداد هذه الصـعوبـة بشكل واضح عندما تتوالى المعلومات بصورة سريعة خلال معمعان القتال•• وتضطرنا الظروف لان نستنتج منها قراراً سريعاً ، لا يلبث ان يظهر سخفه،

مادامت المعلومات في معظمها كاذبة ، او خاطئة او مبالغ فيها ، وباختصار ان معظم المعلومات خاطئة ، لان معظم الناس ميالـون الى المبـالغـة في تناقـل الاخبار السيئة ، والجميع ميالون عادة من جانب آخر ، الى تصديق الاخبار السيئة ، قبل الاخبار الحسنة لدرجة تجعل الاخبار المتناقضة تتلاطم فـوق بعضها بلا انقطاع كأمواج البحر ، ثم تنعكس لتعود كهذه الامـواج دون سبب واضح على حد قول كلاوزفيتز ..

وهنا ، ينبغي على القائد ان يقف صامداً كالصخرة التي تتحطم عليها الامواج[١٣]. ويحول تلك المعلومات المتناقضـة الى احتمالات ، ويفـكر بالحلول التبادلية مع التمسك بالافكار المسبقة .

على ذلك نجد ان النصائح التي يقدمها الاستراتيجيون في معظمهـا تتعلق بالاحتمالات ، ولا شيء قطعي عندهم لنا ، ومن نصائحهم على سبيل المثـال :

المطلوب من رجل الحرب ان يكون جريئاً ... وأن يتقدم الاخرين.. ويبقى حازماً في قراره .. وأن يبقى واثقـا من نفسـه .... فالغرض من هذه النصائح او (الحكم) هو ردم الهوه بين الفكر والعمل ...

الفكر الذي لا يرى الا الاشـياء الممكنة والـذي لا يبلغ الموضـوع التـام أبـداً .

والعمل المطلوب انجازه في جو من التردد والشك . وهذا يعني انـه مطلوب من القائد أن يعمل كما لو انه واثق من نتيجة عمله ، مع انه يعمـل في الحقيقة وسط هاله من الشكوك من ضمان النتيجة ، أي بعبارة اخرى ، عليه ان يكتفي بالمراهنة (كما يقول باسكال) مع الايمان بالربح ، وهـذا الآمر كما هو معروف ينطوي على احتمالين بدلا من احتمال واحد .

---

(١٣) في الحرب ـ كلاوزفيتز ـ الجزء الاول ـ الكتاب الثاني ص ١٦٨ .

وبما ان الفكر البشري ينفر من مفهوم «المحتمل» لانه يسبب حركة قلقة ذاتية للفكر ، ذلك لانه لا يرد على السؤال ، بنعم او لا .. ولا يحدد الخطأ والصواب ، وعليه يعيش الانسان وسط احتمالات في كل اعماله ومشاريعه (امامه في المشروع او الامتحان ـ الفشل والنجاح ـ وفي المخاطرات : النجاة او الموت ـ في التجارة . الخسارة او الربح ـ وفي الحرب : النصر او الهزيمة ... الخ) .

وقد طرأ بعض التقدم عندما انتقلت الاستراتيجية الى حساب الاحتمالات[14]، واصبحت تسعى الى بلوغ ماوراء ارادة الخصم ، أي بلوغ فكره ، معلوماته ، فرضياته ، وحتى الصورة التي يتخيلها عنا .. وذلك بغية خلق صبغة كاذبة ومظهر مخادع ، لانه هو بدوره يحاول القيام بذلك بالتأكيد .. عندئذ تتعقد المسألة ، فتنشأ اوهام وشكوك متبادلة لدى الطرفين . لان الحيلة والخدعة والمراوغة كلها سلوك يزيد من ضباب الشك، وأهوال الاوهام ، على هذا استمدت الستراتيجية اسمها من الكلمتين (الحيلة والخدعة)[15] .

وكما أن الخطر ومنظر الالم في الحرب ، يثير مشاعر عنيفة ، تسيطر بسهولة على القناعات الفكرية ، فالصعوبة تكمن ، عندئذ ، في أن عليناالتمسك بكل صلابة بنتائج التفكير السابق ، رغم الاحكام والظواهر المتناقضة التي تظهر أثناء العمل ، ففي هذه الحالة لا يفيدنا الا أمران : الثقة بالنفس .. ودرجة معينة من التشكك ، على أن يقودنا ذلك على اعتبار ، الاصرار في حالة الشك مبدأ عام ، يجب التمسك بوجهة نظرتنا الاولى ، ولا يجوزالتخلي

---

(١٤) لقد وجد ارسطو (الاحتمال) وسيلة لدخول المنطق . وقد أخذ حساب الاحتمالات الذي كان (باسكال) يسميه (هندسة الصدفة) يزداد دقة منذ عهد ليبنيز وبرنوسي وبوريل وفون نيومان ، وكل السبيرنيطقيين. ص ١٠٠ ـ كتاب الفكر والحرب ـ جان غيتون .

(١٥) راجع الفصل الثامن عشر من الكتاب .

عنها الا أمام قناعة تامة وواضحة جداً ... تماماً كما ان الايمان بالحقـائق السامية لا يتزعزع كمبادىء أكيدة ، تثبت صحتها مدة طويلة من الزمن ، يجعلنا ان نفهم بأن الظواهر العابرة ، تبقى رغم قوتها ، اضعف من المبـادىء أي ان الاخلاص للقناعة المسبقة في الحالات التي يكتنفها الغموض والشـك يكون كافياً لاعطاء تفكيرنا ثباتاً واستمراراً .

٦ ـ وفي نهاية هذه اللمحات السريعة والقصيرة ، لبحث طبيعة، وآثار هذه العوامل غير المادية (القدر والحظ ـ الصدفة والشـك) يمكنني ان افصح دون ان يمنعي الخجل ، بأنني لم افدم في هذا البحث حلولا جذرية ومحددة لمعالجة تلك الآثار التي تطرأ على الامور وتعقدها وتحتك بالافكار وتبلبلها في غياب الموهبة والعبقرية ، وانها تأتي لتلعب دورها في الحـرب بشكل اعمق واعنف وأوسع مما تلعبه في الحياة .. مما يقودنا في الحـرب الى اتخاذ قرارات قد تبدو منطقية ولكن ، لا يلبث أن يظهر عدم جدواها، بسبب ظواهر خارجية ، فلا يبقى لنا آنئذ سوى الاعتماد على المـوهبـة الخلاقة ، والارادة الصلبة ، او على المنحة التي تقدمها لنا تلك العوامل نفسها، عندئذ تقل أهمية دورنا الى حد كبير ، ولكن دون أن نعترف لها هذا الجميل، بل غالباً ماتتناسى ، وتتنكر لها فضلها علينا ، فنرجع اسباب النجاح والانتصار الى حكمتنا وتبصرنا ولحسن تصرفنا ، ودقة حساباتنا للعوامل المادية .. في حين ، عندما تتغير الظروف وتتحول عنا منحة الحظ والصدفة والقدر ، نمد لها أصبع الاتهام ، ونحملها مسؤولية الفشل والخذلان ..

ولكن ذلك لا يجدي لنا نفعاً ، في تبرير موقفنا والتنصل من تبعة الفشل والهزيمة ، أمام الرؤساء في المستوى الاعلى ، لان هؤلاء بدورهم قداسقطوا من حساباتهم دور هذه العوامل غير المنظورة ، عندئذ يجري التدقيق، ويتم تأويل النجاح الى حسن التوجيه والادارة على الصعيد الستراتيجي ،والفشل يلحق ذمة التعبية .. ولا يشفع لها الالتماس بسوء الطالع والحظ العـاثـر والصدفـة السـيئة ..

على ذلك يكون من الانصاف وبحق ، أن يؤخذ دور هذه العـــوامل وتأثيراتها الايجابية والسلبية ، كلما دعت الضرورة الى تدقيق ســـجلات التأريخ لاستنباط الدروس منها • وتدقيق الاعمال خلال الحرب لكي نكون على البينة من ان تقدير العوامل المادية قد تم بصورة صحيحة ام لا ••• ومن ثم أرجاء الآثار الاخرى الى العوامل غير المادية التي لا حول لنا تجاهها ولا قوة سوى الركون الى الموهبة الخلاقة والارادة الصلبة ، او الاعتراف أخيراً بنزعة التسليم للاقدار ومنح الحظ والصدفة ودور الشك في الحرب كما في الحياة ، ولان الحرب في حد ذاتها قدر الهـي ••

الجزء الثاني

ـ الفكر والنظرية الحربية



الفصل الثاني عشر
الفكر ــ والنظرية الحربية

١ ــ تحدثنا في « الجزء الاول » عن الفكر والحدث ، والحرب كحدث من اعظم الاحداث التي تطرأ على حياة المجتمعات البشرية ، وتهز الأسس من جذورها ، وألمحنا بالعلاقات العضوية القائمة بين الفكر والحدث، وأسبقية ولادتهما ــ ومن الذي يقود الآخر ، الفكر ام الحدث ؟•• وتطرقنا لخصائص الفكر العليا المطلوبة في الحرب ، ووظيفته ، وطبيعة المعارف الضرورية وغذاء الفكر •• كما واشرنا الى ان الستراتيجية ، أصبحت ، منذ مدة ، تهتم بدراسة الحرب كفكرة ، اسوة ً بالسياسة ، والاقتصاد ، والتشريع والفنون ••• وكحدث يستمد قوته من الفكر ، لذا ركزنا على ابراز أهمية ودور القيم الفكرية لاسيما عند تلاحمها مع القيم الروحية ، والمادية •• وعلاقاتها ايجابا أو سلبا وبعناصر القيم المعنوية (الفضائل الحربية) من (العبقرية الحربية ، والشجاعة العسكرية ،والاقدام، والحزم والصمود ، وروح القطعة والقيادة)•• هذه الفضائل الضرورية لانجاز النشاطات الحربية المختلفة ، وتحمل اعباء والآم ، واتعاب ذلك النشاط الدموي العنيف ••• كما والقينا بصيصاً من النور على طبيعة وآثار العوامل غير المادية (القدر ، والحظ ــ والصدفة) وأهميتها في الحرب •

بقي علينا ان نتناول في هذا الجزء (الثاني) دراسة النظريات الحربية والستراتيجية من زاوية علاقتهما بالفكر والعمل •

النظرية الحربية وعلاقتها بالفكر :

٣ ــ ما النظرية (كل نظرية) ، سوى رؤية فكرية موجهة لكشف طبيعة الاشياء وآثارها والقوانين التي تحكمها ••• وان اول مهمة لكل نظرية من النظريات ، هي ترتيب الافكار والمفاهيم المتشابكة والغامضة في بعض الاحياالاحيان ، بل في معظم الاحيان • وعندما يتم الاتفاق على معنى التعابير

والمفاهيم ، عندئذ ، يمكن التقدم ، بسهولة ووضوح في تحليل المشكلات... وعلى سبيل المثـال :

« أن الستراتيجية (السوق) والتعبية (التكتيك) فعاليتان متداخلتان في القتال من حيث المكان والزمان ، مع اختلافهما عن بعضهما أساساً ، ولا يمكن فهم قوانينهما والعلاقة القائمة بينهما دون تعـريف دقيـق لهـاتـين الفعـاليتـين »[1]

٤ ـ فاذا كنا مجبرين في بعض الاحيان على قراءة ، وسماع ، عموميات فارغة ، وسطحية أحياناً ، وغير صائبة أحياناً اخرى ، عن حقيقـة مجريـات الحرب ، يحصل ذلك ، لان ادارة الحرب لم تكن موضوعاً لاستقصاء علمي الا فيما ندر ... ولان ادارة الحرب الحقيقية لم تظهر ، الا بشكل عارض، ومجهول .. أي ان الادارة الحقيقية للحرب ، والاستخدام الصحيح والدقيق لوسائط معينة والتلاءم للمطالب الخاصة لكل موقف من المواقف ، بقي لمدة طويلـة من الزمن خارج كل نظريـة ، وعلق على الاسـتعدادات الفطرية للافـــــراد[2] .

ثم انتقلت الحرب بصورة تدريجية ، وببطء ، من قتال القرون الوسطى بشكله البدائي البسيط ، الى شكل اكثر تعقيداً ، واشد تنظيماً ، حتى اصبحت موضوع تفكير المعنيين بالحرب .. ولكن هذه الامور ظهرت فـي معظـم الوقت بصـورة ثانوية وغامضة ، دونت على شكل مذكرات وقصص حربية، أتسمت عادة بالمبالغة والتهويل والتشويش .

ولكن التأملات في حوادث الحرب ، قد خلقت الحاجة للنظرية ولقـد أحس المفكرون بالحاجة الملحة للاعتماد على مبـادىء وأسس وقواعـد ،

---

(١) في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ـ الكتاب الثاني ص ١٥٨ .
(٢) نفس المصـــدر ـ ص ١٦٣ .

للتوصل الى استنتاجات معينة ، بالاستناد الى النقاش الطبيعي في تقنين التأريخ العسكري وفق قواعد معتمدة ، ولما أزدادت التأملات في أحداث الحرب غزارة ، أتخذ التاريخ بالتدريج طابعا علميا دقيقا الى حد ما ...

صعوبات النظرية الحربية :

ه ـ وكما بينا ، بذلت جهود كبيرة ، عندما ازدادت التأملات في احداث الحرب لوضع مبادىء وأسس وقواعد ، واساليب متعلقة بأدارة الحرب ، غير ان الفكر البشري تعرض الى صعوبات هائلة ، قدمتها له أدارة الحرب في هذا المجال ، لان لكل اسلوب ولكل نظرية طبيعة محدودة ، الامر الذي يخلق صراعا أبدياً بين النظرية والتطبيق العملي[٣].

وهكذا برزت امام النظرية صعوبتان :

أ ـ الاولى : عندما أحس صانعو النظرية بصعوبات الموضوع ، بحثوا لهم عن ملاذ منها ، فوجدوا ذلك في الاقتصار على ايجاد مبادىء وقواعد للمعطيات المادية للحصول على نتائج مؤكدة وايجابية ، لذا فأنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار ، الا ، المعطيات التي يمكن حسابها . (كالتفوق العددي ، وتمرين القطعات ، والتحشد ، والامن ، وحساب الوقت والمسافة ... الخ) واغفلوا ، بل لزموا الصمت ازاء ايجاد قواعد وأسس ، تحكم العوامل غير المادية .. الفكرية والمعنوية .. لان محاولاتهم لا تقدر ، الا ، الارقام المادية ، مع ان العمل الحربي مشبع كل الاشباع بقوى وآثار فكرية ومعنوية ....

وعندما تناولت النظرية دراسة القيم الفكرية والمعنوية برزت أمامها صعوبة اكثر تعقيداً واشد استحالة للسيطرة عليها ، وحساب نتائجها ، وهذه الصعوبة كامنة في آثار القدر والحظ ـ والصدفة والشك في الحرب،

(٣) المصدر السابق ـ الكتاب الثاني ـ الفصل الثالث ص ١٦٨ .

مع ان الحرب مجال واسع للاحتكاك بمثل هذه العوامل غير المادية وغير الملموسة •• فأزدادت الصعوبات امام منظريها •• فالرسام والبناء، يعرفان جيداً ماذا عليهما ان يفعلا ، طالما انهما لا يواجهان الا « المادة » ضمن اطار فنهما ، ولكن مجال الحرب ، لا يتضمن مواجهة المادة فقط ، لان النشاط العدواني ، لا يوجه ضد المادة وحدها في الحرب ، بل يوجه في الوقت نفسه ضد القوى المعنوية والفكرية كما اسلفنا ، ولكننا لا ندرك القيم المعنوية والفكرية ، وكذلك أحكام الحظ والصدفة ادراكا يقينياً ، لذا تتعرض الرؤية الفكرية (النظرية) الى صعوبات وأخفاقات لا حد لها ، عندئذ، تبقى التجربة وحدها ، فاتورة أثبات الحقائق المادية ، ولكن ينظر اليها بعين واحدة، لان الثانية ستستمر مغمضة عن رؤية آثار العوامل غير المادية •• اذن،ينبغي على النظرية ان تقدر طبيعة العوامل ، وتتحذر من غير الملموسة وغير المادية منها ، تماما كما ينبغي عليها تقدير الغايات والوسائل ، وتنير الحدود الفاصلة بين الوسيلة والغاية ••

وهذا اصعب الصعوبات ، يتعرض له الفكر البشري في الحرب•

فاذا كانت القواعد والمبادىء التي تكون دعائم النظرية التي تتطلب تبني وجه نظر معينة ، عندئذ ، تصبح النظرية ممكنة وقابلة للتطبيق •

الثانية ــ أن الصعوبة الثانية التي شمخت أمام النظرية ، نشأت ، من دراسة طبيعة الحرب ، طرح خلالها صانعو النظرية السؤال التالي على انفسهم :

« هل الحرب علم ، أم فن ، أم مهنة ؟•• »

تطلب البحث عن الجواب لهذا التساؤل الى تحديد معان التعابير الثلاثة ، ولكن ليس هناك من اجماع على تحديد معان التعابير المذكورة، تماماً مثلما لا يوجد اجماع على استخدام هذه التعابير ••

ونجد أن (كلاوزفيتز)[٤] يورد تعريفا لكلمتي « علم » و « فن » قائلا « نحن نستخدم كلمة « علم » عندما يكون الهدف الوصول الى المعرفة وكلمة (فن) عندما يشتمل على القدرة ، اذن هناك فرق بين (المعرفة والقدرة) ••• ويقدم تفسيراً لتعريفه هذا مضيفاً اليه : ان المعرفة بالامر شيء والقدرة على فعله شيء آخر •• فالامران مختلفان لدرجة لا يجوز ان نغامر بالالتباس فيما بينهما ، ويكون من المنطقي المحافظة على هذا التفريق بينهما ، واطلاق اسم (فن) على كل مايستهدف قدرة خلاقة كالفن المعماري مثلا •• واسم (علم) على كل ما لا يفترض الا المعرفة ، كالرياضيات وعلم الفلك •••• وفي مكان آخر من مؤلفه (في الحرب) كرر قائلا ••

ان مجال الابداع والانتاج هو مجال الفن ، ولكن عندما يستهدف ، « البحث والمعرفة » يسود العلم •• ويستنتج من كل ذلك ، ان استخدام وتسمية « فن الحرب » افضل من استخدام تسمية (علم الحرب) ثم يعود ويقول « ولكننا لن نتردد عن التأكيد بان الحرب ليست فناً أو علماً، بالمعنى الصحيح للتعبير نفسه •• وانطلاقا من هنا ارتكبنا خطيئة كانت سبباً في تمثل الفنون والعلوم الاخرى للحرب ، الامر الذي أتاح المجال لمجموعة التشبيهات الخاطئة » •

وكما يعترض على فكرة اعتبار الحرب (مهنة) ويقول بهذا الصدد « ليست المهنة الا فناً من درجة ادنى ، وعليه فأن اعتبار الحرب مهنة ، يجعلها خاضعة لقوانين اكثر دقة وجموداً »[٥]

والجدير بالاشارة قبل الانتهاء من استعراض افكاره في هذا الموضوع الى ، انه يقسم فن الحرب في نفس المصدر الى قسمين :ـ

---

(٤) المصدر السابق ـ الكتاب الثاني ـ الفصل الثاني ـ الصفحات من ١٧٦ ـ ١٧٩ •

(٥) المصدر السابق ص ١٨٠ •

الاول ـ فن استخدام الاسلحة المختلفة المتوفرة في كل عصر من العصور ..

الثاني ـ فن ادارة الحرب ....

والحقيقة ان فن الحرب ، من ناحية اخرى ، هو القدرة على التعامل مع كل النشاطات التي تقتضيها الحرب ، ومنها عملية بناء القوات المسلحة، التي تتضمن ، التجنيد ، والنفير ، والتسليح ، والتجهيز والتدريب،والتنظيم.

فعلى النظرية أن تغطي كافة تلك النشاطات ، وفق القواعد ، ولكي تكون قابلة للتطبيق ، يجب ان تكون شاملة ، ذلك لان القتال يتضمن عدة اعمال متميزة بعضها عن البعض ، ولكن جميعها ، تشكل عملا واحداً ، فهذا يتطلب وجود فن يشتمل على الترتيب والتنظيم وادارة القتال وتنسيق الاعمال لغرض قيادة سير الحرب ..

٣ ـ ولكن (جان غيتون) ينظر للمسألة من زاوية اخرى ، ويقدم تعريفاً لتعبيري « علم وفن » وتفسيراً يمد الانظار نحو قيم عليا ـ ما وراء الطبيعة ـ الى الميتافيزيقيا ـ اذ يقول : ان العلم والتقنية والسياسة ،
الطبيعة ـ الى الميتافيزيقيا ـ اذ يقول : ان العلم والتقنية والسياسة ،
والاستراتيجية في الحرب ، ليست الا وسائل لتقرب المرء من غرضه النهائي، وهو امتلاك الحقيقة ، والتمتع بها ، وهذا ماكان يسميه الاقدمون«الحكمة».

وهناك فرق قائم بين العلم والحكمة معروف منذ القدم . فالعلم : يقتصر على المعرفة الشفافة ، أما الحكمة فهي فن السعادة والسمو رغمالآلام، والهدوء ورباطة الجأش في حالات الفشل ، وبين العلم والحكمة ، يقف « الفن » وهو مركب من العلم والحكمة . لانه الممارسة المستندة الى المعرفة ..

وان فن الحرب تقنية تستهدف الخير رغم الالم الذي يسـببه موت الالوف ، لان هدف الحرب الحقيقي ، هو انقاذ الشعب الذي يخوضها ، وتجنبه الهزيمة الجذرية التي تأتي من خسارة الاسـتقلال والانتقاص من الحـريـة[٦].

وقد يستشف من افكار (غيتون) هذه بان هدف الحرب هو امتلاك الحقيقة والتمتع بها ، فهي فن السعادة ، والسمو رغم الآلام — والفن مركب من العلم والحكمة ، وبهذا يرفع الحرب فوق دعائم ثلاث — (العلم والحكمة والفن) — أي انه يستنتج بهذه الصورة من الحكمة (الهدف) ومن العلـم (وسـيلة) ومن الفن (الغاية) وهي النصر ، وامتلاك السعادة ٠

٤ — فاذا مافضلنا تجنب المفاهيم الفلسفية لمعان واسـتخدامات هـذه التعابير وبحثنا عن تعاريف مبسطة لها وجدنا ذلك في كتـاب « بحـوث ودراسات عسكرية »[٧] وهي كما يلي :—

كلمة علم : تطلق على مايضاد الجهل ، ولكنها تعرف بأنها مجموعة من المعارف الانسانية المؤيدة لحقائق علمية منظمة تبينت صحتها بالبحـث والتجريد والتجربـة ٠٠

أما تعريف الفن : فهو المهارة التي يبلغ بها المرء ذروة الاتقان ، فـي تحقيق غـرضـه ٠

ومن المعروف ان كل نشاط بشري يحتم وجود كمية من المعارف التي تكون معظمها على الاقل غير موروثة ، ويتكون منها العلم ، وبما ان الحرب نشاط من النشاطات البشرية ، تستند الى مجموعة من العلوم منها (عـلـم

---

(٦) راجع الفصل الثاني من الكتاب ٠

(٧) كتاب ، بحوث ودراسات عسكرية — العميد الركن يوسف ابراهيم سلوم ص ٢٩ — دار النهج — الرياض ٠

الجغرافية ، علم النفس ، القانون ، التاريخ ، وعـلم الجيوبولتيك ــ علـم سياسة الكرة الارضية ... الخ) .

ولما كانت جوانب معينة من هذه الفروع العلمية فقط تتعلق بالحرب، وعليه فأن التسميات تقترن عادة بكلمة « العسكرية » للدلالة الى المواضيع المتلائمة مع النشاط الحربي من هذه العلوم ، فتكون التسميات : (عـلم الجغرافية العسكرية ، التأريخ العسكري ، والقانون العسكري والهندسة العسـكرية ... الخ) .

ومن هنا لا تزعجنا معارضة أحد على اعتبارنا الحرب ، علماً وفناً فـي الوقت ذاته .. علم لانها تتعلق بجملة المعارف والعلوم ، وفن ، لانها تتعلق بالقدرة وأتقان التعامل مع مختلف العلوم . وهـذا ايضـاً ما خلص اليـه (كلاوزفيتز) نفسه في نهاية مطاف تأملاته الفكرية .. وكذلك ينبغـي أن اضيف : ان مهنة الحرب ، تتعلق بالتعبية الصغرى ، أي انها تقتصـر عـلى الاعمال الحربية في الاشتباك في حقل التعبية فحسب ، أما الاعمال الحربية بمستوى اعلى فتتعلق بالعلم والفن في الوقت ذاته .

ومع ذلك فقد نشأت ، النظرية الحربية ، رغم كل تلك الصعوبات ، نتيجة التأملات الغزيرة ، وظهور البارود ، وتطور الاسـلحة ، مما تـطلب تسخير معارف اضافية من مختلف العلوم والتقنية وصولا الى مستوى الفن، وكما ان العون الذي قدمته التجربة ، أمر ، لا يمكن الاستهانة به في بلـورة القواعد والاسس التي أقيمت عليها ، النظريات فيما بعد ...

نشـوء النظريـة الحربية وتطورهـا :

٥ ــ ان اقدم بحث معروف حول (فن الحرب) هو ماوضعه المفـكر الصيني العظيم (صن تسو) مابين عامي (٤٠٠ ــ ٣٢٠) ق.م ان مقـالاته القصيرة (١٣ مقالة) تعتبر من أحسن ماكتب على مر العصور ، مع ماكتبـه

(كلاوزفيتز) بعد ذلك بأثنين وعشرين قرنا ، لدرجة ان اغلب أفكاره مفهومة في وسطنا كما كانت مفهومة في زمانه •

ويلي هذا المفكر الصيني من حيث التسلسل التأريخي (الكسندر) مابين عامي (٣٥٦ – ٣٢٣ ق•م) الذي كان يراوده حلم انشاء أمبراطورية عالمية ، وقد أثار اعجاب العديد من الذين أعقبوه ، ولكن القليل منهم فقط وضعوا أفكاراً مشابهة ومؤثرة لحين وضع ماكيندر ، نظريته حول دراسة سياسة الكرة الارضية (جيوبولتيك) والتي طورها هاوتزهوفر ، وماهون، ودوهيه وغيرهم ••

وقد عرف الكسندر بأن الحرب تعمل دائماً وفق منظورين :

الاول – بدني – نفسي •

الثاني – مادي – فكري

لقد كان لهذين العالمين بعض الخلفاء المذهلين وكان احدهم (هانيبال ٢٤٩ – ١٨٣ ق•م) الذي اشعلت أفياله وجماله في (اوديسه) نار الحرب الثانية بين قرطاجة وروما •• وكان خصمه الرئيسي (سيبسو افريكانوس) (٢٣٦ – ١٨٤ ق•م) وكانا بحق استاذين في الاسلوب غير المباشر بالمفهوم العسكري ••• وكذلك كان يوليوس قيصر (١٠٠ – ٤٤ ق•م) •

الا أنه حدثت فجوة في الفكر الحربي الستراتيجي ، خلال العصور المظلمة واصابه الجمود •• وبالرغم من ظهور بصيص ضئيل من النور ، في حقل المعارف الاخرى ، الا انه تلاشى تماما في مجال الستراتيجية ، وبقي هكذا لمدة الف عام اخر ••• وكان الاشعاع الوحيد الذي انبثق في تلك الفترة هو في زمن البيزنطيين ، بظهور قادة مثل بليزاريوس ونارسيس ، ولقمان الحكيم •• وكذلك في حملات البربر ••

وظهر بحق خلال فترة فتوحات المسلمين الاوائل قادة عظام ذوي موهبة ستراتيجية لا جدال فيها ، كخالد بن وليد ، وطارق بن زياد ومثنى بن حارث الشيباني وغيرهم •

كما أن للخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) اسهامات فكرية رائعة تطورت الى قواعد ومباديء حرب فيما بعد ••• بشكل وصايا ، كانوا يصدرونها الى قادة الجيوش ، تفيد في ادارة الحرب وفق أسس وقواعد عامة وسامية •• بمثابة ماتصدرها قيادات الجيوش مايسمى بـ (وصايا حركات او توجيهات حرب) اليوم •• التي من شأنها تترك حرية عمل كاملة للقادة الميدانيين ، ليتصرفوا وفق متطلبات الظروف والمواقف •• والتعامل مع احكام المصادفات غير المتوقعة •

وكذلك في اغلب حروب العصور الوسطى ومنها (الحروب الصليبية) على الاخص ، واحتياجات المغول ، ولكن لم يكن لاسهامات هذه الفترة أشكال ستراتيجية متكاملة ، كما لم يدور وفق نظام علمي منهجي ، ولكن، لا يعني ذلك بان تلك الاسهامات لم تترك بصماتها في بلورة وتطوير الفكر الحربي الستراتيجي •

وفي القرن السادس عشر بدأ المفكرون بالتمييز مابين الستراتيجية (السوق) والتعبية ، وتحديد العلاقات المتبادلة مابين العمل الحربي والنهج السياسي على مستوى عال •

وقد ظهر في عصر النهضة والفترة التي تلته ، اثنان من عمالقة الستراتيجية (السوق) نيكولو ميكافيلي (١٤٦٩ – ١٥١٩) وهو كاتب سياسي وعسكري ، أثارت مناقشاته حول مصادر القوة واستخداماتها كثيراً من الجدل ، وقد يعتبره « الكثيرون » الداعية للكذب والخداع والغدر ، مع انه يعتبر صاحب اكبر نظرية في عصره ••

والثاني كان فردريك الكبير (١٧١٢ - ١٨٨٦) الذي يقترن اسمه بـ (ستراتيجية الخطوط الداخلة) هذه الستراتيجية التي استخدمتها اسرائيل في عدوانها ضد الدول العربية ، نظراً لوضعها المركزي الجغرافي .

لقد بذل نابليون جهوداً ومساهمات كبيرة لتطوير النظريات الراهنة في عصره ، وتطبيقها بشيء من الكمال مستفيداً من القوة البشرية الهائلة المتاحة له والتي كانت تلتهب حماساً من تأثير الثورة الفرنسية ، ولكنه مع ذلك لم يترك لنا أي سجل مكتوب لافكاره وفلسفاته بأستثناء مبادئه الاساسية المائة والخمسة عشر .. والتي تعتبر من البديهيات العسكرية ، والتي لا يزال العالم يستقصي دروساً من مساهماته الستراتيجية ، ولكن عن طريق آراء الاخرين وتحليلاتهم لمعاركه ..

ومن أهم وأشهر الباحثين المعاصرين لنابليون وحروبه ، (انطوان هنري جوميني ١٧٧٩ - ١٨٦٩) و (كارل فون كلاوزفيتز ١٧٨٠-١٨٣١) كما ذكر ذلك (ادوارد ميد أيرل) في كتابه (رواد الستراتيجية الحديثة).

ولقد ساهم الجنرال (جوميني) بحركة الابداع والتجديد في ذلك العصر وقد قام بدراسة الحرب دراسة منهجية منظمة ، اوصلها الى الشكل الذي اتخذه منذ ذلك الوقت .. ومع (كلاوزفيتز) الذي عاصره قليلا ، فقد قدم (جوميني) لدراسة الحرب شيئا أشبه بذلك الشيء الذي قدمه (آدم سميث) لدراسة علم الاقتصاد برأي (جون ام كوليز) ..

على هذا فأن عمل (جوميني) في الحقيقة ، يعتبر اكتشافاً علمياً ، لا التوغل الجزئي في عالم مجهول لأول مرة .. وكان سباقاً في عمل الخرائط الجيدة ...

ولكن (كلاوزفيتز) قد نظر الى الستراتيجية من زاوية مختلفة تماما ، ففي الوقت الذي كان (جوميني) يحاول استنباط منظومة نظرية لكسب

المعارك ، أهتم (كلاوزفيتز) بالطبيعة الاساسية للحرب ، والنظرية الحربية، فضلا عن مواضيع الستراتيجية ـ ومسألة العلاقات المتبادلة بين السياسة والحرب ومابين الستراتيجية والتعبية .. بذلك تحاشى كل ماهو مألوف ومعروف وسبق ذكره مئات المرات كما عبر عن ذلك بنفسه وأضاف : ان كل ماطمح اليه هو تأليف كتاب لا يمكن نسيانه بسنتين او بثلاث سنوات وبأن كل من يهتم بالموضوع سيقرأ ذلك الكتاب اكثر من مرة ..

لقد تحققت احلامه فوق ماكان يتصور ، أذ ترك بصماته على عدة اجيال وحتى هذا اليوم اللذين يطالعون مؤلفه (في الحرب) للمرة الاولى يندهشون لعمق تفكيره وصدق احساسه[٨] .

ومازال عمله هذا يعتبر أفضل عمل منشور حول الحرب ، لحد الان.. على ذلك يمكن اعتباره أول من وضع النظرية الحربية ، وفق قواعد فكرية متقنة في بداية القرن التاسع عشر .. فلم يكن هناك نظرية في هذا الاطار قبل نظريته في الحرب التي عرفت بأسمه ـ سوى بعض المبادىء والدراسات الاولية كما بيناها في اعلاه ...

لقد رسخت القواعد النظرية التي صاغها (كلاوزفيتز) اكثر من قرن، رسوخا عميقا في الاذهان .. وسيطرت على افكار القادة البروسيين وخاصة (مولتكه) وأدت انتصارات المانيا الباهرة في عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧٠ الى انتشار افكاره في كل جيوش العالم التي بدأت تقلد النظام البروسي في كثير من النواحي[٩] .

---

(٨) كتاب السوق الاكبر ـ تأليف جون ام كولينز صفحات ١٤ ، ١٥، ١٦، ترجمة اللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس .

(٩) كتاب الاستراتيجية وتأريخها في العالم ـ ب. هـ ليدل هارت ص ٤١٨ تعريب الهيثم الايوبي .

وظلت هذه النظرية منتشرة حتى بعد الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ الا ان سير الحرب المذكورة ونتائجها ، قدمت من الدلائل ما يثير الشكوك في صلاحيتها ، او على الاقل في بعض الجوانب منها وظلت جوانب اخرى منها حية وصادقة ، حتى يومنا هذا ..

وقد اشاد بأفكار (كلاوزفيتز) ماركس وانجلز ، ومن بعدهما لينين الذي كتب عنه وكرر ماكتبه اكثر من مرة ، قائلا : ان كلاوزفيتز هو واحد من اعمق المفكرين العسكريين وواحد من اعاظم فلاسفة ومؤرخي الحرب.. وانه كاتب أضحت أفكاره الاساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكل مفكر(١٠)

فحوى النظرية الكلاوزفيتزية :

٦ - تضمنت النظرية التي حبكها (كلاوزفيتز) مجموعة من الافكار صاغها بأسلوب فلسفي عميق أحياناً ، وغامض أحياناً اخرى ، تحولت الى قواعد قانونية تحكم جميع النشاطات التي تسببها الحرب تقريبا .. فلما لا يتسع المجال لتقديم شروحات تفصيلية بصددها ، لذا ، سنقتصر هنا على ذكر أهم تلك القواعد النظرية ، وبأختصار مع الاشارة الى بعض الجوانب الهامة منها ...

وهذه القواعد او الأسس التي تتألف منها النظرية هي :

أ - هدف الحرب الحقيقي :

وكان هدف الحرب حسب نظريته التي ظلت راسخة ، اكثر من قرن، هو تدمير قوات العدو الرئيسية في ميدان المعركة ، لقد ثبت خطأ هذا التحديد لهدف الحرب الحقيقي كما سنرى .

(١٠) مقالة (بقاء كلاوزفيتز) بقلم كامي روجرون المنشورة في كتاب (الوجيز في الحرب) لكارل فون كلاوزفيتز - ص ٥٠ .

ب ـ ان الحرب ليست شيئاً اخر غير استمرار سياسة الـدولـة بوسائط آخـر[11]...

وتتضمن هذه النظرة ، اظهار العلاقة القائمة بين الحرب والسياسة حيث قال في مكان آخر « ان الحرب أداة سياسية ، لا شيئاً مستقلا بحد ذاتـه » • واضاف « ولا شك ان العلاقات السياسية بين الحكومات والامم هي التي تؤدي الى الحرب » ..

ثم ينساق الى نوع من الفلسفة ويعود الى الموضوع ويقـول : « أن تعلق الحرب بالسياسة يجعلها تأخذ بالضرورة صفتها ، فاذا كانت السياسة عظيمة وقوية كانت الحرب كذلك وقد تبلغ في بعض الحالات ذروتها حيث تأخذ شكلها المطلق » • وكذلك قال « عندما تتطلب السياسة من الحـرب مالا تستطيع تقديمه ، يكون عملها مخالفا لمفاهيمها ومقوماتها ».. وأخيراً بين « أن السياسـة لا تؤثـر تأثـيراً سـيئاً علـى الحـرب ، عندمـا تقدم لها النصيحة للسير بشكل معـين » •

وبأعتراف جميع المفكرين تقريبا ، أن تحليله العميق للعلاقـات بـين الحرب والسياسة ، لم يتفوق عليها ، ولم يتجاوزها أحد حتى الآن، ومازالت أكثر أهمية في ايامنا هذه ، مما كانت عليه عندما طرحت لاول مرة بـرأي الجنـرال ج ل س فوللـر ..

جـ ـ اكتشاف مراكز الثقل للعدو وتوجيه الضربة لها[12] :ـ ولقـد حدد مراكز الثقل هذه في [قوات العدو الرئيسية ـ عاصمة البلاد المضطربة بسبب الخلافات الداخلية ـ جيش الحلفاء بالنسبة للبلد الصـغير المرتبط بدولة اخرى ـ ويتركز ، كما يقـول ، مركز الثقل في (التمـرد القومي ـ

---

(١١) كتاب ادارة الحرب ـ الجنرال ج ل س فوللر ص ٨٩ـ٩٦ تعـريب : اكـرم ديـري •

(١٢) نفس المصـدر ـ ص ١٠٣ •

والثورة الشعبية) بالرأي العــام •• فمن الضروري توجيه الضــربة ضد هذه النقاط للحصول على نتائــج حاسمة ••

د ــ الدفاع الشكل الاقوى للحرب:[13] وقدم تحليلا عميقا للمميزات المتبادلة للدفاع والهجوم ، ولم يخف ميله من تفضيل الدفاع على الهجوم ، ولاسيما في المراحل الاولى من الحرب ••

كما وقدم تحليلا عميقا وصائباً لمفهوم « نقطة الذروة للهجوم او الحد الاقصى للمناورة » •• وقد بحثنا هــذا المفهوم في فصل مســتقل لاهميته الكبيرة[14] •

هـ ــ اعطى للعامل المعنوي والفكري أهمية كبرى في الحرب ، وقاوم فكرة العمل الهندسي المبني على الحركات •• وهي الفكرة التي كانت شائعة حينئذ ، وقد اوضح ان الفــكر البشــري أهم بكثير من زوايــا العمليات وخطوطهــا[15]•

و ــ اظهر آثار وطبيعة بعض العوامل غير المادية مثل : الصدفةوالشك، والخطر ، والتعب والانهاك[16]•

وقد عالجنا هذه الفقرات في الفصل الحادي عشر بأسهاب •

ومما لا شك فيه انه لم تثبت صحة جميع هذه الاسس النظرية التــي وضعها فــي مؤلفه الشهير (في الحرب) ••

تعــديــل النظــريــة :

٧ ــ لم يتحكم الافراد على تطور الفــكر الســتراتيجي منذ وفــاة (كلاوزفيتز) عام ١٨٣١ مثلما تحكمت به الاحداث •• فأن الثورة الصناعية

---

(١٣) كتاب ادارة الحرب ــ فوللر ص ١٠٨ ــ تعريب اكرم ديري •
(١٤) راجع الفصل الثامــن عشر من الكتاب .
(١٥) كتاب في الحرب ــ كلاوزفيتز ــ الجزء الاول ص ٢٢٩ • تعريب اكــرم ديري والهيثم الايــوبي •
(١٦) نفس المصدر صفحات ٨٥ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٨١ •

اطلقت العنان للقوات التي تمكنت من شن حرب شاملة على نطاق عالمي •• وقد قدمت المحركات البخارية الدفع لقابلية الحركة والمناورة السوقية السيالة •• كما وساعدت اكتشافات أجهزة المواصلات على قدرات وسائل السيطرة والاتصال • ثم حدثت بعد ذلك ، الثورة الادارية التي اصبحت ضرورة علمية لكل دولة ، الى جانب الحاجة الملحة لمواكبة التقدم التكنولوجي والعلمي ، لتنظيم وتدريب وتجهيز قدراتها العسكرية •• ولكن حدوث الثورة الاجتماعية في روسيا عام ١٩١٧ ، بدلت ، افكار ومفاهيم الناس وطرق الاستفادة من البشرية في هذا المجال ، وزرع (كارل ماركس) بذور فلسفته ذات أهمية كبيرة في عالم الافكار الحديثة لادارة الصراع ، وفق الافكار الثورية الجديدة ، جرت ادارة عدد من الحروب الثورية الناجعة في العصر الحالي[١٧] •• في حين بقي المنظرين التقليدين في الغرب على تطبيق افكار (كلاوزفيتز) بكل حمية وحماس •

ومنذ عام ١٩٤٥ حدثت الثورة التكنولوجية و (السبيرنيطيقية) فتراجعت الافكار الخلاقة في الغرب بترجيح المعدات المتطورة عليها ، رغم محاولات (ليدل هارت) في انكلترة و (ريمون آرون) في فرنسا ولكن الستراتيجيون لم يستمعوا اليهم أبداً •

وقد كتب (ليدل هارت) في موضوع « الهدف » في كتابه « باريس والحرب المقبلة »[١٨] الذي ظهر عام ١٩٢٥ انتقد فيه فكرة « الهدف » التقليدية التي ترمي الى « تدمير الجيوش الرئيسية المعادية في ميدان المعركة » واوضح فكرة « الهدف المعنوي » وكذلك الجنرال (فوللر) في كتابه (ادارة الحرب) انتقد فكرة الهدف كما صورها كلاوزفيتز •

---

(١٧) كتاب السوق الاكبر — تاليف جون ام كولسيز — ص ١٦ ترجمة اللواء الركن علاء مكي خماس •

(١٨) الستراتيجية وتاريخها في العالم — ليدل هارت ص ٤٢٧ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي •

وقد اضاف (ليدل هارت) الى النظرية ، فكرة الهجوم غير المباشـــر وارتباطها بشكل دقيق بجميع القضايا الناجمة عن تأثير الفكر على الفكر ••

والجدير بالاشارة ، (ظهور مدارس فكرية عسكرية ، ضمن سياق التطور التأريخي ، حيث ظهرت ثلاث مدارس تقليدية للفكر العســـــكري الاستراتيجي (السوقي) وهي : المدرسة البحرية ، والمدرســـة القـاريـة (البرية) والمدرسة الجوية (الفضائية) وهناك مدرسة فكرية رابعة غـير تقليدية ، بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب وهي (المدرسة الثورية) •

تقيم المدارس التقليدية الثلاثة « الوضع الجغرافي » للكرة الارضية وبنظرة مختلفة الواحدة عن الاخرى •• لقد قدم ثلاثة من المفكرين ، علماء جيوبولتيك (علماء سياسة الكرة الارضية) افكاراً تستند الى هذا العـلم وهم (ماهان ، ماكيندر ، ودي سيفوسيكي) •• وباختلافات أساسية فــي وجهات النظر التي تتعلق ببناء هيكل عام للقوات المسلحة ، يتلاءم مع مجال عمل تلك القوات •• ولكن من منطلق موحد هو « استهداف السيطرة على العالم ، او انشاء امبراطورية عالمية عظمى » • ماخلا المدرستين الفكريتـين (الجوية والثورية) ، فيما دعمت التجربة النظرية ، وصحة وجهات النظـر وافكار دعاة المدرسة الثورية ، حيث بلغت الثورات أهـــدافها ، بأحــراز انتصارات ساحقة ، بشن حروب ثورية ، في مناطق متعددة من العالم ولـكن ضمن مجالاتها المحدودة •• في حين طرأ بعض التعديلات علىافكار المدرسة الجوية والفضائية •• بعد ثبوت فشل نظرية (دوهيه) وعدم امكان تطبيق نظرية (سيفريسكي) نظـرا لظهور وتطور المقذوفات البالستيقية العابـرة للقارات ، وأن ما نسمع به اليوم عن ستراتيجية (حرب النجـوم) ، ما هو الا استمرار لاحداث تعديلات على افكار المدرسة الفكرية الفضائية ، ولم تبلغ الكمال ، ولن تبلـغ •

بما ان مناقشة افكار تلك المدارس الفكرية تفصيليا بحاجة الى مجال اوسع ، وعليه سنكتفي هنا بهذه اللمحات السريعة ، لكي تتناولها بالبحث والتدقيق في فصل من الفصول القادمة •

وفي الختام نقول :

وهكذا بولادة « المطلق »[19] عاد تفوق المعدات على الافكار في اميركا واوربا ، على الرغم من الاهتمام الواسع للبحث عن الحلول على أسس تحليلية فكرية وعلمية دقيقة ، ولكن بشكل هيكل بناء معقد ومجرد •• لم ينبثق منه الا بعض العناصر الهامة للستراتيجية بحسب حاجة العصر، ولكن سرعان ماطرأ عليها التغيير ، ونبذت في معظم الاحوال ، ومن هذه الستراتيجيات على سبيل المثال ، لا الحصر (الرد المرن ، مقابلة المدن ، ومقابلة القوى ، الردع المتدرج ••• الخ) ولكن هذه الافكار الستراتيجية عبارة عن افكار تفيد الحرب تحت شروط وظروف الحرب النووية المحتملة •• وعليه فقد ترك أمر معالجة المسائل الحربية والستراتيجية للحروب التقليدية التي كثرت في القرن العشرين ، بفن استخدام الاسلحة المتطورة بالافكار القديمة البالية ••

وهذا ما يقدم لنا أدلة قاطعة ، ودامغة تشير الى أسباب فشل جيوش جرارة أمام مجاميع ثورية ضعيفة ، كما حدث في (حرب فيتنام ، كومبوديا، لاوس ، جزائر) ••

ويمكننا ان نخلص من كل ذلك الى القول : بأن افكار ومفاهيم نظريات الحرب والستراتيجية كانت بين مد وجزر عبر العصور التأريخية يلاحظ خلالها ، ان كلما كان الفكر متقدماً على العمل وخلاقاً ، كانت هنالك حروبا ظافرة ، وكلما تراجعت الافكار ، لتتقدم عليها استخدامات القوة والمعدات، كانت نتائج الحروب عقيمة وغير مجدية ، وباهضة التكاليف •

---

(١٩) « المطلق » يعني القذائف النووية والهيدروجينية •

الفصل الثالث عشر

- الفكر والنظرية الستراتيجية السوقية

« الفصل الثالث عشر »

الفكـر ـ والنظرية الستراتيجيـة السوقية

لقد انتهينا تواً من الكلام عن النظرية الحربية وعلاقتها بالفكر ، وأذا ماتذكرنا ، ماجاء فيه ، حول النظرية الحربية •• نشوؤها ••• وانتشارهـا •• وتطورها •• وكذلك لو تأملنا الاسس والقواعد التي نوهنا عنها بأيجاز شديد ، وعدنا الى فحوى نظرية كلاوزفيتز •• وخرجنا منها بفكرنا المشوش من جراء الصعوبات النظرية بغية دخول الى ظلمات الستراتيجية (السوقية) وعتمهتا ودراسة النظرية الخاصة بها •• (كما ورد في الكتب والمؤلفـات المنهجية والتقليدية) ••• وجدنا بمزيد من الدهشة ، نفس الاسس والقواعد وحتى المبادىء عولجت مرة تحت عنوان « نظرية الحرب » واخرى تحـت عنـوان (نظرية الستراتيجية ـ السوقية) •

عندئذ يكون من الحق أن نثير هذا التساؤل :

يا ترى ، لماذا جرى بحث المفاهيم ذاتها تحت عنوانـين متباينـين ••؟ فهل يعني ذلـــك عـدم وجود فروقات بين ماهيـــة الحـــرب ، وماهيـــة الستراتيجية •• ؟[1]

---

(١) يكفي لغرض التحقق من وجود مثل هذا الخلط ، مراجعة كتاب مدخـل الى الستراتيجية العسكرية (الجنرال اندريه بوفر) ومقارنة ما جاء فيه من (القواعد والاسس والمبادىء) تحت عنوان « المبادىء والنظـريـات الستراتيجية » ص ٤٤ـ٤٧ مع ما جاء في الكتاب الثاني ـالنظريةالحربيةـ من مؤلف (في الحرب) لكارل فون كلاوزفيتز ويلاحظ نفس المبـــادىء والاسس والقواعد ، عولجت في المرجع الاول تحت عنوان « نظـــريـــة

يقتضي الاجابة على هذا التساؤل ، تفحص عدة امور متداخلةومتشابكة غير انه ، يمكننا القول ، منذ الوهلة الاولى ، بأن ذلك ناتج ، ولا شك ، من وجود تداخل وتلاحك في درجات العمل ، وكذلك في طبيعة الاشياء ، ومن جراء التغيير الذي طرأ على مفهوم الستراتيجية المعاصرة ، وأمتداداتها وشمولها مجالات متعددة .

غير ان هذه الاسباب ، لا تقدم تبريراً مقنعاً وكافيا ، لمثل هذا الخلط المربك والمشوش للافكار والمفاهيم ... الا أذا أعتبرت الحرب والستراتيجية، ذات الشيء ومن طبيعة واحدة .

ولاجل التحقيق من ذلك ينبغي ان نتذكر بان معظم المفكرين والمنظرين قد أقروا تقريبا فكرة (كلاوزفيتز) فيما يتعلق بالحرب .. على انها أداة السياسة أو استمرار لها بوسائل اخرى طابعها العنف ..

فلو اضفنا الى هذه الفكرة ، التي اصبحت شبه « مسلمة » اليوم .. ما اظهر الجنرال (اندريه بوفر) بحق من روابط عضوية بين (الفلسفة والسياسة ، والستراتيجية) في العبارات التالية .. حين قال :

« ولكن الستراتيجية عبارة عن وسيلة لتحقيق اهداف تحددها لها السياسة وتتبع سياسة بلد ما من الفلسفة السائدة فيه ، وهكذا يتعلق مصير الانسان ، بالفلسفة التي يختارها لنفسه ، والستراتيجية التي يستخدمها لتحقيق انتصار هذه الفلسفة »[٢] .

الستراتيجية » في حين عولجت في المرجع الثاني تحت عنوان النظرية الحربية ، وكذلك في كتاب (ادارة الحرب) للجنرال (فوللر) الذي تضمن تحليلا قيما لنظرية كلاوزفيتز .

(٢) كتاب مدخل الى الستراتيجية العسكرية ـ الجنرال اندريه بوفر ـ ص٧٩ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

ويمكننا بدون عناء كبير، أن نستنتج من هذا التركيب الرائع، المعادلة التـاليـــة :ـ

ـ أن السياسة تابعة للفلسفة •

ـ والحرب استمرار السياسة (نظرية كلاوزفيتز) •

ـ والستراتيجية ـ تستخدم لتحقيق انتصار الفلسفة (او العقيـدة) فيما أذا نظرنا اليها من زاوية معينة ، وتلتحم مع السياسةوالاقتصاد والاجتماع ، والتقنية والتصنيع ••• الخ• ، في مجالات نشاطاتها المختلفة ، كما وتؤازر الحرب في مجالها الخاص ••

فما هي «الستراتيجية»؟ مادامت لا تدخل في نطاق الامور المادية فـي الحرب والسياسة فحسب •• بل انها تسمو على السياسة حينما تدخل فـي نطاق الفلسفة أو العقيدة أي في حقل « الميتافيزيقيا» ••

سنجيب على هذا السؤال بالتفصيل فيما بعد ، ونكتفي هنا بالتأكيـد على ان الستراتيجية والحرب ، ليستا ذات الشيء ومن طبيعة واحدة !!••

لان الحرب ليست كحرباء تبدل لونها ـ على حد قول (كلاوزفيتز) ، وانما عبارة عن (حدث) طابعه العنف والاقتتـــال ، والتعـــب والاعيـاء ، والألام ••• في حين ان الستراتيجية ذات طبيعة متغيرة •• فهي كما رأينـا تتدخل كأسلوب استخدام الوسائط المادية ، ضمن ميدان التعبيـــة ولكن لصالحها هي •• وكما انها تشكل « اسلوب تفكير وتعامل » في مجـالات السياسة والاقتصاد ، والتقنية ، والتصنيع ••• الخ • ومن ثم تسمو لتدخل ضمن حقل الفلسفة او العقيدة «الميتافيزيقية»

هذا ولا ينبغي ان تصيبنا الدهشة ، عندما نشير الى المسائل العليا ، أذا وجدنا في اقوال نابليون ايضا مايشير الى ذلك حسب النص الذي اورده

(لويد) حين قال : كان يضع « الجزء الآلهي » لكل موقف ، مقابل «التعاون المتبادل بين العوامل المادية » واعتبر جزء الستراتيجية لكل موقف هو « الجزء الآلهي » ..

وكما وقد اندفع البعض اكثر من ذلك ، فأعتبروا هذا الجزء من الستراتيجية هو « لمعة من لمعات العبقرية » اي « الشرارة التي تنزل على الرأس المختار في الوقت الملائم » او كما يعتبرها (بوفر) في هذه الحالة صبراً طويل الامد ..

وسواء أكانت الستراتيجية الهية ام لا ، فانه من الضروري خضوعها للفكر وحكم العقل[٣].

ومن الجدير بالذكر حقاً ، ان الفيلسوف (جان غيتون) قد انتحى نفس هذا المنحى في دراسته للاستراتيجية في كتابه (الفكر والحرب) فهو يقول بهذا الصدد :

« لهذا فقد حاولت في دراستي هذه عن الستراتيجية ، عدم أسدال الستار على المسائل العليا ،،...« ان المحاكمة الحرة والثقة بالانسان وبالوجود الذي يتعلق به استمرار جنسنا ، هي في الحقيقة عمل فكري ، والعمل الفكري ينصب على المسائل العليا ... أي انه بايجاز عمل « ميتافيزيقي »· ولهذا انه من واجبي تحت كلمة جديدة هي « الميتاستراتيجية » أي ماوراء الستراتيجية ، أؤكد بان العمل الستراتيجي قد اصبح منذ الان عملا فلسفياً[٤] .

---

(٣) المصدر السابق ص ٢٨ ·

(٤) الفكر والحرب ــ جان غيتون ص ١٢ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ·

بهذا يكون بحق ، اول من اعطى للاستراتيجية بعداً جديدا هو «ماوراء الستراتيجية » تحت اسم جديد هو «الميتاستراتيجية» . وسنعود الى هذا الموضوع ثانية فيما بعد لتقدم تفصيلات اكثر عنه ..

والان يمكننا ان نستخلص من كل ذلك : ان الستراتيجية (السوق) اصبحت اليوم ، ذات طبيعة شمولية ومتغيرة ، ومركبة من ثالوث ،(الروح والفكر والعمل) .. فهي عندما تسمو لتمارس «الجزء الآلهي» من آثارها سواءاً أكانت بمثابة «لمعة من لمعات العبقرية .. او أثرا من اثار الفلسفة الميتافيزيقية ... أو منحة من منح القدر والحظ والصدفة !! عندئذ يمكن التعرف عليها بأسمها الجديد «الميتاستراتيجية» كما سماها (غينون) .

ولكن عندما تقتصر الستراتيجية على ممارسة دورها ضمن مجالات (الاقتصاد والسياسة ، والتصنيع والتقنية ... الخ) فهي بهذه الحالة، انما، تمارس آثارها الفكرية في جميع تلك النشاطات المتعددة ، ويمكن بهذه الحالة اعتبار تسمية (الستراتيجية الشاملة) ملائمة للاشارة الى المقصود من دورها في تلك المجالات المتعددة ... كما انها عندما يقتصر عملها في ميادين القتال وسوح المعارك ، فهي بذلك تمارس عملها العسكري البحت. وعليه فأن تسمية « الستراتيجية العسكرية » تكون في هذه الحالة الاخيرة بمثابة اسم على المسمى ..

وسنبحث عن اقسام الستراتيجية ومفاهيمها ، وعلاقتها بالفكر والعمل فيما بعد (راجع الفصل الخامس عشر) .

وبعد هذا التمحيص والتمعن ، لا يساورنا الشك ، بأن سبب الخلط واعطاء مظهرين لمفهوم واحد قد نجم من عدم تفريق بين طبيعتي الحرب والستراتيجية ولكون الستراتيجية في الحقيقة ذات طبيعة متغيرة كما اوجزناها في حين ان الحرب ذات طبيعة ثابتة لا تتغير أبداً .



الفصل الرابع عشر

▪ الفكر والستراتيجية السوق



الفصل الرابع عشر
الفكر ـ والاستراتيجية (السوق)

ليست مسألة اسباغ مظهرين لمفهوم واحد او بالعكس مظهر واحد لمفهومين ، والتي اشرنا اليها ـ في في الفصلين السابقين ـ أمر غريب أو شاذ ، في عالم الافكار .. وذلك لان معظم المفاهيم التي نستخدمها عادة، هي مفاهيم مبهمة ، وأن أقربها الينا في تعاملنا اليومي ، تبقى غريبة عنا في معظم الاحيان .. وقد ينجم ذلك عن عادة فكرية ، ومفاهيم مسبقة ..

وهنالك أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة الفكرية ولمفرداتها .. فقد حلت كلمة «الفلسفة» محل كلمة «الميتافيزيقية» ومفهومها ، بينما ظلت مفاهيم مفرداتهما ، متداخلة ومتشابكة فترة طويلة من الزمن .

ولعل ماحدث لامتدادات الميتافيزيقية بالنسبة الى الفلسفة هو مايحدث اليوم للستراتيجية بالنسبة للسياسة ، وقد تحل الاولى محل الثانية يوما ما، من يدري ؟ ولعل هذا الخلط والتشابك بين مناهيمهما ناجمين عن كونهما يتعايشان في فترة الانتقال التي ستدوم لفترة غير معروفة من الزمن . وما علينا الان الا محاولات أولية لفرز مايمكن فرزه من تلك المفاهيم المتشابكة والمفاهيم المتداخلة في حقل الستراتيجية نفسها فضلا عن مداخلاتها في المجالات الاخرى . وهذا ماسيكون موضوع بحثنا في الفصول القادمة.

١ – حري بالذكر قبل كل شيء : أن مفهوم الستراتيجية المعاصرة ، لم يظهر كعلم قائم بذاته دفعة واحدة •• بل كان – كغيره من العلوم والنظريات حصيلة تجمع المعارف والخبرات الحربية وغيرها من المعارف المتطورة على مر العصور •• فمن خلال الحروب الطويلة ، والمعارك الطاحنة، عبر التاريخ ، استطاع الانسان ان يفهم ظاهرة الحرب وبعيها ، مما دفع بالتالي عجلة تطور الستراتيجية قدما الى الامام[١] •• بحيث اصبح مفهوم الستراتيجية يشمل مجالات اوسع من مجال الحرب ومع ذلك ، ومن الغريب، ان كلمة الستراتيجية ، رغم شيوع استعمالها وشمولها معظم النشاطات البشرية ، الا أن قلة من الناس الذين يستخدمونها ، يعرفون مدلولاتها والمفاهيم المتشابكة التي تنطوي عليها هذه الكلمة ، فالبعض يعتبرونها على انها موضوع عسكري بحت ، وان مافيها من الامور غير العسكرية يعود الى السياسة ، وليس هذا فحسب ، بل هناك من يذهب الى ابعد من ذلك بكثير، الى (الميتافيزيقية) كما سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد •

ولاشك ان استخدام التسميات الصحيحة والمتعارف عليها ، وعلى معانيها ، سيعطي نتائج عديدة : منها توضيح ، وتصنيف هذه المجموعة العجيبة من الافكار والوسائط الموضوعة من قبل ، تحت تعابير «السياسة» و « السياسة العليا » كذلك «الستراتيجية» و «الستراتيجية العليا ، او الشاملة » والستراتيجية التقليدية او (البحتة) • مما يقتضي اختيار التسميات الصحيحة والمتفق عليها ، وان نستخدم ، أذا لزم الامر ، اسماء جديدة بدلا من الاسماء ذات المظهرين لمفهوم واحد إن كان ذلك ممكنا •• وذلك دفعاً للبس القائم حاليا ، من جراء الاستخدام العفوي لهذه المفردات اللغوية ، للتعبير عن الافكار المسبقة التي لا تزال سائدة في مجال نظريات الحرب

(١) مؤلف الستراتيجية العسكرية السوفياتية – تاليف مجموعة من الجنرالات باشراف المارشال السوفيتي ف٠د سوكولوفسكي – ص ١٠ – ترجمة العميد الركن عبدالرزاق الدرردري •

والستراتيجية ، علما بأن (ريمون آرون) اقترح استخدام كلمة « علم الممارسة » « الفعل » بدلا من الستراتيجية والسياسة معاً •• ولكن لم يحظ اقتراحه بالقبول والتداول •• كما ان الجنرال (اندريه بوفر) نادى بضرورة اختيار اسم جديد ، لا يكون « السياسة » او «الستراتيجية» لكي يهدىء بعض الافكار المسبقة العنيدة على حد تعبيره[٢] ••• ولكنه لم يقترح بدائل لهما •

وكذلك يقول (بوفر) : ولدت في القرن التاسع عشر خطيئة من تأثير نظريات انصار (كلاوزفيتز) الخاصة بالحرب ، المتسمة بالمبالغة ، والتي تبنتها الاركان البروسية ، بالاضافة الى المفاهيم الديمقراطية البورجوازية الغربية التي فصلت السلطة المدنية عن السلطة العسكرية[٣]••• والواقع ، أنه بهذا الفصل بين السلطات تباينت التسميات للمفاهيم الموحدة أصلا ، التي تمتد الى اكثر من مجال ، وحيث لا وجود للحدود الفاصلة بين المستوى، والمستوى التي تليها ••

ويرى (بوفر) : ان الفكر الماركسي ـــ اللينيني ، كله ، لا يفصل بين مجال السياسة ومجال الستراتيجية الشاملة ، ويعترف بان السوفيت قد حققوا بهذا ، تركيبا متكاملا بين المجالين ، وهو اكثر كمالا من التركيب الذي طرحه هو نفسه في كتابه « استراتيجية العمل » •

ويقول ان السوفيت لا يميزون بين المستوى الاعلى « للسياسة العليا » التي تختار الاهداف المرجوة والمستوى المتعلق بالاستراتيجية العليا او الشاملة »[٤] ولكن الفكر الغربي في محاولة دائبة لمعرفة العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين تلك المفاهيم بعضها مع البعض •

---

(٢) كتاب ستراتيجية العمل ـ الجنرال اندريه بوفر ـ ص ٢٠ تعريب : المقدم اليهثم الايوبي •

(٣) نفس المصدر ص ٢٩ •

(٤) تستعمل كلمتي « العليا والشاملة » الواحدة بدل الاخرى بصورة عشوائية في معظم الترجمات •

لقد أدت فكرة العلاقات بين السياسة والستراتيجية الى قلق البعض، ودفعهم الى التساؤل : ألسنا نخلط بين امور من طبيعة مختلفة ؟• وهل يمكن ان يؤدي عملنا هذا الى «تحكم» السياسة ، تحت تأثير الاعتبارات على الاستراتيجية ••[٥]• ولكنهم سرعان ماوجدوا امكانية تجنب ذلك بسهولة، نظراً لان رجال الدولة انفسهم ، يقومون بتنفيذ أدوار السياسة والستراتيجية الشاملة حيناً بعد حين •

٢ ـ ينبغي علي أن اتوقف الان من الاسترسال ، وذلك لكي لا أثقل على القارىء العسكري والمثقف المدني، واعود الى اصل كلمة «الستراتيجية» قبل أن اغامر بالدخول في ظلماته ، واسلط هذا الضوء الخافت الذي لدي الان لكشف عن معنى ومدلولات ، ومفاهيم المتشابكة لموضوع الستراتيجية مع اللمحات للعلاقات القائمة بينها وبين مختلف النشاطات الاخرى •

أصل كلمة « الستراتيجية ـ السوق » ومعناها :

٣ ـ أن اصل كلمة الستراتيجية ، يونانية وهي «الستراتاجم» وتعني، الخدعة والحيلة ••[٦]

ولقد بقي هذا التعبير بحق متفقاً ومتلائما مع اعمق طبيعة الحرب ،رغم كل التحولات الحقيقية والظاهرية ، التي تعرضت لها الحرب ، منذ أيام الاغريق حتى اليوم •• وكان يتعلق بموضوع عسكري بحت ، في بداية الامر •• وبناءً عليه فقد جرى نقلها الى العربية عندنا تحت اسم (السوق) ويستدل من تصريف هذه الكلمة على ان « الستراتيجية ـ السوق » موضوع عسكري بحت (سوق القطعات الى ميادين القتال ، وقيادتها) •

---

(٥) المدخل الى الاستراتيجية العسكرية ـ اندريه بوفر (ص ٠١) •

(٦) في الحرب ـ كارل فون كلاوزفيتز ص ٢٥٦ •

فلما ظهرت تسميات مركبة للتعبير عن المستجدات فيحقل الستراتيجية مثل « الستراتيجية العليا أو الشاملة » اضيفت تباعا الى كلمة « السوق » عندنا ، كلمة « الاكبر او الاكمل » ••

وانني سوف لن استخدم خلال هذه الدراسة التسميات المتداولة عندنا من (السوق او السوق الاكبر او الاكمل) بل سأضطر على الاستمرار بأستخدام كلمة «الستراتيجية ومركباتها» رغم انني متأكد من اعتراض الكثيرين على امتناعي هذا ، ولكن لدي عذراً في ذلك هو :

ان هذه الالفاظ جميعها حتى كلمة «الاستراتيجية» نفسها ، لم تعد تطابق المفاهيم والافكار ، التي تخص مجال الحرب والسياسة ، وعلومهما نظراً لتحول شكل الحرب البدائي البسيط الى شكل اكثر تعقيدا ، وأشد تنظيما ، حتى اصبح موضوع تفكير رجال الحرب والسياسة معا ••

فقد قال كليمانصو ، رئيس وزراء فرنسا : « ان الحرب مشكلة كثير الجدية حتى تترك للعسكريين وحدهم » وكتب « كليمانت أتلي » عندما أصدر الجنرال (ديغول) مذكراته كزعيم لفرنسا الحرة : « أن ديغول عسكري عظيم ، ولكنه سياسي سيء » •• ولما نقل هذا القول الى الجنرال (ديغول) علق عليه بقوله : ان السياسة مشكلة كثيرة الجدية حتى تترك للسياسين وحدهم »[٧] •

ويعتقد بعض الستراتيجيين المعاصرين ، ان القولين لا يتناقضان وللتوفيق بينهما ، ينبغي ان يتلقى الضباط تدريبا سياسيا ، ويتلقىالسياسيون تدريبا عسكريا •

وهذا ماهو جار الان في معظم بلدان العالم تقريبا •

---

(٧) كتاب الردع والاستراتيجية ــ ج اندريه بوفر ص ١١ تعريب اكرم ديري وتترجم احيانا •

وقد حاول السوفيت كما نوهنا عنه فيما سبق ، الخروج من هذا الموقف عن طريق التحليل الماركسي ، لقد وضعوا منذ ايام (ستالين) نظرية الحرب الشاملة ذات الطابع الاجتماعي ، والتي لا تستطيع الصمود برأي (اندريه بوفر)(٨) أمام التقدم التقني ... فيما يندفع الامريكيون تحت لواء كلاوزفيتز بكل حمية وحماس ، في حل سلسة من المشكلات التقنية بدوافع تكتيكية .

وقد جذبت أهمية هذا الموضوع انتباه اوساط المثقفين الميالين حسب اتجاهات العصر العلمية الى البحث عن الحلول ، على اسس تحليلية دقيقة ، ولم يمض وقت طويل ، حتى اصبح لكل جامعة اميركية مؤسسة للابحاث والدراسات ، مجهزة أحسن تجهيز ، وظهرت اكداس الكتب والمؤلفات ، مشكلة بناءً مجرداً ومعقدا لدرجة « سكولاستيكية »(٩)، وتنبثق من هذا البناء مابين آونة واخرى ، بعض العناصر الهامة ، لاستراتيجية عامة ، يحتاجها عصرنا ...(١٠)

ولم تدخل هذه الحركة الفكرية الى اوربا ، الا ، بقسط ضئيل، ويكتفي الاوربيون عادة بقراءات غير جدية ، حسب رأي (بوفر) مع اقتباس تام للمصطلحات والمعدات الاميركية نظراً لاعتقادهم حتى الان (١٩٦٨)(١١) بتفوق المعدات على الافكار ، رغم محاولات ريمون آرون في فرنسا وليدل

---

(٨) مدخل الى الاستراتيجية العسكرية – اندريه بوفر ص ٢٦ منشورات دار الطليعة – بيروت .

(٩) سكولاستيكي – يعني مدرسي ، وتتبع فلسفة القرون الوسطى المدرسية التي لا تقبل الحوار او التطور ، والمقصود بالكلمة هنا «فلسفة جامدة».

(١٠) ان المقصود من « بعض العناصر » ظهور مصطلحات او تبني استراتيجيات معينة في الولايات المتحدة والغرب ، لتلائم ظروف الحرب الباردة والحرب النووية المحتملة .

(١١) وهو تأريخ انتهاء المؤلف (صاحب الرأي) من تأليف كتابه (مدخل الى الاستراتيجية العسكرية) .

هارت في انكلترة ، فان الستراتيجية ، لم تدخل بعد الى صميم الرأي العام ، كما انها بعيدة عن الدخول في الوسط العسكري نفسه ، حيث لا يزال العسكريون ، يفكرون بالتقنية والتكتيك ، بدلا من العمل على انشاء افكار ستراتيجية ، ملائمة لكل موقف من المواقف وفي كل عصر من العصور ..

ونحن لن نتكلم عن هذه الامور في دول العالم الثالث التي لا تكتفي بقراءات غير جدية فحسب ، وانما تقتبس حتى المصطلحات بصورة مشوهة في معظم الاحيان ، والتي لا تؤدي الا ، الى الغموض والبلبلة الفكرية ،والتي لا ترجح الاسلحة والعتاد الحربي على الافكار فحسب ، بل ليست لديها في معظم الاحيان حرية انتقاءها وتوريدها بحيث تتلائم مع الافكار الستراتيجية المتطورة .. ونعود الى تعريف الاستراتيجية قبل القيام بمحاولة يائسة لفض الاشتباك بين المفاهيم المتشابكة والغامضة ، وبيان انواعها ووسائلها وعلاقاتها ...

تعريف الأستراتيجية :

٤ ـ ما هي الستراتيجية ..؟ . ان المعنى الحرفي للكلمة ، كما بينا ، هو « الحيلة والخدعة » أما اذا انطلقنا من المفهوم القديم للاستراتيجية ، نجد انها تختص بفن الحرب فحسب الى هذا الحد .. وهناك عدد كثير من التعاريف اوردها القادة الكبار والمنظرون ، بعضها تشير الى هذا النوع من التخصص ، واخرى يتعداها لتشمل مجالات متعددة اخرى (السياسة والاقتصاد ، والقيم النفسية والمعنوية ... الخ) .

ومن التعاريف التي تحدد على الاغلب ، السمة العسكرية للعمل الستراتيجي، نورد عدداً منها على سبيل المثال وليس الحصر، كما في ادناه :ـ

« الستراتيجية : هي استخدام الاشتباك (المعارك) للوصول الى هدف الحرب » .

(كلاوزفيتز)

يعيب ليدل هارت على هذا التعريف ، لانـه يخلط بين مسـؤوليات السلطات العليا في الدولة وبين عمل القادة العسكريين ...

قد يكون هذا النقد صحيحاً ، لو كان هدف الحرب الوصـول الـى السلم ، كما اثبت ذلك ليدل هارت نفسه ، في حين ان هدف الحرب في نظر (كلاوزفيتز) لم يكن البحث عن السلم ، بل حدده في (القوات الرئيسية للعدو ومركز ثقله ، وعليه فأن هدف الحرب وفق هذا المنظور يحددها رجل الحـرب نفسـه .

- وعرفها (ريمون آرون) « بأنها قيادة مجمل العمليات العسكرية»[١٢]
- وعرفها (فون مولتكه) « بأنها اجراء الملائمة العمليـة للوسـائط الموضوعة تحت تصرف القائد الى حد المطلوب »[١٣] .
- كما ويقدم ليدل هارت تعريفاً للاستراتيجية قائلا :

« الاستراتيجية هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائط العسكرية لتحقيق هدف السياسة »[١٤] .

ويعلق الجنرال اندريه بوفر على هذا التعريف قائلا : لقد كتب ليـدل هارت في عـام ١٩٣٩ هـذا التعريف الذي لا يكـاد يبتعد عن أقـوال (كلاوزفيتز)[١٥] .

---

(١٢) كتاب آراء في الحرب – تأليف اكرم ديري ص ٢٦ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشـر .

(١٣) نفس المصـدر ص ٣٢

(١٤) الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، ليدل هارت ص ٣٩٩ .

(١٥) مدخل الى الستراتيجية العسكرية – اندريه بوفر ص ٢٧ تعريب اكـرم ديري والهيثم الايوبـي .

أن تعليق الجنرال (بوفر) هذا لا شائبة فيه ، لان تعريف ليدل هارت، والتعاريف الاخرى وبضمنها تعريف (كلاوزفيتز) الآنف جميعها تعـاريف محددة للطابع العسكرية للعمل الستراتيجي فحسب •

هذا وقد لا يحتاج المرء كثيراً من العناء ، لكي يكتشف ، كون اذهان واضعي التعاريف المذكورة ، حينئذ ، كانت متجهة مباشـرة نحو العمـل الحربي ، ولكن من الواضح انها في طياتها تتضمن شـيئاً من الخلط فـي مستوى العمل (الستراتيجي ، والتعبوي ، والشؤون الادارية) •• بالاضافة الى انها تعتبر تعاريف ضيقة ، لا تتعلق الا ، بالقوى العسكرية وان العيب الاكبر فيها هو ، انها تتعلق بهذه الصورة بالفن العسكري الذي يقسم عادة بموجب العقيدة الغربية الى :ـ

الستراتيجية العسكرية (السوق)
التكتيـك (التعبية)

ويميل بعض المنظرين العسكريين الغربيين الى اضافة الشـؤون الاداريـة (اللوجستك) الى هذا التقسيم •

وان التعاريف الآنفة بهذه الصورة تدمج بين الستراتيجية والتعبيـة والشـؤون الادارية ••

ومن الجدير بالذكر ، ان هذه المستويات ترتبط عند السوفيت بالمكان والزمان ، وحجم القطعات العاملة ضمن حدود الزمكان •• أي أن :

« كل عملية عسكرية تقوم به وحدات من مستوى ، الحضضيرة ـ حتى الفرقة تعتبر عملية «تعبوية» •• ومن مستوى الفرقة ، وحتى جيش ميداني (المؤلف من عدة فيالق) تعتبر «عمليات» ومن مستوى جيش ميـدانـي ، وحتى مجموعة الجيوش تعتبر عملية «استراتيجية»[١٦] ولا يعترف الروس

---

(١٦) العقيدة الشرقية ـ (محاضرات كلية الاركان) ـ الرائد الركن عزيز قادر

بما يسمى « بالستراتيجية العليا او الشاملة » ، فهي في نظرهم « سـياسـة عليـــا » .

وبالمقارنة ، يبدو لنا ، من الناحية الظاهرية ، ان السير وفق مســار الفكر الشرقي السوفيتي قد يخلص افكارنا من التشـابك ، والغمـوض والتناقض ، غير ان الواقع غير ذلك تماما •• لان هذا التقسيم الســوفيتي المصطنع المادي ، يقيناً ، يضم في طياته شئاً من التداخل الكثير ، لا يمـكن للفكر البشري باللجوء الى خلق حدود فاصلة مصطنعة ، أن يجد ، ملاذاً له من التشابك والغموض والتناقض القائم في العالم الواقع ••

فأن الاعمال التي يتم انجازها ، في منطقـة الفيلق ، ضمن مخططـه الخاص ، لصالح وحدات امامية مثلا •• ضــمن أية منطقــة عمل يمكن اعتبارها ••؟• وبالتالي مثل هذا العمل يعتبر عملا تعبوياً •• أم عملياتياً •• أم استراتيجياً ؟ •

لا جواب على هذا التساؤل عند السوفيت ، بل هناك الصمت ، ولكن يرافقه سياق العمل المركب ••

ومن ثم ينبغي عدم تجاهل فائدة التقسيم والتمايز بين الاشياء ، بـل وبين المفاهيم ، بغية الدراسة وايجاد الحلول المناسبة لها •• كما وينبغي عدم اغفال العادة الفكرية لدى رجل الحرب ، ألتي تقوده الى تقسيم الوسائـل المتوفرة الى ماهو ضروري ، وماهو ثانوي . ويجب أن يميز وفق هذه العادة بين المخططات الجوهرية ، والاضافية ، الا ان الشكلية ، والنظام العسكري الصارم ، وكسل الفكر اللامسؤول والرغبة الادارية العسكرية اكثر ممـا ينبغي في التقسيم والتضنيد ، تدفع الفكر العادي نحو خرق قاعدة التمسك بالجوهري الوحيد أحيانا ••

وقد ينجم ذلك عن فكرة تقسيم « المهمة » الى الاجزاء بغية تسهيل عملية التنفيذ بشكل أفضل ، ذلك لان الجيش يقسم ويجزىء دائما المكان والزمان • ويعلم توزيع الواجبات ، وبناء عليه فأن هدوء رجل الحرب (بالمناسبة) يأتي من معرفته بحدود واجباته ومسؤوليته : يعرف العدو الذي يقابله ، والقوات المجاورة والقطاع الذي ينبغي الدفاع عنه ، والخط الذي لا تراجع بعده •• هكذا الجيش دائما يقسم الاشياء لدرجة انه يطلق أسماء على أجزاء الجيش يدل على نزعة التقسيم : الوحدة ، والوحدة الفرعية ، الفرقة ، الفيلق[١٧] ••

على هذا الاساس أن الفكر العسكري نجده لا يزال ميالا الى تقسيم الاشياء واقامة حدود الفاصلة ، والتمايز ليس في الاشياء فحسب، بل يتعداها الى المفاهيم •• ويلاحظ ذلك في تقسيم المعركة الى صفحات القتال (الهجوم والدفاع ، والتقدم ، والانسحاب) من الناحية النظرية والاكاديمية ، مع ان المعركة عملية واحدة متكاملة ، من الناحية العملية لا تتجزأ ••

ومن المعلوم ان التقسيم حيوي ومفيد للمفكر ، ورجل الحرب في آن واحد ، أذا لم يكن تقسيما اعتباطيا •• ومن المؤكد ان من الممكن تقسيم أي موضوع الى جزئين او اكثر •• بغية دراسته ووضع حلولا له بشكل أفضل ••

لقد علم افلاطون ان التقسيم الصحيح هو التقسيم الى جزئين ، ومن الجدير بالذكر حقا ، ان معظم المفاهيم التي نستخدمها عادة ، هي مفاهيم مبهمة ، مختلطة ، تغلف تحت المظهر والحد مفهومين متباينين •

أن التمارين الذهنية للتمييز بين المفهومين لمظهر واحد أو بالعكس بين المظهرين لمفهوم واحد ذات فائدة كبيرة ، تساعد الى حد بعيد الرؤية الداخلية

---

(١٧) كتاب الفكر والحرب ــ جان غيتون ص ٥١

للفكر •• هذه التمارين التي مارسها الفلاسفة والمفكرون ، وأعطت للفكر دفعاً قويا الى الامام ••

وقد ميز ارسطو : بين القوة والفعل •• وبين الاستقراء والاستنتاج •• وبين الحركة والطاقة •• الخ •

وميز باسكال : بين الغريزة والعقل •• وبين الهندسة والدقة • كما ميز بيرغسون بين الذاكرة الصرفة ـ والذاكرة العادة •• وبين الدين الجامد والدين الديناميكي •• الخ• واشار جان غيتون الى الفرق بين الشيوعية والجماعة •• وبين البلفة والتهديد •• وبين الدعاية والتأثير •• وبين الحرية والاباحة •• وبين العبودية والطاعة[١٨]•••

على هذا فان الفكر الغربي ، يرى التمايزات مفيدة ، وقادرة على دفع التأمل في الحرب الى الامام ••

بيد أننا لو توغلنا بمقدار اكبر في بطون الكتب والمؤلفات قد يضيع أفكارنا في زحمة التعاريف المتحذلقة والمتشعبة ، ومن جراء التشابك والخلط بين المفاهيم الخاصة بالحرب والستراتيجية والتعبية والسياسة وغيرهما • • فأذا تحرينا عن العلة •• دلنا التحميص ، بانها ناجمة عن تطور فن الحرب وتعقيدها ، فلم تعد تقتصر العناية بالحرب على رجال الحرب انفسهم ولا على رجال السياسة بمعزل من غيرهم ، بل كما قال (جان غيتون) وذكرناه سابقا ونكرره هنا : ان رجل السياسة ورجل الاقتصاد ، والفيلسوف والرجل العادي ، أحسوا جميعا ، بأنهم معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجبهم الاهتمام بالاستراتيجية • وعليه فقد اتجهت الانظار ، (كما نوهنا عنه سابقا) نحو هذه العلاقة القائمة في عصر النووي ، وتكنولوجيا الحربية المتطورة، والتقدم العلمي ، وتعقيدات الاقتصاد ••• بين الفكر والحرب الستراتيجية

(١٨) المصدر السابق ص ٥٢ •

.. فمن هذا التشابك والتداخل في المفاهيم والافكار وتباعاً ظهور تعاريف مركبة لكلمة الستراتيجية ، مما دفع المفكرين والمنظرين والقادة الى سبر أغوار الستراتيجية ، وتشعباتها ، وانواعها ليس من حيث الدرجة فحسب بل من حيث الطبيعة ايضا ... وذلك بغية تشخيص نشاطاتها ، واخضاعها للدراسة والتدقيق بصورة منهجية أسوةً بالعلوم الاخرى .

ومن الجدير بالملاحظة ، منذ نصف الثاني من القرن العشرين أزداد أهتمام الدول بالدراسات الستراتيجية ، وتكاد الان لا تخلو دولة من الدول المتقدمة ، وعدد من دول العالم الثالث ، من اكاديميات او معاهد للدراسات الستراتيجية ، تضم تحت سقوفها وأروقتها ، نخبة من خيرة الرواد الاستراتيجيين والمفكرين والفلاسفة والمنظرين والقادة العسكريين-والمدنيين من مختلف الاختصاصات ، تقوم بدراسات عميقة وتفصيلية لكافة امكانات الدولة وقدراتها ، وعلى جميع الاصعدة ، وابراز نواحي القوة والضعف فيها .. وهي تقوم اليوم بتقديم النصائح الضرورية اللازمة الى حكوماتها للاستعانة بها ان شاءت ، في ملاءمة سياساتها مع الوسائط والموارد الستراتيجية المتاحة ، وهذه هي قمة العمل الاستراتيجي[١٩].

أما فيما يتعلق في موضوع دراستنا هذه ، فقد يعترض البعض على هذه الفكرة ، لعدم جدواها ، على اعتبار ان السياسة تنبثق عادة من الفلسفة التي تتبناها الدولة أو من العقيدة التي تبني سياستها على مبادئها ، وان الدراسات الاكاديمية تتسم عادة بالجمود والتجريد في حين المسائل العليا

(١٩) ونحن نفتقر في العراق الى مثل هذا المعهد (للدراسات الستراتيجية - السوقية) ونعتقد بان الوطن بحاجة اليه ، ونأمل ان يلتفت المعنيون الى هذا النقص والعمل على اكماله الى جانب المنجزات العظيمة التي تمت لحد الآن في عهد ثورة ١٧-٣٠ تموز المباركة وقبول هذه الملاحظة كاقتراح في هذا المكان ..

بحاجة الى المواهب الخلاقة والعبقرية التي تعطي الوجود لما لا وجود له على حد تعبير نابليون •

ولكن يمكننا ان نجد الرد المناسب على هذا الاعتراض في مقولة بسمارك التالية :

« من الحماقة ان نرغب في اشياء لا نستطيع صنعها »[٢٠] ويقودنا هذا القول الى الانتباه لمبدأ استراتيجي ثبت صحته منذ قرون وهو :«ضرورة مطابقة الوسائط المتوفرة مع الاهداف المرجوة » وهذه لمعة من لمعات العبقرية في حد ذاتها •

وقد لا يكون من الانصاف ، انكار الجهود الفكرية الرائعة التي قدمها رواد الاستراتيجية الاوائل أمثال (جبير ، جوميني ، كارل فون كلاوزفيتز، ليدل هارت ، فوللر ، بير نافيل ، كامي روجرون ، جان بيريه ، ريمون آرون ، ماهان ، ماكيندر ، هاوتزهوفر ، دوي ، دوهيه ، ميكشه •• والرجل المدني (جان غيتون) الذي أول من تكلم عن الميتاستراتيجية ••• وأن اشادة لينين بأفكار كلاوزفيتز بحق تنتطبق على اعمال هؤلاء الرواد جميعا «اضحت أفكارهم الاساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكل مفكر »[٢١]•

وعليه يتعين بالضرورة على كل من ينوي القيام بدراسة الحرب والستراتيجية ، فلابد من الارتكان بأعمال هؤلاء والاستعانة بأفكارهم وبخمائر نظرياتهم ، والاسس والقواعد التي صاغوها ، كل على الانفراد •

ولا غرو ، أذا كانت في كتابات الاولين من هؤلاء الرواد (جبير وجوميني ، وكلاوزفيتز) كثير من الاجزاء قد شاخت وهرمت ، وانا لن نجد فيها الجواب على كل الاسئلة ، ولا حلولا لكل المشاكل التي تواجه الرجل

---

(٢٠) لا اتذكر أين قرات هذه المقولة لبسمارك ••

(٢١) راجع الفصل الثامن عشر من الكتاب •

العسكري اليوم ، في عصر الصواريخ والقـــابل النووية والحاســـبات الالكترونية ، والاقمار الصناعية ،••• ولكن شروحاتهم واسهاماتهم الفكرية لا يمكن ان تلقى جانبا برمتها •••

هذا مادفعني الى القيام باستقراء بعض تلك الاسهامات المتوفرة لدي مجدداً ، مع محاولة القيام بأجراء شيء من الملائمة بين المفاهيـــم الموحدة أصلا لمظهرين أو اكثر – والاشارة الى الافكار التي أضحت راسخة بعد أن ثبتت صحتها وآخرى ظهرت أخطاؤها مع انني واثق من عدم قدرتي لتجنب كل الثغرات ، والحلقات المفقودة في هذا السبيل او رأب صدعها جميعا •• ألا انني أحس بضرورة التفكير المستمر بمثل هذه المواضيع ومتابعةتطوراتها ومعالجتها ، حتى ولو كانت المعالجة غير متكاملة ••

وهذا ما سأحاوله في الفصول القادمة •

الفصل الخامس عشر

- اقسام الستراتيجية السوق وشمولها :-

الفصل الخامس عشر

اقسام الستراتيجية (للسوق) وشمولها :

ان الاستراتيجية واحدة في جوهرها ، ولكنها تنقسم خلال التطبيق الى عدد من الستراتيجيات المتخصصة .. كل واحدة منها تصلح لحقل من حقول النزاع فقط ، عليها ان تأخذ المعطيات الفكرية ، والقيم المعنوية والنفسية والمادية ، بعين الاعتبار ..

وعليها كذلك أن تعي ، صفات معطيات المادية على وجه الخصوص ، في كل حقل من حقول النزاع التي تؤدي الى نتائج مختلفة حسب طبيعة كل حقل .. فالستراتيجية البحرية مثلا مختلفة عن الستراتيجية البرية والجوية ..

وهناك ستراتيجية عامة ، تقوم بدور التوجيه وتوزيع الادوار والقوى بين مختلف المرافق والانشطة ... هكذا نجد أنفسنا امام هرم حقيقي من الستراتيجيات المتباينة ، ولكنها مترابطة مع بعضها البعض ، يكون من الضروري تحديدها جيداً لتأمين توافقها على أحسن وجه ، داخل مجموعة من الاعمال تسعى الوصول الى الهدف نفسه .

ويلاحظ وجود تباين في تقسيم الستراتيجيات من حيث درجتهاوطبيعتها مع فروقات لفظية واضحة ..

وقد آثرنا على تسمية التقسيمات الستراتيجية من حيث درجتها (أي مستوياتها) « الاقسام » وتسمية تفرعاتها من حيث الطبيعة « الانواع »

أقســام الستراتيجية (السوقية) من حيث الدرجة :

١ ـ الميتاســتراتيجية :

تقع «الميتاستراتيجية» في قمة هرم هذه الســـتراتيجيات ، وتخضـع مباشرة للفكرة الفلسفية ، وتسعى لتحقيق انتصار هذه الفلســـفة وفـق رأي (جان غيتون) •

أن فكرة الميتاستراتيجية التي كتب عنها (غيتون) في احدى مقالاتـه التي تضمنها كتابه بعنوان ـ الفكر والحرب ـ تنبع في الاساس من أنفلسفة ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) وهي الجزء العلوي من الفكر ، فأن مايقابلها في مجال العمل هو «الستراتيجية الشاملة » وعليه فانه من هذا المنطلق ، بحث الستراتيجية ، تحت كلمة «الميتاستراتيجية» باعتبارها عملا فلسفيا •••

ومن الجدير بالذكر ، ان الكاتب (جون غيتون) يحاول في هذا الجزء من كتابه معالجة موضوع الستراتيجية (السوق) تحت ظروف، وتوقعـات نشوب الحرب الكونية وفناء العالم ، ولا يستبعد وقوعها ، بالاستناد على التحليل النفسي ، لغريزة البقاء عند الانسان الاجتماعي ، وكما ويحـاول جلب الانظار على ان العالم اليوم ، يعيش تحت سيف (ديموقليس)[1] وعليه

---

(١) سيف ديموقليس : اسطورة تقول : ان «ديموقليس» كـان مقربـا من « دينيس » طاغية سيراكوزا في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد • وكـان يكرر امام الطاغية باستمرار الحديث عن ســعادة الحـــكم • ولقد اراد « دينيس » ان يرد عليه بشكل عملي ليؤكد له عدم صحة مقولته ، فسلمه منصبه ليوم واحد ، ولقد احس «ديموقليس» بسعادة كبيرة • ولكنـه شعر خلال المأدبة التي اقيمت له بهذه المناسبة ، ان هناك سيفا ثقيلا معلقا فوق رأسه بشعر ذيل حصان ، وكان « دينيس » قد علق هذا السيف ليكشف لديموقليس بشكل محسوس مدى القلق الذي يحس به الحاكم ويحرمه من التمتع بالسعادة •••

انطلاقا من هذه الاسطورة ظهر تعبير « سيف ديموقليس » وانتشر استخدامه للدلالة على الخطر الدائم المسلط على شخص او امة • وعلى العالم اليوم تحت تهديد الاسلحة النووية •••

فأن الجميع معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجبهم الاهتمام بالستراتيجية، وايصالها الى مرتبة تعلو عملها الاعتيادي ، الى الميتاستراتيجية ، أي بعبارة اخرى ، الى ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقية) .

وقد وجدت من الضروري والمفيد ان يتضمن كتابنا هذا، الشروحات التي قدمها في نهاية كتابه المشار اليه ، نصاً ، لاهميتها ومسايرتها لخط تفكيرنا المركزي في هذه الدراسة ، مع اضافة بعض التوضيحات وملاحظات بحسب مقتضيات الضرورة .

وقد كتب حول « الميتاستراتيجية » قائلا (٢) :

« في العام ١٩٣٣ كان الفيلسوف هنري بيرغسون ، يطرح على نفسه أسئلة مخفية أمام تسارع العلم والتقنيات . ولربما كان السؤال التالي هو السؤال الذي طرحه على نفسه واضع قصة سقوط آدم ، او قصة برج بابل» «في السياق الذي يمضي به العلم ، يقترب اليوم الذي سيكون فيه أحد الخصوم ، بسبب سر يحتفظ به كاحتياط ، ممتلكا الوسيلة ، لازالة الخصم الاخر وقد لا يبقى أثر المهزوم على وجه الارض » .. وفي مقطع آخر يقول (بيرغسون) في صدد الآلام الابدية لشخص بريء : آه ! كلا ! الافضل قبول أن لا يكون أي شيء موجوداً ، الافضل ترك الكوكب الارضي ينفجر »[٣] .

كل هذا قبل تموز ١٩٤٥ ، وقبل آذار ١٩٥٤ ، وقبل هيروشيما ، وقبل ظهور القنبلة الهيدروجينية .. وماجرى تصوره بصفته ممكناً في المستقبل البعيد ، اصبح واقعيا يتعذر كبحه ..

ولاشك في ان الطاقة الذرية تتضمن افاقاً سليمة ، يمكنها تطوير الحضارة وتنظيم الارض .. وقد بدء بالعمل في هذا الاتجاه الخير منذ

---

(٢) الفكر والحرب ـ جان غيتون ص ١٣٧ .

(٣) منبع الاخلاق والدين ص ٧٥ ـ ص ٣١٨ ـ بيرغسون .

العام ١٩٥٥ ولكن مالم يشاهد حتى اليوم هو ظهور ابتكار مضاد ، تقني أو حقوقي ، يوقف تقدم السلاح المطلق(٤)، وكبح انتشاره •• وهذا مايذكرنا بالفكرة القديمة قدم العالم ، والقائلة : بأن العلم أقدر على التدمير منه على البناء •• وعلى التفريق منه على التوحيد •• وأن ثمرة المعرفة سره ، ليس بسبب المعرفة بل بسبب الانسان نفسه ••

لقد كان الحكماء الذين صاغوا هذا القانون الكئيب ، مفكرين دينيين ومصلحين ، ومفسرين للتأريخ المأخوذ في كليته ، واعماقه ولحجه •• وكانوا يرون في آن واحد مستوى الجسم البشري (أي مستوى التدميرات) ومستوى الروح (أي مستوى الابتكارات) والمستوى المأساوي للاختيار بين الخير والشر ، بين الكائن والعدم •

ان هذا المستوى الثالث مستبعد في الستراتيجية الراهنة بسبب نوع من العجز والخوف ، والسياسة ، أو بالرغبة المحمودة في طمأنة الطرف الاخر ، وطمأنة الذات ••

ولدى العودة الى الستراتيجية التي تشكل مجال بحثنا ، يحق لنا ، أن تتساءل ما أذا كان بوسعها ان تتشكل (كعلم) مع اغفالها القضايا والحقائق الميتافيزيقية والاخلاقية ••؟

حتى الآن لم يكن على الستراتيجية ان تهتم بالمسلمات المسبقة ، لقد كان بأستطاعتها التكون ، دون اللجوء الى ميتاستراتيجية ، ذلك لان الجميع كانوا موافقين على مسلمات معينة مثل :

ان المحارب لا يمكن ان يعمل ضد ذاته •
وان الجنود لا ينتحرون بالجملة •
وان عدم الانضباط يدمر الجيش •
وان موت البعض يضمن بقاء الآخرين على قيد الحياة •

---

(٤) المطلق : يعني السلاح النووي •

وان الوجود افضل من العـــدم

ومع ان المحاربين كانوا يملكون دائما الوسيلة لتدمـير او لتشـويه أنفسهم فأنه لم يسجل بالاجمال سوى عدد قليل جدا من حوادث الانتحار أو التشويه في الجيش ، نظراً لقوة غريزة الحياة ، ولقوة الوهم بأن الآخر يموت وليس أنـا • لقد كانت الحرب على الدوام ، تقريبا ، حربا مقدسة ، نظراً لوضعها في خدمة الدين ، أو اللاهوت ، أو سر روحاني ، أو ايديولوجية، ولكن نظراً لان ذات المبادىء الفلسفية ، والاخلاقية حول الوجود ،والحياة، والطبيعة البشرية ، بل وحتى حول الشرف ، كانت مقبولة من قبل الجانبين المتصارعين ، فأن الستراتيجية المثقلة بميتافيزيقية ، مضمرة ، كان يمكنهـا الاستغناء عن التساؤل حول الميتافيزيقية ، وعن القيام بأختيار ميتافيزيقي••

ولا يزال الستراتيجية ، تتقدم من هذا المنطلق ، ولا تزال نفترض بعض المسلمات التي لا تخضع للتقادم ، ولا تقبل الاعتراض ، وهي :

ان الحياة جيدة ••• وأن الموت الجماعي يمكن تلافيه ••• وأنالحرب تنتهي بالانتصار او العودة الى الحالة السابقة •••

وامام ظهور «المطلق» ، لم تغير الستراتيجية كثيراً من نمطها في التفكير• أنها تتحدث ولا شك عن السلاح «الاستثنائي جداً» و « الذي لا سابق له في التأريخ » وهي تتصور عواقب اندلاع الحرب ، بل أن بأستطاعتها أن تتوقع ببرود الامكانات الرهيبة جداً بالنسبة الى الجنس البشـــري أثـناء الحرب وبعدها[٥] ولكن الجميع يقبلون الافكار القائلة :

---

(٥) لا ادري اين قرأت هذه العبارة الثقيلة ، ولكنها الصحيحة : « تجـــري المحاولة لتقدير ماسيكون عليه ، في حالة الضربات الذرية المتبادلة عـلى المناطق المأهولة ، النسبة المئوية للخسائر وعواقبها على بقاء الحضارة•• ان الاتساع الكبير للدمار يمكن ان يستتبع ليس فقط نهاية المـراجـع الايديولوجية ـ الدينية والاجتماعية ـ الاقتصادية التي تحملها حضارةما، بل المكتسبات العلمية والتقنية القادرة وحدها على ان تدفع ســيطرة الانسان على المادة •• ـ جان غيتون ـ •

« ان الانسان الاجتماعي لا يمكن ان يرغب في تدمير ذاتــه •• كمـا لا يمكن أن يرغب في تدمير عدوه ، أذا كان تدمير العدو يســتتبع تــدمير الـــذات » • وهذا مايمكن التعبير عنه كما يلي :ـ

« أن مفهوم الانتحار المتبادل بين الامم أمر مستبعد » •

أذا اردنا التفكير في هذه المسلمة الضمنية ، لاحظنا أنها تتضمن فكرة وجود فرق في الطبيعة (لا في الدرجة) بين الانسان الفـردي والانســان الاجتمــاعي ••

ويعرف الجميع أن هناك بالنسبة الى الاسان الفرد ظروفاً قاســية ، وآلاما يستحيل احتمالها ، وحالات يأس بالغة الحدة ، وأن مثل هــذه العوامل تدفعه ، وتجبره على تدمير ذاته ـ أذا لم تمنعه من ذلــك فـكرة واجب مطـلق •

والمعروف أيضا ، وان كان الناس لا يجرؤون على قول ذلك ، ان اليأس لا يحكم فقط على وجوده الذاتي ، بل يمكن ان يحكم ايضا على الوجـود كله •• وبعبارة اخرى نقول :

حين يقوم كائن واع منطقي مع ذاته ، بأدانة الوجـود ، فأنـه يدينه بصورة شاملة •• وأذا امكنه ذلك ، فانه سيجبر الى العدم اولئك الـذيـن لا يمتلكون شجاعته وصفاء بصيرته ••• فاذا كان هذا اليأس ذو البصيرة الصافية يمتلك القدرة ، فانه قد يقدم على «تفجير الكوكب» ، كما يقــول بيرغسون •• ولنجرؤ على القول : أن هذا العمل سيكون قابلا للتبرير •• وذلك لان الحياة أذا كانت حقاً مهزلة من الوهم والعذاب ، أو حتى أذا كانت مرحلة مؤقتة لطيفة بين عدمين •• فان بالامكان امتداح من يلغيها بدون ألم بالنسبة اليه ، والى عدد كبير من الناس ، ولن يكون عمله في الحقيقة سوى تنفيذ الفعل الذي علمه ضمناً العديد من أساتذة التفكير الذي لم يكن لديهم الشجاعة المخفية اللازمة للمضي حتى نهاية منطقهم ••!

وسيقال لي ، هنا ايضا ، أن الانسان الاجتماعي كائن عاقل ، واذا كان الانسان الفرد مجنونا : فأن الجماعات البشرية لا تيأس ..

ان هذا يفترض مسبقا ان مأساة الانسان تحمل عقدتها وتنفرج عند الانتقال من الحياة الفردية الى الحياة الاجتماعية ، كما أنه يفترض انالانسان الجماعي يمتلك مزايا الحكمة التي تنقص الانسان الفرد والمنعزل . ان هذه الافكار تؤجج بصورة خفية فكرة التقدم . فالتقدم العلمي ، تقدم جماعي تراكمي ، وهو يعوض بأستمراريتهماينقص عدم اســـتمراريـة الحيوات البشرية . ونظراً لان تقدم العلوم ، يبدو لنا كنموذج لجميع حالات التقدم، فأننا نتصور أن الانسان الجماعي يغير طبيعته .. ونعود الى الموضوع الذي يشغلنا ، فأقــول :

« أن الستراتيجية الذرية ، تهمل بسبب منهجي الفرضيــة المتعلقة ، بأمكانية حصول فعل جنوني مميت » .

ويكفي أن نتذكر المقولة الاساسية لهذه التأملات ، لنلاحظ أن العمل اليائس يمكن ان يظهر بشكل لا يمت الى اللاعقلانية اطلاقا ـ منذ أن يدخل اللامتناهي ميدان اللعبة .

لقد تحدثنا عن الاغراء الذي يتعرض له قائد شعب ما أمام امكانيـة الظفر بالامبراطورية الكونية الشاملة ، والى الابد ، وهو اغراء لا يستلزم أي أنتحار ، أفرديا كان أم جماعيا .. ولكن اغراء اليأس سـيكون اكثـر احتمالا حين سيصبح شعب مالك للذرة ، مهدداً بالعبودية المادية او الروحية، وينتشر بين صفوفه شعار «الموت اولى» أفلن يكون الانتحار في هذه الحالة أرفع شجاعة وأسمى تعقل ..؟ . أفلم تقر البشرية دائما بأن الموت أفضـل من فقدان اسباب الحياة ..؟. ولنتصور العكس ، فهو اكثر احتمالا فـي الحالة الراهنة للرأي العـام ..

حين نراقب الحالة الراهنة للامم ، ونراقب في الامم حالة الضمائر ، نلاحظ في الواقع ان الرابطة الاجتماعية تتدنى ، أن أمماً كانت تبدو منيعة لا يمكن تدميرها ، تفقد حريتها .. ومنذ عام ١٩٤٠ أعتدنا على فكرة ، أن امة قوية ، مستقرة ، واثقة بنفسها يمكن ان تنهار وقد رأينا أمماً تشطب من خريطة العالم .. ونحن نعرف أن كل أمة قابلة للعطب اكثر بكثير مما يظن ، وأن عظمتها وهيبتها ترتكزان على قشة هشة . كما أن المؤسسات الاكثر أستقراراً ، والمعتقدات الاكثر شيوعا ، والاديان ذاتها ، معرضة للتهديد .. ويمكننا التفكير وفق المنطق التالي :

« أن الانسان الذي يجابه العدم ، ويؤمن بأن الحياة بلا معنى ، او يؤمن بأن العالم المجرد من الانسانية والحضارية والحيوية اثر تبادل الضربات الذرية ، سيقدم فرصة ضئيلة لوجود كريم ، أن هذا الانسان يمكن ان يفقد الحد الادنى من الثقة الغريزية الذي تغدو الحياة بدونه غير ممكنة ، وفي مثل هذه الحالة يصبح الموت أفضل من الحياة ، ويتجه المرء نحو تفضيل اللجوء الى العدم ، بل وجر الاخرين اليه ..

ومن الممكن أيضا ان نفقد فكرة « التمسك بالحياة » الحافز والزخم اللذين احتفظت بهما حتى الان ، هذه الفكرة التي كانت تؤدي الى تشبث الاحياء بالحياة في افضع الظروف (حتى على طوف) « ميدوز »[٦] او في (معسكرات الاعتقال) وسيقال لي ، أن المصابين بمرض عضال يتعلقون بأصغر أمل . ولكن هؤلاء افراد ، ويمكننا ان نتساءل ماذا سيحدث لو ان البشرية

---

(٦) ميدوز – اسم مركب غرق عام ١٨١٦ على مقربة من شاطىء افريقيا الغربي ، فلقد نجا من الغرق ١٤٢ شخصا ، استطاعوا الركوب على ظهر طوف ، وبقوا في البحر ١٢ يوما يصارعون الموت ، ويتشبثون بالحياة ، واخيرا شاهدوا مركب شراعي صغير الطوف وتم انقاذ الاحياء الباقين على متنه وعددهم ١٥ شخصا في حالة الاحتضار . ولقد خلد « جريكو » هذه الحادثة بلوحة رسمها في العام ١٨١٩ وهي الان في متحف اللوفر بباريس .... (اكرم ديري والهيثم الايوبي) .

في مجملها غدت على يقين بانها يمكن ان تهلك بين لحظة واخرى ، لان قمرا صناعيا معاديا (مثلا) يدور حول الارض ، مثل سيف (ديموقليس) ..؟ هل يمكن احتمال ذلك زمنا طويلا .. ؟ أفلا يحتمل ان نشهد عند شعوب معينة ، بعضها اكثر بدائية من غيرها ، والبعض اكثر سأماً ، تخمر الفكرة القائلة بأن من الافضل الخلاص من الحياة نهائيا والى الابد ..

كل هذا أوردناه لنقول أن قضايا الاستراتيجية ستفضي الى الميتافيزيقيا .. وذلك لان الفعل النووي سيتوقف على مفهوم ميتافيزيقي ، وليس فقط على مفهوم سياسي . وهذا مايدفعني الى الحديث عن «ميتاستراتيجية». ان القضايا العليا المتعلقة بمعنى الحياة والاختيار بين الكل واللاشيء ، لن تكون بعد الآن عرضية ، أو محدودة بشكل يسمح بأهمالها ، او محصورة في ميدان الضمائر والمعتقدات الفردية ، بل ستهم الستراتيجية ذاتها ...

وقد اصبح من المهم الآن معرفة ما اذا كان بوسع البشرية ان تفكر في الانتحار ، خاصة لديها الوسائل لذلك .. لقد قال « ألبير كامو » ان قضية الانتحار هي في النهاية ، القضية الفلسفية والخلفية الوحيدة التي تواجه بصورة خفية كل ضمير .. وأن هذه القضبة التي غدت منذ الان قضية جماعية ، تظل في قلب الميتاستراتيجية ، التي لا يجري الحديث عنها ، ولكن التي لا يمكن ان يكف عن التفكير فيها الاستراتيجيون الذين يتعاملون مع الاستراتيجية بعمق ...

أن هذه القضايا الميتافيزيقية ، وقضايا الميتاسياسية ، والميتاستراتيجية، لم يعد بالامكان اخفاؤها دوليا وراء صمت الحياء البورجوازي الغربي والصحافة اللامبالية ، والاذاعة المحمية بالرقابة ..

لقد دهش البعض ، لان الشباب أظهروا كل هذا العنف المدمر ، الذي بدا وكأن هدفه العدم وليس المستقبل[٧] .

---

(٧) ويقصد انتفاضة طلاب جامعة السوربون عام ١٩٦٨ ، علما بأن العنف الطلابي بدأ يتكرر في عام ١٩٨٦–١٩٨٧ .

ولكن أذا كنتم تعلمون هؤلاء الشباب المنطقيين مع انفسهم ، انالحياة عبثية ، لا معنى لها ولا غاية ، وان بطلان المعتقدات كلها ممكن مثل صحتها كلها •• وان بالامكان تفسيرها بواسطة علم الاجتماع او التحليل النفسي، فلماذا تصابون بالدهشة ، أذا ما استخلص الفتيان من ذلك النتائج الجديدة ••؟ •

لم تعد الميتافيزيقيا والاخلاق بعد الان معزولة داخل الضمائر الفردية، بل انها تغادر سر الضمائر ، وتتدرج في التجربة في السياسة ، والقضايا الدولية وحسابات الستراتيجية ••

لقد هبط «المطلق» الى الارض ، عبر طريق الارهاب ، فان المعقول واجب الأداء ، تحت طائل الموت « خطر الموت » •• هاتان الكلمتانمكتوبتان (بصورة غير مرئية) في كل مكان ••

ان هناك خطر الموت ، ولكن هناك ايضا (الامل بالحياة) وهناك من يهمس (وهذا ولاشك مايفسر اللامبالاة الشاملة) بأن البشرية ستعرف المحن ولكنها لن تندثر •• أهي حكمة الساعة الاخيرة ؟ أهو حدث طارىء أم اغاثة غير محتملة ••؟ •• لست ادري ••

ولكن كل ما ادري ، هو أن لحظة الاختيار بين الأسوأ والافضل ستأتي عما قريب •• وان الستراتيجية هي الميدان الذي سيتم فيه هذا الاختيار لذلك فان الستراتيجية تهم كل شخص •

٢ ـ الاستراتيجية (السوق) الشاملة :

فلو رغبنا إبقاء «الميتاستراتيجية» خارج التقسيم والحاقها بالفلسفة والميتافيزيقية فحسب ، عندئذ يكون تقسيم الستراتيجية حسب المدرسة الفرنسية عامة و الجنرال اندريه بوفر خاصة » من حيث الدرجة كما يلي :ـ

تتربع الاستراتيجية الشاملة على قمة الهرم ، وتعتبر خاضعة مباشـــرة لادارة الحكومة (اي تكون تابعة للسياسة) وعلى هذه الستراتيجية ، فهم وتحديد سير الحرب الشاملة ، ويتلخص دورها في تحديد وتوجيه المهمـــة الخاصة لمختلف الاستراتيجيات ـ العامة العسكرية البحته (التقليدية) ـ الاقتصادية ـ التقنية والتصنيع ـ المعنوية والنفسية ، الاعلام والدعاية..الخ.

ويستخدم الانكليز غالبا و (ليدل هارت خاصة) « الاســـتراتيجية العليا» بدلا من استخدام تسمية «الاستراتيجية الشـــاملة» كما ويســـتخدم الاميريكيون «الاستراتيجية القومية او الوطنية» بدلا منها ، ..

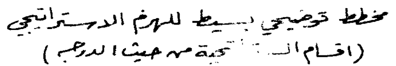
وهناك تعابير اخرى مبهمة ، ولا يعني شيء ، ولا تؤدي الا الى زيـادة بلبلة الافكار مثل الدفاع الوطني ، والاستراتيجية الكبرى والعظمى..الخ.

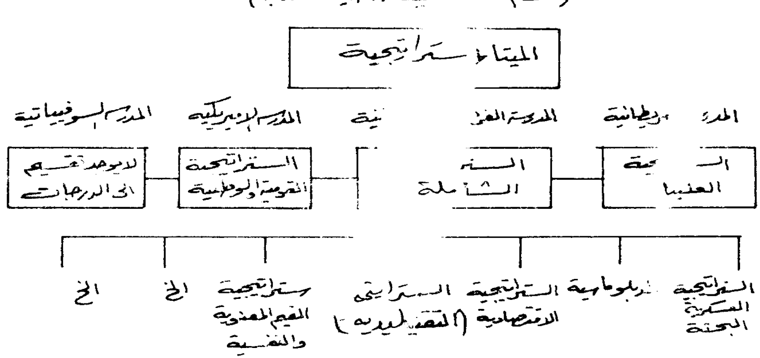
وفي الصفحة التالية مخطط توضيحي بسيط للهرم الاستراتيجي :

(تقســيم الاستراتيجية من حيث الدرجة)

وبما ان الاستراتيجية التي أميل الى تسميتها بـ (الشاملة) بدلا من التسميات الاخرى تكون خاضعة مباشرة الى ادارة الحكومة ، (كما قـلنا) فهي بهذه الصورة اذن عبارة عن نظرة فكرية شاملة لكل اوضاع البلـد ، وتقييم لكل ردود فعل هذه الدولة أزاء كل المواقف والاخطار المحتملة ... فهي تقدر وتسعى الى مضاعفة الامكانات الاقتصادية والماليـة والقـدرات العلمية والتقنية والفنية وكافة عوامل القوى الاخرى من المعنوية والنفسية وحتى الادبية ، لان أهمية تقوية ارادة الرجال وتنمية شخصيتهم ، تعـــادل أهمية الحصول على القدرة المادية ..

مخطط توضيحي بسيط للهـرم الاستراتيجي
(أقســـام الستراتيجية من حيث الدرجة)





وعليه فأن الاستراتيجية الشاملة (العليا او القومية) تتولى تـوزيـع الادوار والقوى بين مختلف المرافق والمؤسسات ، وليست الستراتيجيـة العسكرية سوى حقلا واحداً من حقول الستراتيجية هذه ••• على ذلك فأن الستراتيجية الشاملة ، لا تقتصر على النشاط الحربي فقط ، وانما تشمل كافة المجالات الاخرى •• كما لا تقتصر في ز من الحرب فحسـب بل تتـولى مسؤولياتها منذ اللحظات الاولى التي يتم فيها تشخيص الغايات السياسـية وتحديدها وفق العقيدة أو الفلسفة السائدة ويمتد عملها من السلم الى السلم الذي سيعقب الحرب في حالة نشوبها ••

في خضم هذه الملامسات الفكرية ، أحس بسؤال يزاحم تفكيـري ، ليطرح نفسه بالحاح •• هو « هل الستراتيجية (بشكل عام) وسيلة •• أم فن ادارة (الاعمال والمشاريع حربية أكانت ام غير حربية) •• أم هي مجرد نظرة فكرية ثاقبة ، مستقاة من بين عدد من الافكار الغامضة ••؟ •

ينبغي للاجابة على هذا التساؤل ، العودة اولا الى تعاريف الستراتيجية، أي الى نقطة البداية ، ذلك لان البحث عن الاجابة على هـــذا التســـاؤل، بأعتقادي ، بشكل السبب المركزي ، لظهور هذا العدد من التعاريف المتباينة والمتحذلقة •• وقد قدمنا عدداً منها فيما سبق (ص ١٦٤) وكانت منصبة على مفهوم الستراتيجية العسكرية البحتة (التقليدية) ، في حين هنالك تعاريف كثيرة اخرى ، توحي بأن الستراتيجية تتضمن ابعاداً ومعطيات اكبر مـدى وأوسع شمولا •• مما يبدو لنا وكأنه من المتعذر جـــداً ان لـم يـكن من المستحيل ، وضع تعريف دقيق وشامل في الوقت ذاته ويكون جامعا ومانعا•• والاستحالة هذه ولاشك ، متأتية من التداخل والتركيب في مجالي الفـكر والحدث[٨]•• علاوة على تشابك العلاقات بين التخصصات والمسؤوليات••

وعليه ، من الملاحظ ان بعض المفكرين والقادة والمنظرين قـد صاغوا اكثر من تعريف واحد للاستراتيجية ، مما يؤكد لنا تعذر صـــياغة تعريف واحد جامع ومانع ، يتضمن كافة مستويات الاستراتيجية •

فأذا كان لابد من العودة الى التعاريف ، نجد ان الجنرال (اندريهبوفر) في كتابه (مدخل الى الستراتيجية العســـكرية) يـورد اكـثر من تعريف وكمـا يلي :ـ

« الاســـتراتيجية هي فن اســـتخدام القوة للوصول الى أهـداف السياسة[٩]» وان هذا التعريف كما يعترف هو نفسه ، يحمل في طياته عيباً هو ، انه يتعلق بالفن العسكري ، الذي يشمل الســـــتراتيجية والتعبيــة و (الشؤون الادارية ــ عند البعض ومنهم بوفر نفسه) •

(٨) راجع الفصل الاول ــ من الكتاب .

(٩) مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ــ اندريه بوفر ، ص ٢٧

وفي مكان آخر من كتابه المذكور يعلق الستراتيجية على العبقرية بالاستناد على أقوال نابليون ، حسب نص (لويد) وقد فصلناه فيما تقدم (راجع ص) من الكتاب .

كما ويعرب عن اعتقاده في مكان آخر ، بأن روح الستراتيجية كامنة كما قال (وش) في اللعبة المجردة ، الناجمة عن تعارض الارادتين ، أنها فن الذي يسمح ، بعيداً عن كل تقنية ، بالسيطرة على معضلات كل صراع، حتى يسمح بأستخدام التقنية (تكنولوجيا) بأقصى فاعلية ممكنة .. انها اذن فن حوار القوى أو بالاحرى فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها[10] ...

ويعتبر هذا التعريف مجردا جدا وعاما لا يتمتع بقسط كاف من الدقة، ولكنه يعتبر «روح الستراتيجية» في اللعبة المجردة ... ينبغي وضعها على هذا المستوى ، لغرض فهم « آلية التفكير والقوانين الكامنة في داخله ».. غير انه يغفل أن نعرف (فوش) هذا يتضمن استخدام القوة ، ومن المعروف ان استخدام القوة ليس ضروريا دائماً .

ومع ذلك فهو يقترب من اعتبار مفهوم الستراتيجية في الاساس «فكرة» ومن بعد ذلك نجده يصوغ تعريفه النهائي الذي يقول عنه بأنه لم يتلقى اي اعتراض عليه من أحد :

« ليست الاستراتيجية في الحقيقة عقيدة واحدة جامدة ، ولكنها «اسلوب في التفكير» يسمح بتصنيف الاحداث حسب أهميتها ، وأختيار اكثر الوسائل الملائمة فاعلية ، فلكل موقف ، استراتيجية معينة ، تنسجم معه ، قد يكون أختيار هذه الاستراتيجية او تلك صائبة في ظروف معينة ، وغارقاً في الخطأ في ظروف اخرى .. وفي هذه الفكرة تكمن الحقيقة الاستراتيجية الاساسية »[11] .

---

(١٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ .

(١١) المصدر السابق ص ١٩ .

من الواضح جداً أن هذا التعريف يغلب الطابع الفكري للاستراتيجية في حققيتها الاساسية (اسلوب في التفكير) ولا يخضع لقواعد معينة جامدة (ليست عقيدة واحدة جامدة) ولكن يهمل تصنيف الافكار ، وأختيار الوسائط والتقنية ..

هكذا فان التعريف المذكور ، يشكل بمجمله ، اجابة جزئية للتساؤل الذي أثرناه ، وينصب على «الحالة الفكرية» فحسب ..

وأذا عدنا الى أقوال (ليدل هارت) نجد ان هذا الخبير العسكري المشهور ، يورد تعرفين في كتابه (الاستراتيجية وتأريخها في العالم) ، وقد اوردنا تعريفه الاول فيما تقدم (ص ١٦٥) لا يكاد يبتعد تعريفه ذلك عن أقوال (كلاوزفيتز) كما بينا ذلك في حينه ، وكان تعريفا للاستراتيجية العسكرية البحته .. وكما أن (ريمون آرون) أخذ تعريف (كلاوزفيتز) بشكل حرفي تقريبا ، ولكن أضاف ، انها والدبلوماسية تابعين للسياسة، فمن الواضح أنه قصد الستراتيجية العسكرية البحتة في تعريفه هذا ..

غير أن لليدل هارت اقوال اخرى يوضح فيها المقصود من الستراتيجية الشاملة والتي يسميها (الاستراتيجية العليا) فقد عرفها بأنها :

« السياسة التي توجه سير الحرب »[١٢] ولكن يعتبر هذا التعريف مقتضبا جدا وغامضا ، وعليه يعود ويشرح المقصود منها بشيء من التفصيل ويقول :

« على الاستراتيجية العليا أن تقدر وتضاعف الامكانات الاقتصادية والقدرة البشرية ، بقصد دعم الوحدات المقاتلة ، علاوة على دعم القوى المعنوية ، لان أهمية تقوية ارادة الرجال وشخصيتهم تعادل أهمية الحصول

---

(١٢) كتاب الاستراتيجية وتاريخها في العالم ــ ليدل هارت ص ٤٠٠ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

على القدرة المادية •• والاستراتيجية العليا تتـــولى أيضا تنظيـــم وتوزيـــع الادوار ، والقوى بين مختلف المرافق والصناعة • وعلينا أن ندرك عـلاوة على ذلك ان القدرة الحربية عامل واحد ، من العوامل الستراتيجية العليـا التي يدخل في حسابها قوة الضغط المالي أو السياسي أو الدبلوماســي أو التجاري أو المعنوي ، كلها عوامل هامة لاضعاف ارادة الخصم ••

أن مدى الاستراتيجية (ويقصد العسكرية منها) محدد بالحـرب ، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر الى ماوراء الحرب ، ونحو الســـلم الـذي سيعقبها • وليس عليها أن تكتفي بتحقيق التـوافـق بين مختلف وسـائط الحرب فحسب ، وأنما عليها أن تنظم استخدامها بغية تلافي ما يؤذي الســلم المقبل الذي يجب أن يكون ثابتا ويحق حياة أفضل »[١٣] ••

ويمكننا بأختصار ان نستشف من هذه الشروحات ان الاستراتيجيـة العليا ، في نظر (ليدل هارت) عبارة عن نظرة فكرية شاملة للتقييم والتنظيم، وتوزيع الادوار مع اعتبار القدرة الحربية عاملا واحداً من بين العـــوامـل الستراتيجية العليا •• وكما تمد انظارها الى مابعد الحرب ــ الى الســـلم الـذي ســـيعقبهـا •

ولقد حاولت مجموعة من القادة العسكريين السوفيت ، من جـانبهم صياغة تعريف شامل للاستراتيجية في كتابهم شبه رسمي ، الذي قاموا بتأليفه بصورة جماعية تحت عنوان «الاستراتيجية العسكرية» وبأشراف المارشال• ف• دسوكولوفسكي » رغم انهم لا يقرون وجود سوى استراتيجيةواحدة، وهي « الاستراتيجية العسكرية » كما نوهنا سابقا •• الا أن تعريفهم جـاء مطولا جدا ، بحيث يصـــح اعتباره في الغالب شـــرحا موجـزاً لمفهـــوم الاستراتيجية من وجهة نظرهم ، وكما في ادناه ••

---

(١٣) المصـــدر الســـابق ص ٤٠٠ أيضا •

التعريف السوفيتي للاستراتيجية :

« الاستراتيجية هي جملة معارف علمية عن قوانين الحرب كصراع مسلح من أجل مصالح طبقية محدودة ، وهي تبحث ـ على اساس دراسة خبرة الحروب والموقف السياسي والعسكري والامكانيات الاقتصادية والمعنوية للبلاد ، ونوع وسائط الصراع الحديثة ، ووجهة نظر العدو المحتمل ـ في شروط وطبيعة الحرب المقبلة وطرق اعدادها ، وخوضها ، وفي بناء القوات المسلحة وأسس استخدامها الاستراتيجي ، وكذلك في اسس التأمين المادي والفني لها ، ومن ثم قيادة الحرب والقوات المسلحة ..

ميدان ذلك هو ميدان النشاط العلمي للقيادة العسكرية ـ والسياسية العليا ـ والقيادة العامة ـ والاركانات العليا ـ والذي يتصل بفن تحضير البلاد والقوات المسلحة للحرب ، وفن قيادة الصراع المسلح في شروط تأريخية معينة »[١٤]..

ان التعريف السوفيتي للاستراتيجية ، أذا جاز ، اعتباره تعريفا ، وليس شرحا موجزاً ، ينم في الحقيقة عن نظرية الحرب الشاملة ، ذات الطابع الاجتماعي ، ويحقق تركيبا متكاملا وجامعا بين الدراسة العلمية لقوانين الحرب ، وصراع الطبقات ، وعلى اسس دراسة خبرة الحروب والمواقف السياسية ، والامكانات الاقتصادية ، والمعنوية ، ووسائط الصراع الحديثة، وبناء قواتها المسلحة وتنظيمها وقيادتها ، فالاستراتيجية عندهم بمجملها عبارة عن فن تحضير البلاد والقوات المسلحة للحرب ، تحت شروط تأريخية معينة ، على ذلك فان الخلط والتشابك واضحان تماما بين مختلف حقول الاستراتيجية والسياسة العليا ، وبعبارات صريحة لا يحتاج الى التفسير .

---

(١٤) مؤلف الاستراتيجية العسكرية السوفيتية ـ تاليف مجموعة من مارشالات السوفيت ، وبأشراف (المرشال ف٠د سوكولوفسكي) ص ١٩ ـ ٢٠ ترجمة العميد الركن عبدالرزاق الدرديري وزميلاه ٠

وهناك تعاريف كثيرة اخرى للستراتيجية ، لا يمكن حصرها ، ليس لان المجال لا يتسع لها فحسب ، وانما من المؤكد ، ان الاكثار منها، لا يقدم لنا أية فائدة مرجوة ، وأن ماقدمناه من التعاريف وتحليلاتها ، قد يمكننا من بلوغ المستوى المطلوب ، للاجابة على التساؤل الثقيل الذي فرض نفسه علينا في مستهل كلامنا ..

يمكننا بعد ذلك ان نجيب بأيجاز بالعبارات التالية :

« أن الاستراتيجية (العامة)[١٥] عبارة عن فن التفكير ، يسمح بتصنيف الافكار والاحداث لاختيار أفضلهما وأجداهما .. تستهدف بلوغ أقصى تفوق على العدو المحتمل . بهذه الصورة يعني أنها علم وفن استخدام التقنية العصرية الفاعل .. وادارة الحرب ، والمشاريع الحربية وغير الحربية، وقيادة مجمل العمليات الحربية ، بالتلائم مع الافكار المستقصية ، بغية تحقيق تفوق على الخصوم المحتملين لردع أعتداءهم او الدفاع عن مصالحنا ضدهم » .

وبعبارة اخرى نقول :

« ان الاستراتيجية العامة بأختصار عبارة عن نظرة فكرية ثاقبة ، وخلاقة ، ومهارة فائقة ، وقدرة عالية من العمل والتنفيذ ، أساسها نهضة علمية وتقنية وثقافية واخلاقية تمد بجذورها الى العقيدة أو الفلسفة التي تصل الى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) .

٣ ـ الأستراتيجية (السوق) العسكرية (البحتة) :

رأينا فيما تقدم ، أن الاستراتيجية العسكرية (البحته) تشكل حقلا واحداً من حقول الستراتيجية الشاملة ـ فهي فرع من فروعها ، وقد يتحدد مدى الستراتيجية بالحرب ، أي بفن استخدام الاسلحة المتوفرة في كل عصر من العصور ، وبفن ادارة المعارك وقيادتها ..

---

(١٥) واقصد بها الستراتيجية الشاملة او العليا او القومية .

وقد علمنا أيضا أن هناك من ينكر وجود اكثر من ستراتيجية واحدة ولم يعد بالامكان تجزأتها اليوم ، وقد قال (اندريه بوفر) أن الستراتيجية واحدة في جوهرها ، لا تتجزأ •• ومع انه درسها في معظم مؤلفاته بصـورة منفصلة • والبعض يذهب الى أبعد من ذلك ، أذ يحملون قـادة الحلفـاء (الفرنسيين منهم على الاخص) مسؤولية الفشل في السـنوات الاولى من الحرب العالمية الثانية ، بسبب بقاءهم متمسـكين بفكرة التقسـيم بين الاستراتيجية الشاملة والعسكرية والتعبية •

ولكننا كما رأينا : أن التقسيم والتضيد مفيدان للتفريق بين مظهريـن لمفهوم واحد وكذلك بين مفهومين لمظهر واحد •• فضـلا عن أن تجزئـة المواضيع تشكل ضرورة للدراسة الاكاديمية على الاقل ولتسهيل البحث•• ومن ثم هناك اعمالا ذات طابع تخصصي عسكري بحت ، لا يمكن بلـوغ الغاية من شن الحرب، الا بأختيار ذكي وواع لعمل او اكثر من مجمل الاعمال الحربية المطروحة وبالملاءمة الدقيقة مع الوسائل المتوفرة وخواصها في كل مراحـل الحـرب •

وأذا عدنا الى الحرب نفسها ، وعرفناها ، كظاهرة او كحدث ، لا يعرفها غير أبناء آدم ، وتذكرنا جدلية (هيغل وماركس) الفلسفية الدائرة بصـدد اسبقية الحدث أو الفكر ، وأيهما يقود الاخر[١٦] ووافقني القارىء ، بـأن نخرج منها بفكرة موحدة ناجمة عن دمج الفكرتين ، وتقول : ان الحـدث (الحرب) ينعكس على فكر الانسان ويعكسه الفكر ، كاشفا رموزه واسراره بهذه الصورة تكون آثارهما تبادلية وليست ذات أتجاه واحد • ومن ثـم أذا نظرنا الى هذه الاثار المتبادلة من جهة ، والى الصلة الوثيقـة بـين فـكر الانسان ونزعته وآماله وتطلعاته من جهة اخرى ، نجد ان هـذه الـدوافع

(١٦) راجع الفصل الاول •

والاثار المتبادلة هي التي تشكل بحق القوة الدافعة المحركة للنشاطات البشرية الى نهاياتها القصوى ومنها النشاط الحربي كنهاية قصوى للتطلعات والآمال • والواقع أن هذه القوة الدافعة المحركة ، والمنبعثة من تفاعل الفكر بالنزعة ، هي التي تولد الارادات ، وتبني وجهات نظر عقائدية أو فلسفية، التي أنبثقت° منها في الماضي والحاضر حلم انشاء امبراطوريات عالمية، وطموحات كبيرة المفضية الى الاطماع التوسعية والاستعمارية ••

وأن أول هذه الطموحات ، الحلم الذي راود (الكسندر ٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق•م) لانشاء امبراطورية عالمية • وكما ان الاديان سعت الى نشر تعاليمها الى جميع الامم والاجناس ، مما ادى ذلك الى نشوب حروب دينية عديدة في التأريخ ، وكذلك كان شأن الثورات العالمية (الثورة الفرنسية ـ والحروب النابليونية) ، تماما مثلما تسعى اليوم كتلة من الدول (الشرقية) الى تعميم نظمها ونشر مبادئها الى انحاء العالم ، في مقابل مساعي الكتلة الغربية لتحقيق الغرض نفسه ، بطرق وأساليب مظللة تخدم نزعة التوسع وبسط السيطرة والنفوذ على العالم ••

من كل هذا نريد أن نقول : أن الستراتيجية (السوق) العسكرية والمدارس الفكرية العسكرية ، ظهرت نتيجة لتلك المنطلقات الفكرية النزعوية ، والمتحولة الى الارادة والرغبة الجامحة للتوسع وبسط السيطرة والنفوذ ، على أجزاء كبيرة من العالم ، ان لم نقل على العالم كله ، مدعومة بحلم انشاء امبراطورية عالمية ••

ومن المفارقة ، ومهزلة العقل البشري ، تكرار هذه العادة الفكرية النزعوية رغم اخفاقها وفشلها في كل مرة ••

وبغية عودة الى صلب الموضوع ، ينبغي أن نشير الى تلك المدارس الفكرية العسكرية المعاصرة التي نشأت وفق تصورات وتقييم الوضع الجغرافي العالمي ضمن اطار من تبريرات مظللة وبمبررات مظللة ومخطوءة

مع ان جميعها ظهرت من منطلق فكري واحد فقط ، هو كما قلنا «استهداف السيطرة على العالم – أو انشاء امبراطورية عالمية » بدوافع المصلحة الذاتية التي اجترتها العادة الفكرية والتي غالبا ما ادمجت الحقيقة بالخطأ المبرر بتسلسل منطقي ••

لذا سيكون القاء نظرة سريعة ومقتضبة على تلك المدارس الفكرية العسكرية ، لاظهار هذه الحقيقة فحسب ، ضرورة لا يمكن اسقاطها • ولكن دون الاسهاب والتفصيلات لان ذلك ميسور لكل من يريد الاستزادة بالمعلومات في العديد من المؤلفات وقد اشرنا اليها تباعا خلال المناقشة •

المدارس الفكرية العسكرية :

ضمن سياق التطور التأريخي ، ظهرت ثلاث مدارس تقليدية للفكر العسكري السوقي (الاستراتيجي) •• وهي : المدرسة البحرية ، والمدرسة القارية (البرية) والمدرسة الجوية • وهناك مدرسة فكرية رابعة غير تقليدية بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب وهي (المدرسة الثورية) ••

تقيم المدارس التقليدية الثلاثة ، الوضع الجغرافي للكرة الارضية ، وبنظرة مختلفة الواحدة عن الاخرى •• لقد قدم ثلاثة من المفكرين ، علماء جيوبولتيك (علم سياسة الكرة الارضية) افكاراً تستند الى هذا العلم وهم: ماهان ، ماكيندر ، ودي سيفرسيكي •• وبأختلافات أساسية في وجهات النظر ، ولكن من منطلق موحد هو : « استهداف السيطرة على العالم ، أو انشاء امبراطوريات عالمية عظمى » • كما قلنا وكررنا وكما سنرى ••

أ – المدرسة البحرية :

ان البشر الداعين للقوة البحرية (كما تقول مرجريت تتل سبرون)[١٧]

---

(١٧) للاستزادة بالمعلومات راجع الفصل السابع عشر ص ١١٣ – كتاب رواد الاستراتيجية الحديثة – تأليف ادوارد ميراديل ترجمة اللواء محمد عبدالفتاح ابراهيم •

هو (الفريد تابئير ماهان)[18] • ركز (ماهان) اهتمامه على المحيط المائي من الكرة الارضية الذي يغطي ثلاثة أرباع الكرة الارضية •• ولقد وضع نظريته للاستراتيجية العسكرية تبين انه قبل انقضاء القرن العشرين :«سوف تتمكن الدولة التي تمتلك السيادة المطلقة على البحار العالية أن تسـيطر على ثروة العالم وبذا تسود الارض » وكمطلب سبق تحقيق ذلك ينبغي وجود قوة بحرية قوية تعمل من قواعد في ارض الوطن وخارجه وتكملها بحريـة تجارية كبيرة ••• وللحصول على أقصى فاعلية ، تبين نظرية (ماهان) انه يجب الاعتماد على عدة متطلبات أساسية كما مبين ذلك في كتابه (تأثير القوة البحرية لمعى التاريخ) ويأتي في اول القائمة، الموقع السوقي (الستراتيجي) المركزي الذي يمزج الحدود البرية الآمنة بمنافذ الى واحـد او اكثـر من المساحات المائيـة • وينبغي أن تمزج هذه المواصفات الجغرافية مع شاطىء بحري تتواجد فيه موانىء عميقة المياه ، وسواطىء يمكن الدفاع عنه، وثانيا لا يمكن لأي بلد أن يدير سوقا (استراتيجيا) بحريا على مقياس واسـع، الا أذا كان لشعبه قدرة على العمل في المياه المالحة وقابلية على التـجارة ، وأخيراً ، ينبغي على السياسات الحكومية أن تستثمر بشكل ايجابي كـل الفوائد البيئية لانشاء قوة عائمة[19] ••

وقد اقتنع ماهان نتيجة لدراساته بأن القوة البحرية ، يمكن أن تزود الولايات المتحدة ـ بما سبق وأن زودت بريطانيا ـ بأداة سياسية تزيد من قوتها ومكانتها •• وأستطاع ماهان ، بالنفوذ السياسي القـوي لصـديقه تيودور روزفلت (الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة) وهنري

---

(١٨) ضابط من القوة البحرية الاميريكية ـ اهم مؤلفاته ـ تأثير القوة البحرية على التاريخ ـ صدر ١٩٥٠ •

(١٩) رواد الاستراتيجية الحديثة ـ تأليف ادوارد ميدايرل ص ١٢٤ ترجمـة الاميرالاي أ • ج محمد عبد الفتاح ابراهيم •

كابوت لودج (سياسي اميريكي وكـــاتب) أن يلعب دورا هامـا في حث الولايات المتحدة على أن تعني عناية كبيرة بتقرير مصيرهما ، فيما وراءالبحار طوال السنوات الاولى من مطلع القرن العشرين[٢٠] •

وقد نالت فلسفته للقوة البحرية تقدير وموافقة الكثيريـن خـارج الدوائر البحرية المحترفة ووجدت طريقها الى الهيئات والمجالس الحكومية ، ليس في اميركا فحسب • بل في كثير من بلاد العالم (المانيا ، فرنســا ، انكلترة ، اليابان) •

لسنا بصدد مناقشة المتطلبات الاساسية لنظرية وافكار ماهان ومدرسته للوقوف على نواح الخطأ والصواب فيها ، وانما يهمنا منها هو الهدف كما حدده ماهان نفسه بكل وضوح حيث قال « سوف تتمكن الدولة التي تمتلك السيادة المطلقة على البحار العالية ، السيطرة على ثروة العالم وبالتالي تسود الارض » ••

وكما يمكننا ان نجد تفسيراً لمغزى تواجد اساطيل البحرية الاميركيـة التي تجوب البحار والمحيطات في العالم اليوم •• ومحاولات السوفيت فـي الالحاق بالولايات المتحدة في هذا المضمار مؤخراً •

ب ـ المدرسة القارية (البريـة) :

يحاول دعاة القوة البرية ، وهم من تلاميذ (كلاوزفيتز) الســوقيين (الاستراتيجيين) تقسيم الكرة الارضية الى مســارح عمليات منفصــلة •• وايعتقد هؤلاء بان تدمير جيوش العدو البرية هو الغاية الاساسية من الحرب، أما الاساطيل والقوات الجوية ، فالهدف من وجودها ، هو نقل القطعـات الى مسرح العمليات واسنادها ليس الا ••• أن القوات البريــة هـي التي تفرض القرار الحاسم المؤدي الى السيطرة واحتلال ارض العدو[٢١] •

---

(٢٠) نفس المصــــدر ص ١١٤ •

(٢١) كتاب السوق الاكبر ـ جون ام كولنز ص ٤٦ ترجمة اللواء الركن علاء حسين مكي خماس •

لقد بين (هالفورد ماكندر)[٢٢] الذي عقب (ماهان) ببضعة سنوات فقط ان التركيز هو على الاهمية السوقية (الستراتيجية) للكتل البشرية في مواجهة البحار .. لقد نشر بحثه في سنة ١٦٠٤ والمسمى «المفصل الجغرافي للتأريخ » ميز قارة بوراسيا (اسيا الاوربية) على انها قبة او قمة السكون (انظر الخارطة في ص ١٩٦) ان منطقة المفصل الاساسية ، والتي تتطابق حدودها مع حدود روسيا الاسيوية ، تؤمن حرية حركة كبيرة للقوات البرية، ولكن لا تؤمن قاعدة للقوة بمعاني عدد السكان والموارد المحلية .. لذا فقد اضاف ماكندر جزءاً كبيرا من اوربا الى منطقة التمفصل ، والذي أعاد تسميتها باسم (ارض اللقب)[٢٣].. لذا فأن حدودها النهائي ، ضمت أراضي تؤمن امتزاجا موفقا بين القابلية على الحركة والقوة .. أما باقي اوربا وآسيا فقد شكلت منه هلالا داخليا او حوليا ، يعرف أحيانا (بارض الحافة)، وقد شكلت من امريكا ، وافريقيا ، جنوب الصحراء الكبرى واستراليا ، والجزر الكبيرة مثل انكلترة ، واليابان ، واندنوسيا ، هلالا خارجيا .

وبتطور هذه الفكرة فقد عرفت اسيا الاوربية وافريقيا مجتمعين بأنهما جزيرة العالم ..

ولقد استمد ماكندر توقعاته التالية من مجموع نظرياته اعلاه :

ان من يحكم شرق اوربا يسيطر على (قلب الارض)

ومن يحكم قلب الارض يسيطر على جزيرة العالم .

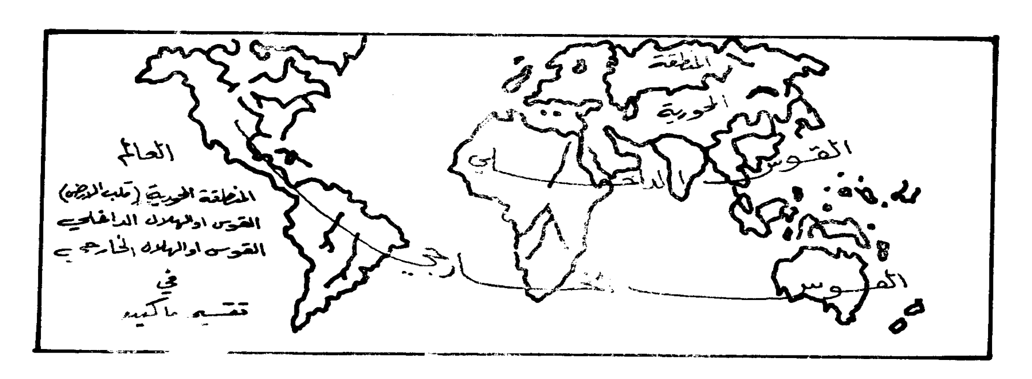
ومن يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم .[٢٤]

---

(٢٢) هالفورد ماكيندر - جغرافي بريطاني .

(٢٣) لقد جاء هذا المصطلح (ارض القلب) في المرجع السابق في حين ورد في المراجع الاخرى (قلب الارض) او (قلب العالم) نعتقد ان الاختلاف ناجم عن الترجمة .

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ .



جزيرة العالم مع المنطقة المحورية حسب آراء ماكيندر على ما جاءت في دراسة « المحور الجغرافي للتأريخ » المجلة الجغرافية المجلد ٢٣ سنة ١٩٠٤ ص ٤٣٥ ٠
المخطط مقتبس من كتاب « رواد الاستراتيجية الحديثة »
تأليف ـ ادورد ميدايول
ترجمة ـ الامير العربي أ ج محمد عبد الفتاح ابراهيم ٠

مع اختلاف وجهات النظر لدعاة المدرستين (البحرية والقارية) وأختلاف مذهبهما في عرض المشاكل الستراتيجية (السوقية) ٠ الا ان المنطلق الفكري لهؤلاء الدعاة متطابق كل التطابق فيما يتعلق بتحديد «الهدف» الذي هو باختصار «السيطرة على العالم» وبوضوح الى حد الذي لا يحتاج الى الاستدلال ٠

لقد استعار «الجيوبوليتيكيون» الالمان وفي مقدمتهم الداعية «هوز هوفر» فكرة قلب العالم جملة عن ماكندر ثم طبقوها على الاتساع الالماني النازي ٠٠ ولتحقق وجود صلات قوية بين الجيوبولتيكيين والحزب النازي وبين كارل هوزهوفر وهتلر والرجل الثالث (ارودولف هيس) الذي

عمل كـكاتب السر ، اثناء تحرير هتلر كتابه (كفاحي) •• الذي تشير بعض فقرات هذا ا لكتاب الى أن كثيراً من آراء الجيوبوليتيكيين ، ومن اقسام برامجهم كان لها تأثيرها الفعال في توجيه آراء هتلر نفسه[٢٥].

لقد حاول الجيوبوليتيكيون تطبيق فكرة « قلب العالم » او (قلب الارض) وفق الاسلوب التالي :

« أن قلب العالم يتاخم تقريبا روسيا السوفياتية والمانيا بدورها هي الاخرى قوة برية ، وتشترك مع روسيا في الكتلة الداخلية لقارة « آور - اسيا » ولكنها على نقيض روسيا لها مخارج على البحر ، ومن ثم تتوافر لها الطاقة لتكون قوة بحرية ، فاذا استطاعت ان تكون لها السيادة في كتلة مشتركة تتكون منها ومن روسيا ، فانها تستطيع اولا ، السيطرة على (قلب العالم) فالسيطرة على القوس (الهلال) الداخلية التي تضم الدولتين البحريتين اليابان وبريطانيا ، واخيراً تستطيع السيطرة على القوس (الهلال) الخارجية (بقية القارات) •

والوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تحقق هذا الاتساع الالماني ، طبقا لهذا الترتيب الذي قدمته ، هي : الحرب •

وقد عبر الجيوبوليتيكيون عن أملهم ان تتعاون المانيا وروسيا تعاونا سلميا لتحقيق هذه المشاركة ، هذا هو السر في توقيع المعاهدة بين المانيا وروسيا سنة ١٩٣٩ ، ومن المعروف ان هذه الآمال لم تلبث ان تحطمت نتيجة الاطماع ومهاجمة هتلر للاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤١ »[٢٦] •

والواقع ان فكرة « قلب العالم » مع ما اضاف اليها علماء سياسة الكرة الارضية (الجيوبولتيكيون) الالمان ، كانت عموما نتاج الفكر العسكري،

---

(٢٥) كتاب رواد الستراتيجية الحديثة ص ٩١ - تاليف ادورد ميدابرل ، ترجمة اللواء آ • ح محمد عبدالفتاح ابراهيم
(٢٦) المصدر نفسه (ص ٨١ - ٨٢) •

لقد كانت الجماعات التي نظمها كارل هوزهوفر في معهد الجغرافية بجامعة مونيخ وفي اماكن متعددة اخرى ، يعملون من اجل الحرب المتوقعة ما يعمله اليوم جغرافيو الولايات المتحدة الاميركية ، والكثير من الوكالات والهيئات بما فيها وزارة الحرب (البنتاغون) .

هكذا ان افكار هذه المدرسة القارية ، وفق أسس جيوبولتيك والطابع الضيق الذي صوره لها هوزهوفر تؤدي فقط الى الحرب ، مهما كان طابع الامة التي تطبقها وهي ـ مهما بذل من جهود لاخفاءها ـ وسيلة لسياسة القوة والاعتداء بهدف التوسع وبسط السيطرة والنفوذ على العالم ، كما قلنا .

ومن الجدير بالذكر ، أخيراً ، ان محاولات نشر تعاليم الجيوبولتيكيين لم تنجح في أي بلد اخر سوى في اليابان ،.. فلقد كانت اليابان دولة عسكرية الطابع قبل عصر الجيوبولتيكيين وكان اهتمام هوز هوفر باليابان كبيرا جدا وفريدا .. ولقد ترجمت كل مؤلفاته الى اللغة اليابانية ، وكانت الجغرافية علماً ترعاه الدولة في اليابان وتدعمه الجامعات ، وكذلك كيف اليابانيون علم الجيوبوليتكا ، ليتمش مع برنامج حكومتهم للتوسع والغزو[٢٧] .

ولقد حاول البعض في اميركا أن يوجدوا (جيوبوليتكا) اميركية ، بالاعتماد على الجغرافية لدعم البرنامج السياسي لاسهام الولايات المتحدة في الشؤون العالمية ، وهذا ولاشك يتحول ليكون تخطيطا ، لسياسة القوة من وجهة النظر الامريكية .

وربما يقوم الاتحاد السوفياتي بنفس هذا العمل الان ، ولكن من يدري ؟ .

المدرسة الجوية (الفضائية) :

أسس المدرسة الجوية للسوق (الستراتيجية) (دوهيه) الذي انتشرت تعاليمه الان في كل مكان ، ويعتقد اتباعه : اولا ـ بان القوة الجوية حتى

---

(٢٧) المصدر السابق ص٩٩ .

بدون مساعدة من قوة اخرى يمكن ان تكون حاسمة • ثانيا ـ ان التفـوق الجوي الواضح يمكن ان يضع حداً للحروب المطولة • ثالثا ـ ان السيطرة على الجو وتدمير قدرات العدو الانتاجية ، وخصوصا المراكز المدنية الآهلة بالسكان ، وقواعدها الصناعية هي من الواجبات الاساسية ، أما الاسـناد الجوي للقوات الارضية فأمر ثانوي تماما[٢٨] •

ولقد اقترح (الكسندر • بي دي • سيفيرسكي) نظرية اخرى ، مبنية على أسـاس ان الفائقيـة الجويـة المطلقـة ، وليـس فقـط المحليـة او المؤقتـة ، مـن الممكـن الحصـول لعيهـا •• ولقـد بـين في كتابه المسـمى (القـوة الجويـة مفتـاح البقـاء) والـذي نشـر في سـنة ١٩٥٠ ، (قبل ظهور المقذوفات البالسيقية العابرة للقارات) ، ان القـواعد الكائنة في الخارج غير مفيدة ••• وقلل من أهمية القوات البحرية والبرية، واشار بشكل واضح أن مصير الولايات المتحدة ، يمكن ان يتقرر في الجو•• وان ظرته الى الكرة الارضية المبنية على المنظور القطبي لها تخيل ان المجابهة بين الشرق والغرب سوف تتم عبر المحيط القطبي الشمالي وليس عبرالمحيط الاطلسي او الهادي (اظر الخارطة ص ٢٠٠) ولقد رسم دائرة زرقاء حول الولايات المتحدة الامريكية محدداً قطرا بطول (٥٠٠٠ كم) يمثل المـدى الضارب للقاصفات المعاصرة ، كما رسم اهليلجا اصـفر حول الاتحـاد السـوفيتي •

ان المنطقة التي تقاطعت فيها الدائرة مع اهليلج سميت (منطقة القرار)

ان المحيط سوف ينكشف نتيجة الصراع على السيادة على الجو كله• وأن أي أستثمار تقوم به الولايات المتحدة ، هذا اليوم ، في منطقة الصفراء، يهدف الى تأمين سبل الامدادات السوقية (الستراتيجية) خلال الحرب ، هو تبذير محظ ، ويعتبر استثماراً غير واقعي تماما كما لو قام الاتحاد السوفياتي بمثل هذه الاستثمار في المنطقة الزرقاء التابعة للولايات المتحدة ، ان المنطق

(٢٨) المصدر السابق (ص١٠٠) •



نظرية دي سيفيرسكي عن التفوق والنفوذ الجوي

المخطط مقتبس من كتاب السوق الاكبر – تأليف جون ام كولينز

ترجمة : اللواء الركن علاءالدين حسين مكي خماس .

يتطلب ان تركز الاستعداد الاقتصادي فقط في المنطقة التي يمكن الدفاع عنها .

ان الهدف نفسه واضح ضمناً وان لم تنص عليه النظرية صراحة •

ج ـ المدرسة الثورية :

وهناك مدرسة فكرية رابعة غير تقليدية بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب ودعا اليها (ماركس ولينين ، وماو ، وهوشي منه ، وتشي غيفارا وغياب) وفي الوقت الذي تكون فيه المدارس البحرية والجوية والبرية عسكرية أساسا ، فان الحرب الثورية تكون سياسية واجتماعية ونفسية، وتتبع سياسة الاسلوب غير المباشر ، ونادراً مايوجد في الثورات ما يشابه معركة (كلاوزفيتز) الكبرى ولقد كانت معركة (ديان بيان فو) والتعرض الذي شنه (غياب) في عام ١٩٦٨ وقيام (هانوي) بغزو فيتنام الجنوبية عام ١٩٧٢ من الحالات الاستثنائية التي تؤيد وتبرهن القاعدة •• أذ أن الارض ليست بتلك الاهمية المعروفة وان ارض المعركة الرئيسية هي في عقول الرجال •

أن ظهور مجال الجو والفضاء ، قد اوجد بعداً ثالثاً للنشاط الحربي فمنذ ذلك الحين أتجهت انظار الستراتيجيين نحو هذا المجال الواسع ،الذي لا حدود له فيه ولا عقبات على وجه التقريب •• بعد ان ثبت فشل الافكار السوقية لدعاة المدارس الفكرية العسكرية التي سبق عرضها ، ويتزامن مع ظهور السلاح المطلق (الاسلحة النووية) وظهور مقذوفات البالستيقية العابرة للقارة بفترة وجيزة من بعد ذلك • الامر الذي يبدو وكأن الخيال الاسطوري ، بات يركع تحت أقدام الحقيقة والواقع وذلك برضوخ الدولتين العملاقتين وانصياعهما للامر الواقع ، ونزولهما عند حدود ، الحد الادنى من سياسة توازن القوى ، ليس بصورة مؤقتة فحسب ، بل بأعتقادنا الى الابد • تحت سيف (ديموقليس) •

وعلى الرغم من تربع الاتحاد السوفياتي ، وسط جزيرة العالم (كما وصفها ماكندر) أثر حرب ظافرة ، فهو لم يتمكن من السيطرة الكاملة على

العالم كله ، مما يؤكد خطأ الافكار السوقية لدعاة المدرسة القارية وعلماء سياسة الكرة الارضية (الجيوبولتيكيين) الالمان .

كما ان الولايات المتحدة الامريكية ، هي الاخرى اخفقت في تحقيق حلم دعاة المدرسة البحرية ، على الرغم من انتصارها في الحرب ، وامتلاكها اليوم اعظم قوة ضاربة بحرية في العالم أنشأت بناءً على نصائح (ماهان) المبشر الداعية للقوة البحرية كما مر ذكرها .

واما فيما يتعلق بالمدرستين الفكريتين (الجوية والثورية) : فيما دعمت التجربة النظرية وصحة وجهات النظر وافكار دعاة المدرسة الثورية ، حيث بلغت الثورات أهدافها ، باحراز انتصارات ساحقة ، بشن حروب ثورية في مناطق متعددة من العالم .. الا انه من غير الممكن التكهن ، فيما أذا كان بالامكان لأية فئة ثورية أو حتى دولة عظمى ثورية من نشر مبادئها الى العالم كله ، ذلك لان سيادة الافكار والمبادىء وانتشارها الى كل ارجاء العالم لم يتم حتى للأديان السماوية ، كما ذكرنا .. في حين طرأ بعض التعديلات على الفكر السوقي (الستراتيجي) الجوي والفضائي ، بعد ثبوت فشل نظرية (دوهيه) ، وعدم امكان تطبيق نظرية (سفيربسكي) ، نظراً لظهور وتطور المقذوفات البالستيقية العابرة للقارات .. وان مانسمع به اليوم عن ستراتيجية حرب النجوم ، ماهو الا استمرار لاحداث تعديلات على افكار المدرسة الفكرية الفضائية ، ولم تبلغ الكمال بعد ولن تبلغ ...

على ذلك ، فمن غير المحتمل ، تحقيق ذلك الحلم الاسطوري القديم، قدم البشرية لأي منهما مستقبلا (روسيا ، اميريكا) ولا لغيرهما من الامم في المستقبل ، كما لم يتحقق بأي شكل من الاشكال في الماضي .. طالما أن الاستراتيجيون وكبار رجال السياسة ، لا يزالون يصرون على أسدال الستار على المسائل العليا ، ويغفلون جوهر فكرة الحياة .. بل يعملون ضدها ، وغالبا ما يفضلون افكار الستراتيجية (السوق) العسكرية البحته على

أفكار الستراتيجية الشاملة او العليا والميتاستراتيجية ، والميتاسياسية أي وبعبارة اخرى انهم يلحقون الاصل بالفرع ..

وهذا ما يمكنني ان أقول باحساس حر ، لكل من يصبو الى امتلاك الحقيقة بمنظور الحياة والطبيعة والانسان ، أن لا يضع الحقيقة وراء ظهره، عندما يتطلع للمستقبل ويسير نحوه ، لانه سوف لن يجد امامه الحقيقة الا سرابا لا يصله أبداً ...

٤ ـ استراتيجية المعركة :

قد لا نكون مخطئين ، عندما نستنتج ، من أستقراء أفكار دعاة المدارس الفكرية العسكرية الاربعة ، وعلماء سياسة الكرة الارضية (الجيوبولتيكيين) بغض النظر عن النجاح المحدود الذي أحرزته المدرسة الثورية (الرابعة) وثبوت فشل الافكار السوقية للمدارس الاخرى ، في واقع الامر .. ان الاختلافات في وجهات النظر لهؤلاء الدعاة مع وحدة الهدف عندهم (كما بيناها فيما تقدم)[٢٩] لم تكن تتعدى في الاساس حدود المناضلة بين الانواع الثلاثة الرئيسية للقوات المسلحة (البرية ، والبحرية ، والجوية) ، كخيار ستراتيجي أساسي يتعلق بتنظيم وتجهيز وبناء الهيكل العام للقوات العسكرية ، بناءً على التقييم الجغرافي للكرة الارضية ، لملاءمة الغرض ..

ومع ما طرأ على تلك الافكار السوقية من تطورات ، بنتيجة ظهور صواريخ البالسيقية العابرة للقارات والاسلحة النووية ، والحاجة الى الاحتفاظ بقوات تقليدية متوازنة تجمع بين افكار المدارس السوقيةالتقليدية الثلاث ، لكي تكون صالحة لتلبية متطلبات مواقع العمل المختلفة في مناطق الحركات المحتملة ، يعتبر الخيار المذكور هو المبدئي الاول من بين

---

(٢٩) راجع الفقرة ٣ من هذا الفصل .

الاختيارات التقنية ـ التعبوية والعملياتية ، لصالح السوق العسكري التقليدي •• ليس على صعيد الحروب العالمية فحسب ، وانما في الحروب الاقليمية والمحلية ، وفي النزاعات المحدودة أيضا •

ويلي ذلك ضمن اطار تشكيلة واسعة من الاهداف ، والغايات السياسية والمصالح التعارضية ، وعلى ضوء متطلبات الستراتيجية الشاملة، ومعطياتها ، عدد كبير من الاختيارات السوقية للمعركة ومن اجل المعركة••

أدناه نماذج من هذه الاختيارات السوقية النمطية ، يمكن تصورها مرتبة بشكل مزدوج لاظهار التناقض الطبيعي ، وفق مسار جدلية الصراعات :ـ

الاختيارات الستراتيجية (السوقية) العسكرية :(٣٠)

الحرب التعرضية او الحرب الدفاعية •
الحرب الخاطفة او حرب الاستنزاف
الحرب المحدودة او الحرب الشاملة
الحرب الوقائية او الحرب الانتقامية
الحرب بقوات نظامية جاهزة (مجندة) او بالتعبئة السريعة •
الحرب التقليدية او الحرب العصابات
الحرب الاقليمية او الحرب العالمية •
وعلى صعيد الحرب النووية تظهر خيارات اخرى التالية :
مقابلة القوات او مقابلة المدن
الانتقام الشامل او الاستجابة (رد الفعل) المدن •
التصعيد المسيطر عليه او الهجوم السافر (الوحشي) •
مناطق نفوذ او مواجهة عالمية •

---

(٣٠) كتاب السوق الاكبر ـ جون ام كولينز ـ ص ٤٧ ـ ترجمة اللواء الركن علاء حسين مكي خماس •

ومن المعلوم ان كل خيار من هذه الخيارات الستراتيجية يتلاءم وظروفه الخاصة ، تحت مؤثرات عوامل معينة ، وينبغي على الفكر الستراتيجي (السوقي) أن يحسن الخيار ويتخذ الاجراء الذي يصيب كبد الحقيقة في الوقت المناسب من المراحل المحددة ، على ان لا يتمسك هذا الفكر بمنهج جامد غير قابل للتغيير وعلى ان يضع في الحسبان، أي تعديل يجري اضطراراً بنتيجة الخطأ في التقدير ، له عواقبه الوخيمة ..

وينبغي ألا ننسى التأكيد هنا ، على أن جميع هذه الاختيارات، تدخل ضمن مجال الستراتيجية العسكرية (البحتة) ، التي هي فرع من فروع الستراتيجية الشاملة (كما بينا فيما تقدم) وهناك أختيارات خاصة بهذه الاخيرة ، وان أهم واسمى أختياراتها هو : السعي على تجنب اللجوء الى استعمال القوة ، وشن الحرب ، قدر المستطاع ، والاحتفاظ بقوات ، تكفي لردع الاعتداء المتوقع من الخصم المحتمل ، مع استخدام الامكانات المتاحة الاخرى ، التي تمثل باختيارات الستراتيجية الشاملة ، من الدبلوماسية ، والتحالفات ، والضغوط الاقتصادية والمالية والمساعي ، وخلق مصالح تبادلية متوازنة ، لتخفيف حدة التوترات ، واستبعاد الخيار العسكرية ، كلما كان ذلك ممكنا ، وكانت النتيجة غير مضمونة من استخدام القوة .

وأذا عدنا الى الاختيارات الستراتيجية العسكرية اعلاه ، نجد أن لكل منها عدداً من الاختيارات ، ينبثق من ذاتها ،.. ففي الحرب التعرضية هناك: الخرق ، والالتفاف ، والاحاطات (الافقية والعمودية) بقطعات محمولة جواً أو بالقوات الخاصة ، وهناك حساب للمراحل ، والوقت والمسافة للمناورة ،.. وقوة الصدمة والقوة النارية اللازمة للخرق ، والمعاونات الجوية والهندسية وغيرها ، وحساب العوامل الطبيعية (الارض والانواء ... الخ) .

وفي الحرب الدفاعية ، تتطلب ستراتيجية المعركة ، الشكل المناسب من اشكال الدفاع المعروفة ، (الدفاع الخطي ، نقاط ارتكاز قوية ، (مراكز مقاومة) • الدفاع عن النهر على النهر، عن الجبال على الجبال •• دفاع المحترك (الفعال) ، الدفاع السيار •• الخ •

وبأختصار ، نقول ، ان كل شكل من اشكال الصراع يتضمن في طياته ، عدد من الخيارات • على الفكر الستراتيجي ان يكون قادراً على الرؤية بوضوح ، واختيار ماهو افضل واجدى لكل مرحلة من مراحل الصراع وصولا الى النتيجة النهائية وقد يكون من الصالح قبول بعض الخيارات الفاشلة في بعض المراحل ، من اجل النتيجة النهائية ، عملا على المقولة المشهورة لفريدريك الكبير : ينبغي أن تتعلم كيف نخسر بعض المعارك ، حتى نكسب الحرب •• وليست الالفاظ الفاظه ولكن القصد يعود له بالتأكيد ••

كما ان هناك اختيارات تتعلق بتحقيق الهدف ، بأساليب مختلفة ، وغير ثابتة ، تبحث عن النصر الحاسم ، منها على سبيل المثال وليس الحصر، ما يلي :ـ

أ ـ الاسكندر المقدوني : كان يفتش عن النصر ، بفضل الستراتيجية الناجمة عن التفوق التعبوي لقواته في المعركة •

ب ـ فابيوس : كان يتحاش الاشتباك مع العدو في معركة حاسمة، ويستغل الوقت لتقل حيوية واندفاع القوات الغازية بهجمات صغيرة كوخزات الابر •

جـ ـ كلاوزفيتز : ويبحث عن النتيجة الحاسمة والنصر في المعركة الرئيسية الطاحنة •

د ـ لينين : كان ينادي بتأجيل المعركة حتى يسمح التفكك المعنوي للعدو بمقاتلته والتغلب عليه •

هـ ـ ماوتسي تونغ : بنى استراتيجية على التفوق المعنوي الثوري •

و ـ هتلر : نجح في تطبيق ستراتيجية (القضم) طبقها في اوربا في الاعوام (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) •

ز ـ بوفر وفوللر : تتطابق آراؤهما بشأن ضرورة تحقيق التفوق التقني (التكنولوجيا) والجيوش الميكانيكية (الآلية) •

الا انه يمكن ان تندرج جميع هذه الاختيارات تحت نوعين من الاستراتيجية وهما :

أ ـ الاقتراب المباشر وغير المباشر : لقد طور ليدل هارت ، هذه النظرية الستراتيجية بصورة باهرة واعتبرها أفضل الاستراتيجيات على الاطلاق •

ب ـ الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة : حاول اندريه بوفر ايجاد فروقات بين نظريته هذه ونظرية ليدل هارت للاقتراب المباشر وغير المباشر الموضوع الذي سوف تتكلم عنه بالتفصيل في الفصل القادم •

وينبغي ان نعلم جيدا ان كافة الاختيارات الستراتيجية للمعركة غير ثابتة وعرضة للتبدل المستمر في الزمان والمكان ، وهذا يعني على الفكر ان يستخلص العوامل الاساسية للاستراتيجية العسكرية التقليدية (البحته) وهي :

أ ـ فهم تطورات الحرب بسرعة اكبر من فهم العدو لها ، لان الحرب الحالية ، لا تشبه في جوانب عديدة بالحرب الماضية •

ب ـ فهم وتوقع العوامل الجديدة أو المستحدثة ، وهذا يعني فهم عوامل التفوق التي تظهر في كل مرحلة ، مثلا (اظهر نظام الحصون الدفاعية تفوقه حيناً ، والمعركة الحاسمة او العمليات الصاعقة حينا اخر •

تعاقبت انواع الحروب خلال فترات طويلة ، فكانت (قصيرة حاسمة) أو (طويلة منهكة) أو (عقيمة غير قادرة على الوصول الى نتيجة هامة) .

وكان المعاصرون يفقدون صوابهم عند كل انتقال من مرحلة الى اخرى لان القوانين التي يعتمدون عليها تفقد كل قيمتها فجأة .

أن معرفة هذه الحقيقة تؤدي الى فهم مراحل تطور الصفة الحاسمة للقوات المسلحة ، ولهذا الفهم أهمية كبرى لان فيه مفتاح الستراتيجية العسكرية الرئيسي[٣١] .

العلاقة بين الستراتيجية (السوق) والعمليات والتعبية :ـ

عندما تحل مرحلة تنفيذ الاعمال الحربية لتحقيق الاهداف المرسومة، في سوح الحركات ، وميادين القتال ، تطرح معضلة فكرية أساسية أدى تجاهلها في الماضي الى وقوع عدد كبير من الهزائم منها مثلا (هزيمة فرنسا ١٩٤٠) وهذه المعضلة هي : (العلاقات بين الستراتيجية (السوق) والعمليات العسكرية ، والتعبية) .

ولما كانت الستراتيجية العسكرية ، وسيلة من وسائل سياسة القوة ضمن اطار الستراتيجية الشاملة أو أن شئت قل ، ضمن السياسة العليا للدولة[٣٢] . أصبحت العمليات والتعبية ، بلا شك ، وسيلتا تطبيق الستراتيجية العسكرية وأن عليهما أن يتبعاها وليس العكس ..

ولكن هنالك عدداً من كتاب قدماء ومحدثين (ونذكر من المحدثين فوللر ، وكامي رجرون ، وتوينبي) يفسرون كل تطور الاستراتيجية بالتطورات التقنية ، ويشيدون بالتطورات التي أحدثتها ظهور : (نظام

(٣١) كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ــ اندريه بوفر ص ٨٣ .
(٣٢) على اعتبار ان الستراتيجية الشاملة تندمج بالسياسة العليا ، نظرا للطبيعة المتغيرة لها .

الكراديس ، واللجون والمنجنيق ، والنبال ، بارود المدفع ، البندقية سريعة الطلقات ، الرساشة ، الدبابة ، الطيران ، الصواريخ ، الذرة .. الخ) كل هذه الاختراعات برأيهم حددت خطوط التبدلات والانعطافات الكبيرة ، ويستنتجون من ذلك أن من الواجب، توجيه جميع الجهود نحو الاختراعات التقنية (تكنولوجيا العسكرية) الحديثة ، وخلق التعبية الملائمة لها ، على أن تكون الستراتيجية التي تطبق هذه التعبية والعمليات العسكرية تابعة لهما[٣٣] .

وهذا يعني انهم يقدمون مفهوما معاكسا للفكرة السابقة ..

ويظهر هنا تناقض خطير يزداد خطره ، بأحتوائه على «جزء من الحقيقة» ويكمن ذلك في الواقع كما يقول (بوفر) بان التقدم التقني ، ولاشك عامل رئيسي من عوامل القوة ، ومن البديهي ، تعذر ايقاف الدبابة بالبندقية ، واسقاط الطائرة بالسهام مثلا .

ومن الطبيعي من جهة اخرى ، ان يقدم التفوق التقني ميزة كبيرة لمن يتمتع به ، لانه يزود الستراتيجية بوسائل اضافية فعالة ..

ولكن من المحتم عدم جدوى هذا التقدم التقني ، أذا ما استخدم في اطار ستراتيجية سيئة . وهذه نقطة اساسية لا يجب نسيانها ابداً .

مثال ذلك : تجربة الفرنسيين في الجزائر ، يمكن ان يثير التساؤل التالي هل سمح التسليح الحديث والمتطور جدا للفرنسيين الحصول على النتيجة الحاسمة لاخماد ثورة الجزائر ؟. . وهل تمكن الاميركيون بتسليحهم فائق التطور كسب الحرب في فيتنام ..؟.

---

(٣٣) كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ـ اندريه بوفر ـ ص ٧٦ .

اذن ، فان تقييم التفوق التسليحي ، يجب أن يتم ضمن عمل ستراتيجي ملائم لاحباط ستراتيجية الخصم ، وتكتيكاته (عملياته وتعبيته)، لتوضيح ذلـــك نقـــول :

قد يكون للدبابة والطائرة تأثير حاسم ، ولكن حرب العصابات اثبتت فشــــلهما •

أذا ماتم اختيار مقاومة الدبابات في الحرب التقليدية ، بمشاة راجلة (كما فعل الفرنسيون عام ١٩٤٠) فأن الهزيمة واقعة لا محالة • والهجوم بمشاة خفيف على مواقع حصينة مدعومة بأسلحة متطورة حديثة ، وبكثافة كبيرة ، مصيره الفشل حتما •

وعليه يمكننا القول بأعتقاد جازم ، بأن التعبية الصحيحة والمجديـة هي الاستراتيجية (العسكرية) بعينها • وعلى هذه الستراتيجية ، ان تحدد شكل الصراع ، وأسلوب العمل بالتقرب (المباشر او غير المباشر) •

ولكن ليس على الاستراتيجية العسكرية أن تختار شكل التعبية فحسب ، بل عليها ان توجه تقدم التعبية ، لتمكنها من القيام بدورهـا الضـروري للحصول على النتيجـة الحاسـمة ••

مثـال ذلـك :

« جرى تطبيق فكرة ستراتيجية ذاتها ، مرتين ، في الحربين العالميتين: الاولى ، عام ١٩١٨ ، حاول الالمان القيام بخرق الجبهة مع الاحاطة الواسعة لجناح الفرنسيين الأيسـر فلم تنجـح المحاولة ، لان الوسـائل المتوفرة في ذلك الوقت ، لم تكن ملائمة لانجاز تعبية الخرق والاحاطة الواسعة ، نظراً لبطيء ايقاع التقدم والحركة في ذلك التأريـخ ، في حين ، نجحت المحاولة، وحقق الالمان عام ١٩٤٠ (الحرب العالمية الثانية) النتيجة الحاسمة في تطبيق نفس الفكرة الستراتيجية مع ادخال تعديل طفيف عليها ، وذلك ليس بفضل

التعديل الذي تضمن تغييراً في اختيار موقع الخرق وجعلها من منطقـــة «الاردن» الوعرة وغير صالحة لعمل الدبابات فحسب (كما يعتقد البعض) وانما بفضل التعبية المتلائمة مع معطياتها الذاتية ، أي بعبارة اخرى ، ظرأ لتوفر امكانية تحقيق الفكرة الستراتيجية بامكانات التعبيـــة الحديثـــة ، المستندة على زيادة قابلية الحركة والسرعة ، التي توفرت لها فـــي هـــذا الـــوقـــت » •

اذن ، فأن الافكار الستراتيجية العسكرية لكي تكون قابلة للتطبيق، يجب أن تتلائم مع امكانات التعبية العصـــرية ، المســـتندة الى معطيات التكنولوجيا الحديثة تماما • كما ينبغي أن يتم التقييم التقني (التسليحي) العصري وامكانات التعبية ، والعمليات (العسكرية) • يجب ان يكون ضمن اطار فكرة استراتيجية ملائمة لاحباط افكار الخصم الستراتيجية • هكذا فأن العلاقة بين الستراتيجية ، والعمليات العسكرية والتعبية ، متبادلـة ، وفق حسابات الخطأ والصواب في تحديد تلك العلاقات الناهضة في كـــل عصـــر من العصـــور •

الفصل السادس عشر

▪ انواع الستراتيجية



الفصل السادس عشر

« انــواع الستراتيجية »

وقد أنتهينا تـواً من دراسة أقسام الستراتيجية من حيث « الدرجة » أي تقسيمها الى عدة مستويات (الميتاستراتيجية ـ الستراتيجية الشـاملة أو العليا او القومية ـ الستراتيجية العسكرية التقليدية (الصـرفـة) ـ استراتيجية المعركـة) •

وقد نوهنا بان الستراتيجية تنقسم من حيث طبيعتها ، من جهة اخرى الى نوعين من الستراتيجية هما :

أ ـ الستراتيجية المباشرة وغير المباشرة •

ب ـ الاقتراب المباشر وغير المباشر •

وقد تبدو التعابير فـي (أ ، ب) اعلاه تعابير متداخلة ، قابلة للنقاش ولكثير من اللبس والغموض ، الا أن ليدل هارت طور نظرية التقرب غير المباشر بصورة باهرة ، واعتبرها أفضل من كافـة خيارات الاسـتراتيجية العسكرية التقليدية على الاطلاق ، ويؤيده في ذلك جميع كتاب الستراتيجية، قاطبة • ولقد فصل ليدل هارت استراتيجية « التقرب غير المباشر » فـي كتابه « الاستراتيجية وتأريخها في العالم »[1]، في هذا الكتب يتعرض ليدل هارت لاهم المعارك الحاسمة في التأريخ ، ويعزو سبب الانتصارات الحاسمة

---

(١) تعريب المقدم الهيثم الايوبي ـ منشورات دار الطليعة ـ بيروت •

فيها الى اتباع الطرف المنتصر استراتيجية التقرب غير المباشر ، فماذا يعني هذا النوع من الاستراتيجية ؟•

يرى ليدل هارت أن هناك نوعين من العمل العســـكري على صعيد الاستراتيجية نوع مادي يستهدف القوات المعادية الرئيسية بصورة مباشرة، وهذا ماسماه بالاقتراب المباشــــر •• ونوع معنوي يوجه الى مركز تفكير هذه القوات وجهازها العصبي لشله ومنعه من التفكير والتخطيط والتعزيز وهذا ما أسماه بالتقرب غير المباشر •

يكون من الواضح بهذه الصورة ، ان استراتيجية التقرب المباشـــر وغير المباشر التي تكلم عنها ليدل هارت تفترض اســـتخدام القـــوات العسكرية ونشوب القتال وهي ذات طابع جغرافي وبهذا تدخل ضمن مجال الاستراتيجية العسكرية التقليدية ، التي هي فرع مـــن فـــروع الستراتيجية أو العليا أو القومية كما فصلناها فيما تقدم •

وعليه ، تتضمن هذه الاستراتيجية (التقرب غير المباشر) في مجـال العمليات العسكرية « عدم أخذ الثور من قرنيه »[٢] ، أي عدم مجابهة العدو بصورة مباشرة ، وتعني عدم الاقتراب منه الا بعد ازعاجه ، ومفاجـآتـه وزعزعة توازنه ، بتقرب غير متوقع من قبله ، ويجري عادة من اتجاهـات متحـولـــة •

والواقع ان هذه المناورة الستراتيجية (التقرب غير المباشر) كمـــا يقول (ليدل هارت) هي وسيلة تفرض نفسها على أحد الخصمين المتنازعين، أذا كان لا يثق ثقة تامة ، بأنه من القوة بحيث يستطيع انتغلب على خصمه في معركة تنشب على ارض يختارها الخصم •

---

(٢) كتاب آراء في الحرب ــ تاليف اكرم ديري ــ ص ١٣ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر •

لقد بين بحق ان كلا الطرفين المتحاربين ، لا يستطيع ان يكون واثقا كل الثقة من قوته كل على حده ، وحتى لو احسن أحدهما انه قوي ، فأن انتصاره سيكون له ثمن باهظ التكاليف ، فيما أذا اختار التقرب المباشر، ولهذا يقترح ليدل هارت الاستخدام المنهجي للتقرب غير المباشر ، ويعنى، التقدم نحو العدو من اتجاهات غير المتوقعة ، كالتقدم الذي قام به الالمان في (الآرادن) أثناء الحرب العالمية الثانية ثم التقدم في اتجاهات ، والقيام بتغيرهما ، بحيث تصرف تفكير العدو عن الاهداف الحقيقية ، كالتقدم الذي قامت به الفرق المدرعة الالمانية عام ١٩٤٠ ضد فرنسا ، بحيث زعزت ترتيب الحلفاء الدفاعي ، وحيرتهم في اهداف الهجوم ، هل هو باريس أم شمال فرنسا •• ؟

في حين ان حرب ١٨٧٠ – الى الحرب الروسية اليابانية ، كانت معظم الاستراتيجيات المطبقة من نوع التقرب المباشر •• لهذا لم تكن هذهالحروب حاسمة ، وكذلك الحرب العالمية الاولى التي استخدم فيها الهجوم المباشر المدعوم بتفوق ساحق بالمدفعية الا ان كل الهجمات التي حدثت ، أثبتت ان من الممكن خرق الجبهة ضد عدو ضعيف المعنويات ، الا أن النتائج لاتكون حاسمة وقادرة على احراز النصر النهائي •

لقد كان (ليدل هارت) على حق في معظم الحالات ، فيما يتعلق بالفكرة الرئيسية من هذا المفهوم ، برأي (اندريه بوفر) والذي كان قلب ميزان القوى المتجابهة قبل وقوع المعركة بالمناورة لا بالقتال ، فبدلا من مجابهة العدو مباشرة في الزمان والمكان من اختياره ، ينبغي الاستعانة بلعبة محكمة ، ترمي الى الاخلال بترتيباته ، وتوقعاته وتوقيتاته ، وذلك أما بغية التعويض عن النقص الذي نجد انفسنا فيه بالنسبة لقوات العدو أو لغرض تأمين التفوق الساحق عليه وابادته •

غير أن هذه الفكرة المركزية (كما قلنا) كانت تقتصر على تطبيقات الاستراتيجية العسكرية التقليدية (الصرفة) ذات طابع جغرافي (التقرب المباشر وغير المباشر) •

عليه فان الجنرال (اندريه بوفر) ينظر للاستراتيجية من زاوية مختلفة اخرى مشيراً الى وجود بدائل تقدمها الاستراتيجية الشاملة ، بأتباع اسلوب المباشر أو غير مباشر وبتشكيلات متنوعة ومتعددة ، هكذا فانه ينقل مزايا التقرب غير المباشر التي ابرزها (ليدل هارت) الى مجال الستراتيجية الشاملة ، ويمكن ممارسة لعبة الستراتيجية بأسلوبين بشكل عام (مباشر وغير مباشر) كالموسيقى بطبقتين على حد تصوير (بوفر) والمفتاح الرئيسي للطبقة العليا ، هو المباشر تكون فيه القوة هي العامل الرئيسي والجوهري، أما المفتاح للطبقة الثانية ، فهو يمثل الستراتيجية غير المباشر ، التي تتراجع فيه القوة ليحل محلها الفكر المستند لعلم النفس والعلوم الاخرى ، وبالطبع فأن أية استراتيجية يمكن ان تستيد من كلا المفتاحين وبدرجات متفاوتة ، وتؤدي بالنتيجة الى ظهور عدد كبير من الانماط الى حيز الوجود •••

ويجد تطبيقات التقرب غير المباشر في الستراتيجية الشاملة بشكل مختلف ، في كل النزعات التي يريد أحد الخصمين فيها الوصول الى النتيجة بوسائط غير عسكرية أو بوسائط عسكرية أقل من الوسائط التي يحتمل أن تجابهه ولهذا فقد اعطى (بوفر) لهذه الاستراتيجية الاسم العام « الاستراتيجية غير المباشرة » •

لقد اضحت لهذه الستراتيجية مساحة عمل متسعة بسبب وجود السلاح الذري ، فأضحت بالغة التعقيد ورهيبة الفاعلية ، ويتميز بصفات ماكرة ومخادعة ، لانها أصلا غير مباشرة ، غير انها لم تفهم جيداً في معظم الاحيان •

الفرق بين التقرب غير المباشر والاستراتيجية غير المباشرة :

ولا يكمن الفرق الأساسي بين التقرب غير المباشر ، والاستراتيجية غير المباشرة في الطابع الجغرافي «للتقرب.» فحسب ، فالتقرب غير المباشر يهدف في الحقيقة الى النصر العسكري ، ولكن باتباع تحضيرات وأساليب غير مباشرة لذا فان التقرب المباشر وغير المباشر يدخل ضمن حقل الستراتيجية العسكرية الصرفة في حين ان الستراتيجية غير المباشرة تدخل ضمن حقل الستراتيجية الشاملة ، وهي تلك التي تنتظر حلول الحسم بوسائط غير وسائط الانتصار العسكري، تتراوح بين المساعي السليمة/الدبلوماسية وبين التلويح بالقوة أو بأستخدامها ومن ضمنها اسلحة التدمير الشامل .

وهناك ميزة اخرى للاستراتيجية غير المباشرة ، وهي تكمن في الطابع الخاص الذي تتخذه فيها « حرية العمل » التي أضحت محدودة ومفيدة في معظم الاحيان ، بأنعكاسات ، وردود الفعل ، التي قد يسببها تطور النزاع على الوضع الدولي .

وقد حاول هتلر في الاعوام ١٩٣٦ – ١٩٣٩ ، بلوغ أهدافه دون أن يجعل الحرب العالمية تنشب ، يعني أنه راعى ظروف الوضع العام الدولي، وعمل ضمن حدود حرية العمل المتاحة له في تلك السنوات ، متبعاً الاستراتيجية غير المباشرة ، حقق بها اهدافه دون اراقة الدماء .

وفي عصر مابعد الذرة ، ضاق هامش حرية العمل بدرجة كبيرة جدا ، وقد تجلى ذلك بوضوح في النزاعات المتعددة المحدودة ، التي حدثت منذ عام ١٩٥٠ (كوريا ، الهند الصينية ، شمال افريقيا ، اسرائيل ، السويس ، كوبا ، برلين) . فأن النتائج التي تمخضت عن هذه الحروب ، كنا نراها مغايرة تماما لو كانت قد تمت ، تحت شروط توفر حرية عمل اوسع للطرف الاقوى الذي هزم امام الطرف الاضعف ، او الذي اخفق في الحصول على النتائج المرجوة ، بسبب قيود وانعكاسات الوضع الدولي في عصر الردع النووي .

هكذا تبدو الاستراتيجية غير المباشرة على انها فن معرفة افضل استخدام لهامش حرية العمل الضيق الذي يفلت من الردع بالاسلحة النووية • ويسمح الوضع العام الدولي استخدامه ، لمديات محددة ، ممكن الحصول فيها على نجاحات هامة ، مع التحديد ، والتحديد الصارم احياناً لاستخدام الوسائط العسكرية ضمن هامش حرية العمل المتاح •••

لقد استخدم السوفيت هامش حرية العمل بدرجات متفاوتة من النجاح (المجر ، تشوكسلوفاكيا ، كوريا) تمكنت من تحقيق أهدافها بحركة سريعة ومباغته ، وبأتباع الستراتيجية غير المباشرة ، بشكل لم تؤد عملها الى تدخلات الدول الخارجية او نشوب حرب عالمية •• وبظروف معاكسة دولية طبقت اسرائيل هذه الاستراتيجية في عدوانها ، وحققت أهدافها التوسعية ، بالاستفادة من هامش حرية العمل الضيق المتبوع بتدخلات الدول العظمى وفرض ايقاف اطلاق النار •

وينتج عن ذلك ، ان امكانية هذا العمل المتاح / ونجاح العملية / ضمن هامش حرية العمل ، محكومان بنجاح مناورات الستراتيجية الشاملة في الساحة العالمية (وهذه مايسميها البعض « بالمناورات الخارجية » واني أفضل تمسية « لعبة الامم » عليها •• وهي عبارة عن تركيب متكامل من الدبلوماسية والاقتصاد والمال ، والسياسة ، والمصالح المشتركة بمنظور المستقبل ، والتي تتضمن عدداً لا يحصى من الانماط والروابط ، ويتحدد هامش حرية العمل لكل دولة من الدول من محصلة ابعاد هذه المجموعة الغريبة والمعقدة من المصالح المتشابكة والمتناقضة في معظم الاحيان •• وهذا الهامش ، ما هو الا ، ثغرات تنشأ عن تناقضات المصالح المتشابكة •

وعليه فأن تجاهل أو التنكر لقواعد هذه اللعبة ، او (المناورة) يؤديان بالضرورة الى الخطأ في تحديد هامش حرية العمل المتاح ، وبالتالي ضياع فرصة الاستفادة من وجودها ، هكذا فأن التمسك بقوانين هذه اللعبة ، يتمثل في الحقيقة بتطبيق الاستراتيجية غير المباشرة ، ضمن معطيات الستراتيجية الشاملة او العليا او القومية •

الفصل السابع عشر

الخاتمة



الفصل السابع عشر

الخاتمـــــة

يستحق المهزوم ، مصيره لان هزيمته ، تنتج دائما عن الاخطاء الفكرية التي ارتكبها ، سواءً قبل النزاع او خلاله ... يصح هذا القول فيما أذا لم يكن المهزوم ، ضحية عدوان غير متكافىء ، وقع عليه من قبل قوة توسعية طامعة ومارقة ، وفيما أذا لم تكن اسلحة القدر ضده .

فلو تخيلنا كل ماسبق ذكره ، ومر مناقشته ، في هذه الدراسة، لأمكننا ارجاع كل شيء الى الاصل أي الى (الفكر) .. وتوصلنا بسهولة الى كشف الوضع الجدلي للخصومة ، والخصوم ... هذا المسار الذي تحدده (كما رأينا) أربع احداثيات ، هي : (القوى المادية ، والقوى المعنوية ، والقوى الفكرية ، والقوى وآثار القدر والحظ والصدفة) .

بيد أن الحرب أو الصراع ، تستخدم القوى المادية المتأثرة بعتاد العصر ، والقوى المعنوية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالافكار المسيطرة والمنبثقة من الحضارة القائمة .. ولا يمكننا استبعاد آثار القدر والحظ والصدفة كليةً ، وتدخلات هذه القوى الغامضة التي حينما تطرأ ، تغير قيم محصلة مسارات القوى الثلاث نحو الاحسن او الاسوأ .

وأني آمل ان تكون هذه الدراسة قد أقنعت القارىء ، الى حد ما ، واظهرت له حقائق الاستنتاجات التالية :

أ ـ حينما ينظر الى الحرب وفق مسار الجدلية ، بأعتبارها ، حدثا من أهم أحداث حركة التاريخ البشري ، ينبغي امعان النظر بصورة محكمة الى (الفكر) الذي يعكس هذا الحدث العنيف ، وينعكس عليه ، فأن شكل الحرب المنبثق من هذا الفكر ، كونه شكلا مستحدثا أو قديما وباليا، يقدم دليلا ساطعا لوضوح الرؤية الفكرية او العكس ... وهكذا نصل الى الاستنتاج من أن الحرب عبارة عن فكرة في الاساس والجوهر ، وتزداد فيها أهمية اكتشاف الدور الخاص للقيم الفكرية ، لان الفكر ،هو الاساس الخلاق لكل حدث ، والحرب ، كحدث ، يستمد قوته من الفكر ، فهو الذي يربح الحرب او يخسرها ، عليه ينبغي ان يكون الفكر الذي يقود الحرب يتمتع بصفات عليا وخصائص معينة ، ولكنه ليس فكراً مجردا ، وانما فكر مسلح بالعلوم والتقنية العصرية ، ومتلاحم مع الروح ، ومدعوم بالقوى المادية والمعنوية والنفسية ، وبعناصر هذه القوى التي تتعلق بالفضائل البشرية والحربية من (العبقرية ، والشجاعة والاقدام ، والحزم ، والصمود، وقوى النفس والشخصية والمزاج ، وروح الوحدة والقيادة) ، هذهالفضائل التي تتأثر بالفكر ايجابا او سلباً .

وبهذه الصورة يكون من الجدير بالملاحظة ، أن كل الطرائق سواءً استخدمت من قبل العقائديين او رؤساء (ماديين) عبارة عن أساليب لا تبلغ النصر الحاسم ، الا بتفوق الفكر على القوة ، وتفوق الفكرة على المادة ، والعقيدة على القتال ، وانطلاقا من هذا المنظور ، ينبغي أن يخضع الفكر للحقيقة لا أن يخضع الحقيقة لقوانينه .

ب ـ وفي تحليلنا للنظرية الحربية والاستراتيجية ، وفق النهج الذي انتهجناه في دراسة هذا الجانب الهام والحيوي من العملية الفكرية ، نجد أنفسنا ، قد توصلنا الى كشف مجموعة من الملابسات والغموض التي تكتنف بعضا من المفاهيم النظرية ، والافكار المسبقة التي وجدناها كثيراً

ما أدت الى الخلط بين مفهومين لمظهر واحد ، وبالعكس ، من جهة ، والى تقسيم جائر وتعسفي لمسألة موحدة اصلا من جهة اخرى •

واني لا أجد نفسي مقتنعا تماما بفكرة التقسيم الافقي بين السياسة والاستراتيجية ، نظراً للطبيعة المتذبذبة لهذه الاخيرة • فيما عدا ذلك أراني مقتنعا بدرجة كبيرة بأهمية وفائدة تقسيم الأستراتيجيات (من حيث الدرجة) بحيث تتخذ الستراتيجية الشاملة او العليا أو القومية موقعها فيه تحت (الميتاستراتيجية) ، وفي قمة هرم الاستراتيجيات المتعددة ، والخاصة بكل مجال من مجالات النشاط البشري ••• ويكون دورها ، في الواقع، توجيه وتنسيق الاستراتيجيات الاخرى ، الاقتصادية والمالية ، الصناعية ، والدبلوماسية ، والتقنية •• الخ• فليست الاستراتيجية العسكرية (التقليدية) الصرفة سوى أحد هذه الاستراتيجية ، وتتضمن في طياتها الستراتيجية العملياتية (ستراتيجية المعركة) وتقوم بدور رئيسي او دور بسيط مساعد ، حسب الحالات والاوضاع •

الا أن حلول هذه الستراتيجيات تتباين بعضها عن البعض ، بطرائقها المستخدمة ، فكل حل منها عبارة عن مزيج من الطرائق المنتقاة لكي تتلاءم بصورة أفضل ، وتتفق مع الوسائل الجاهزة او مع مكامن الضعف لدى الخصم ، وأختيار أفضل هذه الطرائق من بين مجموعة كبيرة واسعةالامتداد، تتدرج بين الايحاء والتدمير الشامل ••

ومن بين الاختيارات المتاحة الاخرى ، يعتبر الحصول على حرية العمل الدليل الساطع على النجاح • وان الصراع من أجل الحصول على حرية العمل ، وحرمان الخصم منها ، هو في الواقع روح الستراتيجية المعاصرة ، عندئذ ، يبرز الى النور مفهومان :

الاول : ينطوي على فكرة استخدام القوة المتفوقة الجاهزة • وهذا هو النوع المباشر من الستراتيجية •

والثاني : يستهدف لعبة اكثر خداعا وتحايلا وخبثا ، وهو الذي يشكل « الاستراتيجية غير المباشرة » •

وليس الاقتراب المباشر وغير المباشر سوى نماذج للاستراتيجية المباشرة •

ومن ثم ينبغي ان نعلم بأن الاستراتيجية ، لاتدار ، كلعبة الشطرنج بأحجار ذات قيمة ثابتة ومحددة ، فحلولها تماثل مختبر تحضير العقاقير من مزيج من العناصر من اجل الحصول على الدواء الناجح لمرض تم تشخيصه بصورة دقيقة • فهي (الاستراتيجية) بهذه الصورة «اختراع دائم وابدي» على حد تعبير (اندريه بوفر) يستند الى فرضيات ، ينبغي التحقق منها اثناء العمل ، والا فأن الثمن سيدفع باهضا حينما تحل الهزيمة ، نتيجة لأية اخطاء في التقدير ، وهنا تكمن أكبر صعوبة يتعرض لها الفكر البشري ، وبخاصة في عصر التطور السريع ، كما هو الحال في عصرنا الحاضر •

وقد اسيئت معرفة هذا الطابع التطوري ، حتى الاعوام الاخيرة ، لان بعض النظريات ، ذهبت الى حد الادعاء بان الاستراتيجية فضيلة عمل ومبادىء ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، وعلى التعبية وحدها ان تتطور ، وهناك من يتمسك بهذا الرأي ومايزال وانا لست منهم •

وأخيراً فأن كثيرا من مجالات الستراتيجية لم تستكشف بعد ، بصورة كاملة أو لم تستكشف على الاطلاق (برأي بعض المحدثين) من هنا تظهر أمامنا مهمات وواجبات عاجلة ، ان اهمها يتعلق بدراسة العامل النفسي للاستراتيجية لان من الضروري تحديد نفسية الجماعات بدقة ونفسية الجيوش والقادة والحكام والشعب وأخيراً الرأي العام الدولي والداخلي •• وقد اصبح من المستحيل الاستمرار في العمل بحرية تامة في محيط الاسرة الدولية بقيودها وتعقيداتها •

لهذا فلا قيمة للاستراتيجية ، أذا لم تمارس ضمن اطـار النفســـية (البسكولوجية) بصورة جيدة ، وهذه هي من اصعب المشكلات ، وتعود دون شك الى شكل خاص من اشكال التفكير ، وربما كان هذا الشـــكل هو الشـــكل الجدلي •

وهذا ما حاولناه في هذه الدراسة المتواضعة ، مع اعتقادنـا وايماننا بأن الفكرة هي التي ينبغي ان تحكم وتوجه كافة المسائل المتعلقة بالصراع أو الحرب او الستراتيجية ، كما يجب أن تحـــكم وتوجـه كل الامـور الانســـانية الاخرى •

غير ان هذه الفــكرة هي في حد ذاتها قناعة من القناعات أو فلســفة من الفلســـــفات •



التذييل

في أثناء البحث والدراسة ، ولدى الرجوع الى المصادر المغمورة بالغبار في الرفوف العالية ، بغية استقصاء المعلومات ودعم الحجج ، او تثبيت بعض الافكار والمفاهيم ، كأسلوب دراسة متبعة اعتياديا ، استأثر اهتمامي وأثار فضولي ، موضوعين ، من مواضيع الحرب والستراتيجية ، في غاية الأهمية وبالغة الخطورة ، لاسيما فيما يتعلق بجانب التطبيق العملي لمفهوميهما ، الا انه نظراً لكونهما من المواضيع الفرعية ، وبعيدة الصلة بالفكرة العامة ، وخط التفكير المركزي للدراسة ، لذا لم يكن بالامكان ضمهما في اماكن مناسبة من فصول الكتاب دون أن يؤدي ذلك الى الاخلال بالفكرة العامة ، والانحراف عن خط التفكير المركزي •• فضلا عن الأطالة والاطناب ، بلا فائدة مرجوة •• كما لم يكن من الحكمة تركهما بدون المعالجة والدراسة المستفيضة لاهميتهما •

على ذلك فقد فضلنا اضافتهما الى نهاية الكتاب في ملحقين (أ - ب) متحاشيا بذلك المحاذير الآنف الذكر •

الملحق (أ) ويتعلق بمفهوم « نقطة الذروة للهجوم - والحد الاقصى للمناورة الستراتيجية » •

الملحق (ب) ويتعلق بحرب الازرار ، كما يسميها البعض •• والحرب الالكترونية كأسم شائع لها •



الفصل الثامن عشر

نقطة الذروه في الهجوم
والحد الاقصى للمناورة



الفصل الثامن عشر

الملحـق (آ)

نقطة الذروة للهجوم ـ والحد الاقصى للمناورة الاستراتيجية

أن مفهوم نقطة الذروة للهجوم والحد الاقصى للمناورة الذي تكلـم عنـه (كارل فون كلاوزفيتز) أب الاستراتيجية وواضع النظرية الحربيـة وأسس الستراتيجية ـ سهل وبسيط من الناحية النظريـة ولـكن ممتنـع التطبيق في كثير من الاحيان •

لقد اخفق في تطبيقه عدد من عباقرة الحرب امثال (شارل الثاني عشر ونابليون وهتلر) مما يثير الاستغراب والدهشة من أخفاق ثلاثة من اعظم عباقرة العصر في تطبيق هذه النظرية الحربية البسيطة •

تشير هذه الدراسة ان الاخطاء المرتكبة مع تشخيص العلاج المـلاءم الموصوف في فن الحرب •

نقطة الذروة للهجوم
والحد الاقصى للمناورة

١ ــ كثيراً مايستشهد بأســم (كــارل فــون كلاوزه‌فيتــز) ـ أب الاستراتيجية ولكن قليلون هم الذين قرأوا له ، وقليل أيضا اولئك الذين فهموه .. وكثيراً مايتردد على اللسان تعبيره ، من أن الحــرب اســتمرار للسياسة بوسائل اخرى . ويتفق كل الذين طبقوا هذا التعبير في الاعتراف، بعبقرية كلاوزفيتز النادرة ، ولكن ليس هناك واحد من اولئك الــذيــن استوحوا من آرائه وافكاره ، حفظها بصورة كاملة ..

بهذه الكلمات ، استهل (بيير نافيل) مقالة «كلاوزفيتز ونظريـــــة الحرب » ، مدافعا عن افكاره والقوانين النظرية التي وضعها للحرب .

٢ ــ لست بصدد الاتحاد في الرأي مع (بيير نافيــــل) او (كــامــي روجرون) للدفاع عن كلاوزفيتزيه ، ولا الاصطفاف في صفوف النقاد له (ستالين) أو لبعض آرائه دون الاخرى (ليدل هارت ، فوللر) وغيرهما، بل دفعني احساس عميق لاهمية وخطورة مسألة « نقطة الذروة للهجــوم أو الحد الاقصى للمناورة الاستراتيجيه » ، التي تحدث عنها كلاوزفيتــز كثيرا في مؤلفه الثمين (في الحرب) وكذلك بسبب الدهشة من اخفاقــات عدد من عباقرة الحرب ، في فهم ابعاد هذا المبدأ ، لعدم ادراكهم مايتضمنه المفهوم الداخلي لهذه الفكرة ، على الرغم من البساطه والوضوع الــذي تتســم به . مما تكون لدي احساس بأن الطبيعة ، تهب للمدافع الحاذق ميزة تمكنه من تلافي الهدف السلبي للدفاع، مقابل الهدف الايجابي للهجوم، في حدود التعادل ، في نقطة التوازن ، تاركة قول الفصل ، في الصراع : الحذاقة ، والفطنة ، والعبقرية ..

٣ ـ ترد هذه التسمية « نقطة الذروة للهجوم» او كما يسميها بعض العسكريين « نقطة اقصى تطور » في المقدمة التي وضعها المترجمان الاستاذان « اكرم ديري والمقدم اليثم الايوبي » للمؤلف « في الحرب » الذي نقلاه الى العربية ، لكارل فون كلاوزفيتز ، وفي كتب وترجمات اخرى لهما .

لا تتواجد مثل هذه التسمية ضمن المصطلحات العسكرية المتداولة عندنا ، في حين هنالك تعابير ، تعطينا دلالة مموهة لفكرة « نقطة الذروة » وهي ترد ضمن مصطلحات صفحة الهجوم مثل « زخم الهجوم ـ او ادامة زخم الهجوم ـ او انتهاء زخم الهجوم » .

ولما كانت معانِ هذه التعابين لا تقود الى مفهوم فكرة « نقطة الذروة » ، لذا نرى من الضروري استعمالها كما ورد في المؤلف المذكور.

٤ ـ ماذا تعني « نقطة الذروة » او الحد الاقصى للمناورة ؟

لقد تحدث كلاوزفيتز كثيراً عن هذا المفهوم ، عند تحليله العميق للمميزات المتبادلة للهجوم والدفاع .. وحدده بانه « مرحلة التي يصل فيها اندفاع الهجوم الى الاجهاد ، وتصل المناورة الستراتيجية الى اقصى مداها، تغدو قوة الهجوم في القدمات الاولى هشه ضعيفة ، الامر الذي يضطر المهاجم استخدام قواته الاحتياطية ، ويحصل المدافع على اقصى مردود ، أذا أحسن تقدير هذه النقطة لعدوه ، وقام بهجوم معاكس ..

٥ ـ درست هذه الفكرة من قبل تلاميذه الذين استحصلوا دروسا قيمة من آرائه في الحرب ، ويوجد منهم في كل أمة ، وفي كل طبقة من طبقات المجتمع الواحد . وكان له من أتبع سننه في الغرب والشرق ، وهناك امتداد له في عصرنا الحالي ـ ماك آرثر ـ ماوسي تونج ـ اللذان يستشهدان به وقد طبقا افكاره .. ومع ذلك فان اي واحد يتأمل (كلاوزفيتز) ملياً أثناء

العمل ، يفهم بسرعة أن مولتكه ، وشليفن ولودندروف ، وهتلر مجتمعين كانوا أسوأ تلاميذه ، على حد زعم « بيير نانيل » ، أذا ماقمنا بتقييم لقرن من الحروب الذي عاشـوه ، وذلك لاننا : أذا اعتبرنا ، أن الحرب ليسـت الا وسيلة سياسية معينة ، فعلينا أن نتفق أن السياسة قد فشلت معالوسيلة فـي نهـاية المطـاف ••

أن الضباط الالمان ، لم يستحصلوا من حكمة كلاوزفيتز ، بعد انهيار نابليون والقضاء على ثورة عام ١٨٤٨ ، الا استنتاجا واحدا : وهو ان الدولة، ينبغي أن تخضع للجيش ، نظراً لان السياسة والحرب تتشابكان معاً •

أما الضباط الفرنسيون فلم يعيدوا قراءة (كلاوزفيتز) الا بعد عـام ١٨٧١ وكانت قراءتهم بقصد رفض « فلسفته الضبابية » •

ويمكننا القول ان افكار كلاوزفيتز لم تفهم على حقيقتها •• كما لـم يفهم امتداد نظريته وشمولها من قبل الكثيرين ، ذلك لان هو نفسـه لـم يستطع أن يلاحظ ان عصر الثورات الوطنية البورجوازية ، قد آل الـى الزوال في اوربا ، وانه لم يكن يكتب لعصره بل لعصرنا ، وليس لاوربا فحسب بل للجميع ، ولهذا السبب نجد اسم (كلاوزفيتز) يلمع تدريجيا في الطبقات الثورية الجديدة من المجتمع ، وقد أشاد به ماركس ، انكلز ، ومن بعدهم (لينين) ، الذي كتب عنه «وكرر ماكتبه اكثر من مرة »، أن كلاوزفيتز هو واحد من اعمق المفكرين العسكريين وواحد من اعاظمفلاسفة ومؤرخي الحرب •• انه كاتب أضحت افكاره الاساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكـل مفكر ••

٦ ـ وتعتبر الدراسات الاسـتراتيجية لمولتكه اسـتمراراً لعمـل (كلاوزفيتز) وتكملة للنظرية التي شرحها في كتابه « في الحرب » •

لقد استخلص هتلر درسا صحيحا من تجارب عام ١٩١٤ ، أذ فهم أن الحرب على الجبهتين لا تؤدي الى أي نجاح حقيقي ، أذا تمسكت المانيا بالاستراتيجية التي اقترحها مولتكه بعد عام ١٨٧١ ، كما فهم ، ان عدم نجاح خطة شليفن عام ١٩١٤ نجاحا كاملا وضع المانيا في وضع حاول فون شليفن نفسه جاهدا تجنبه في مخططه ، وهو القتال على الجبهتين ، لذا فكر هتلر بتطبيق فكرة شليفن القديمة المبنية على الدفاع في الشرق والهجوم في الغرب ... الا ان هتلر أخطأ في شيء واحد ، فهو لم يفهم فكرة (كلاوزفيتز) عن «الحد الاقصى للهجوم الاستراتيجي نقطة الذروة » او مايسميه بعض العسكريين « نقطة أقصى تطور » كما مر ذكره .. وهي المرحلة التي يصل اليها الهجوم الاستراتيجي ثم يتغير بعدها ميزان القوى.. فهو لم يفهم انه على مستوى عصر الحرب العالمية الثانية ، تقع «نقطةالذروة» او الحد النهائي للهجوم ، على شاطيء المانش ، فاذا لم تتمكن المانيا من اجتيازه ، حكمت على نفسها بالدفن في فرنسا ، عندئذ لا تجدي متابعة النصر في بلقان، وافريقيا ، ومضاعفة العمليات الجوية، وعمليات الغواصات، مع ترك انكلترة حرة لتعاود الهجوم المعاكس بمعونة الولايات المتحدة الامريكية ، عندما تكون المانيا قد خسرت معظم قواتها في الشرق .

لقد اكد فون مانشتاين على هذه النقطة في كتابه : «انتصارات ضائعة» واعتبر القضاء على بريطانيا هدف المانيا الاستراتيجي الذي تحقيقه يكون كفيلا بالحصول على نتائج حاسمة ..

٧- لم يكن هتلر الذي وسع كثيراً من المفاهيم الاستراتيجية وحده، لم يفهم فكرة كلاوزفيتز عن «نقطة الذروة» وقد سبقه في ذلك نابليون وشارل الثاني عشر (ملك السويد) .. ولم يكن ستالين أوفر حظاً من هؤلاء في فهم هذه الفكرة مع فارق في النظرة والحكم بينه وبين هؤلاء . فبينما يوجه هتلر الى الذاهبين الى مسارح القتال الدائر في الشرق ، نصيحة

يطلب منهم أن يستصحبوا معهم كتاب كلاوزفيتز «في الحرب» في حقائبهم نجد أن ستالين يدعو مواطنيه في الاتحاد السوفيتي الى أن يقضوا نهـائيـاً على الاحترام الذي يكنه العسكريون في العالم للمنظرين الالمان ••• وهو احترام لا يستحقونه لانهم خسروا حربين عالميتين ، وبخاصـــة كلاوزفيتز وكان يقول « ان مـــن المضحك اليوم ان نطلـــب مـــن كلاوزفيتز اعطاءنا الدروس » •

غير ان التجربة لا تحسم هذه المناقشات والا لكان من الحق أن نقبل مع ستالين (صانع هزيمة المانيا رقم واحد) ادانة عقيدة عسكرية لم تنجح في الامتحان خـــلال حربين عالميتين ••• ولكننا مازلنا نعجب بهانيبال وإن قهره سيبيون ، وهتلر وان هزم في نهاية المطاف في اوسع حرب قـادها في العصر الحديث •• واننا مازلنا نستقي الدروس من معارك نابليون تمامـا كما نستقيها من معارك كوتوزف وبلوخر ، ودبلينجتون الظافرة •

ولا غرو أذا كان مؤلف كلاوزفيتز «في الحرب» الذي كتبه في مطلع القرن الماضي كثير من الاجزاء فيها قد شاخت وهرمت •• واننا لن نجد فيها الجواب على الاسئلة التي تواجه الرجل العسكري اليوم في عصر الدبابة والطائرة والصواريخ والقنابل الهيدروجينية والاقمار الصناعية ••» ومع ذلك ليس هناك شخص واحد يعلن عن زعزعة ايمانه بصحة المبادىء التـي اختبرت فترة طويلة من الزمن والتي تمنعنا من أن ننسى بان « الظـواهر العابرة » تبقى رغم قوتها اضعف من المبادىء • وان كلاوزفيتز أحد محللي تـلك المبـادىء ••

٨ ــ ان من أهم ماقدمه (كلاوزفيتز) للفن العسكري والذي لا يجاريه فيه أي انسان ــ في رأي كامي روجرون ــ هو تحليـه العميـق للمبررات المتبادلة للهجوم والدفاع ومفهومه عن «نقطة الروة» موضوع البحث• وان فهم نقطة الذروة من الناحية النظرية سهل وبسيط ولكنها ممتنع التطبيـق



في كثير من الاحيان ، فقد اخفق فيه عباقرة الحرب ، شأنها في ذلك تماماً شأن تطبيق مبادىء الحرب الاخرى ، نجدها في الوهلة الاولى سهلا وميسوراً •• ولكن كم من القادة العظام اخفقوا في تطبيق أبسطها رغم محاولاتهم الجادة للتمسك بها ••؟ ولقد قال نابليون « يذهل المرء على تفاهة مبادىء الحرب ، ولكن يتضاعف ذهوله حين يحس بعجز شديد في تحقيق ابسطها عند التطبيق (ليست الالفاظ تعود لنابليون ولكن القصد يعود اليه بكل تأكيد) » •

هكذا فان مفهوم « نقطة الذروة » في الاعمال الهجومية مرتبط بأضعاف الخصم كلما تقدم ، فلابد من الملاحظة التالية :ـ

أ ـ ان الثقة التي تبعثها الانتصارات في نفس المهاجم في مقابل التفكيك العميق الذي يتعرض له المدافع من جراء الاعمال التعرضية الهجومية امور لا يجوز اغفالها او التقليل من شأنها •

ب ـ ولكن تقدم المهاجم يبعده عن قواعده ، ويتعين عليه ان يحتل الارض المكتسحة ، ويحاصر المواقع القوية ، التي يدافع عنها الخصم بأصرار، كما ويحتاج الى قوات كبيرة لحراسة خطوط المواصلات الطويلة ••• هكذا ستعاني قواته كثيراً من المشاق والآلام ، مضافا الى مشاق القتال وآلامه •

جـ ـ أما الخصم المنسحب امامه الى مقربة من مستودعاته وقواعده فيسهل عليه تموين قواته وتنخفض مشاقه بالاعتماد على تحصينات معدة ومحصنة سلفا ، من قبل قطعات اخرى في الخلف ، وكما يتلقى للدفاع عنها مساعدة شعبه •

٩ ـ وبمتابعة أفكار (كلاوزفيتز) عن « نقطة الذروة للهجوم ـ او المناورة الاستراتيجية نجد حدوث تبدل الموقف أغلب الاحيان ، عندما يقطع

المهاجم تقدمه اضطراراً ليتحول الى الدفاع ... عندئذ يكون المهاجم قد بلغ ، دون أن ينتبه ، مدفوعا بتيار الاحداث حدود التوازن أو حدود قوته الذاتية . وقد يحدث أحيانا ان يجد المهاجم نفسه مدفوعا بفعل القوى المعنوية الذاتية للهجوم ، ان من السهل عليه ان يتابع تقدمه ، بالرغم من الانهاك والارهاق الذي تعانيه قواته .. على المدافع ان يأخذ ذلك بنظر الاعتبار في توقيت هجومه المضاد .

١٠- وتعتبر الغزوات الثلاث لروسيا من قبل شارل الثاني عشر ونابليون ، وهتلر أمثلة بارزة على صحة هذا المبدأ ، والتفاوت بين المعرفة والقدرة (أي بين الفهم والتنفيذ) الى الحد الذي يجعلنا ان نتساءل بأستغراب عن السبب الذي حدى بأثنين من اعظم استراتيجيي العالم (نابليون وهتلر) الى تناسي هذه الدروس التي استخلص من فشل سلفهما (شارل الثاني عشر) وكيف كان بمقدور خصومهما ان يترددوا في اختيار التي يجب ان تواجه الغزو ...

والغريب حقا أنه لا يوجد من بين اولئك الثلاثة الذين هاجموا روسيا، واحد لم يكن يعتقد انه قادر بعبقريته وموهبته الفذة على تذليل كل الصعوبات والمشاق التي تعترض مثل هذا المشروع ... وكيف كان بمقدور شارل الثاني عشر ، ان يتردد في (بولتافا) وبشك في عبقريته وطاقة جيشه الذي سحق به كل الجيوش التي كان يجمعها قيصر روسيا بطرس الاكبر؟.

وعندما دخل نابليون الحرب كان يعلن مؤكداً على انه لن يقترف خطأ شارل الثاني عشر .. وكذلك الدعاية الالمانية ، لم تتردد عن التأكيد بأن هتلر لن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه نابليون وشارل الثاني عشر .

أما اليوم وبذهن صاف واعصاب هادئة ، يمكننا أن نرى بكل وضوح، عدم ادراك هؤلاء الغزاة ، مضمون فكرة « نقطة الذروة ، او الحد الاقصى

للهجوم » • وحاولوا العمل ضدها •• أن لهؤلاء الفاتحين الغزاة عذراً على الاقل ، وهو أن مشروعهم لم يكن يتضمن حلا اخر ، غير الحل الذي حاولوا اســـتخدامه •

لقد فهم نابليون جيداً ، أن الفشل النهائي لشارل الثاني عشر ، كان ناجما عن تطبيق المتقطع لجهوده خلال سلسلة المعارك المتتابعة ، لتلافي هذا النقص ، جمع أعظم الجيوش وأضخمها في جيش واحد لغرض حســم هذه المشكلة ••• الا انه أهمل تحصين مواقع قوية واقامة مســتودعات تموين على طول خطوط مواصلاته ، الامر الذي كان سببا مباشراً في انسحابه الذي ادى الى وقوع جيشه في كارثــة مروعــة ••

أما هتلر الذي قرأ كتاب كلاوزفيتز عن معارك عام ١٨١٢ فأنه تجنب على الاقل الملاحظة الجدية التي وجهها كلاوزفيتز لقيادة الغــزو من قبــل الامبراطور نابليون ، وهي اهمال مواقع قوية ، واقامة مستودعات كما مر ذكرها ••• ففي هذا المجال نجح هتلر نجاحا باهراً في ابتداعه اقامة «مواقع قنفذية» ، يرجع اليها الجيش الالماني بعد فشله أمام موسكو •• « ويقصد بهذه المواقع ، الدفاع الى جميع الجهــات ، ضــد الدبابات والمشــاة والطيران » •• ومن المفروض أن هذه المواقع ، دفاعات متحركة ، وقــد ارتكب كثير من العسكريين أخطاء في تصميمها ومنهم هتلر •• اذ فهموهــا على انها دفاعات ثابتة في كل الاتجاهات ، مع أن تسميتها نسبة الى القنفذ، تدل على انها متحركة ، لان القنفذ حيوان متحرك ، يقف للدفاع كقلعــة محصنة في كل الاتجاهات فترة مؤقتة ثم يتحرك الى مآوى او مكان آخــر يقدم له حماية افضل •• هذا مالم يفهمه هتلر••فجمد تلك المواقع القنفذية في اماكنها ، ولم يستطع هضم فقدان بضعة كيلومترات من الارض المحتلة والانسحاب الى خلف نهر فستوله ، بعد ان استطاعت تلك المواقع ان تقاوم شــتاء عــام ١٩٤١ – ١٩٤٢ •

على ذلك فان الحكم الذي أصدره (كلاوزفيتز) على نابليون ينطبق على شارل الثاني عشر ، كما ينطبق على هتلر •• لقد كتب كلاوزفيتز بهذا الصدد قائلا « ان هذه المعركة لم تفشل لأن نابليون تقدم بسرعة كبيرة متوغلا الى مسافات بعيدة كالاعتقاد الشائع . وليست الامبراطورية الروسية من البلدان التي يمكن أحتلالها حقاً او الحفاظ عليها محتله •• فمعركة ١٨١٢ لم تنجح بفضل صمود الحكومة وصمود الشعب واخلاصه لها ، وثبات جأشه ، ولانها لا يمكن ان تنجح •

ومن المحتمل ان يكون بونابرت قد ارتكب خطيئة كبرى بمهاجمة روسيا ، الا ان نتيجة المعركة قد برهنت على الاقل بأنه اخطأ في حساباته•• ولكن علينا ان لا ننسى لو قبلنا بضرورة هذا الهجوم لوجدنا انه لم يكن من الممكن قيادته بصورة اخرى لبلوغ هدفه •

١١– بالنسبة للمبادىء العسكرية والحكمة النظرية المتضمنة فكرة نقطة الذروة للهجوم ، يعتبر أحسن رد فعل وافضله هو رد فعل المدافع ، وليس رد فعل المهاجم ، سيما أذا اندفع في معركة لا مصير لها •• وبالنسبة لمن يرى بصورة عامة شاملة ان يملك المدافع من الذكاء مايتيح له جر خصمه الى مابعد « نقطة الذروة » لهجومه ، يحددها بالحس السليم والحكمة والمعرفة لتشكيل قتال الخصم واسلوب قتاله •• وان يستفيد الى أقصى مايمكن من انقلاب ميزان القوى لهذه المناورة •

١٢– ويكون من الحق بعد دراسة هذه الامثلة البارزة أثارة التساؤل التالي :–

ليس هناك بلد يتمتع بمساحات شاسعة مشابهة لمساحات روسيا وابعادها ، ومن النادر وجود دولة هيئتها الطبيعة بخط للتراجع على ٨٠٠٠كم من حدودها ••• فهل نستنتج من تلك الامثلة ، ان الوسيلة الوحيدةلمقاومة غزوات هجومية قوية كهجوم شارل الثاني عشر ونابليون وهتلر ، هو

الانسحاب الى مسافة ألفين او ثلاثة الاف من الكيلومترات عن الحدود ، وهو أمر ليس في متناول كل الدول ولا في قدرتها ؟..

ان لدى الفن العسكري في رأي كلاوزفيتز وسائل اخرى ، فبالرغم من أن هذا الفن يمتنع عن اعطاء صفة عامة يستخدمها القادة الحربيون الذين لا يتسمون بالخيال وصفاء الذهن .. فهو لا يخفي ميله نحو المناورة التراجعية المتبوعة بهجوم ضد جناح الخصم المتقدم .. لقد طبق (جوفر) هذه المناورة على (المارن) عندما قذف بجيش غاليبني على جناح الجيش الالماني ، بعد أن انسحب امامه ابتداء من شارلروا .

أن مفهوم «نقطة الذروة» هذا المفهوم الاساسي بالنسبة للمهاجم العاقل والمدافع الحاذق ، يمتد على مسارح عمليات ، أبعادها أقل بكثير من ابعاد مسرح عمليات الاتحاد السوفيتي – وان تجربة الجنرال (ماك آرثر) عن محاسن المناورة بهدف اضعاف الخصم ، تساوي وتوازي مناورة ستالين لان مناورة ماك آرثر التراجعية ، قد نفذت الى جزر سليمان ، والى غينيا الجديدة أي على مسافات تقل بكثير عن المسافة بين الحدود الالمانية – وستالينغراد .

لقد قام ماك آرثر بهذه المناورة التراجعية التي تمت طبقاً للمسافات التي حددها (كلاوزفيتز) – وهي (من ١٠ – ١٥ كم) لامتصاص هجوم فرقة ومن (٣٠ – ٥٠ كم) لامتصاص هجوم فيلق وحسب طبيعة الارض.

أن تطبيق مفهوم «نقطة الذروة» في الهجوم على استراتيجية الحرب الجبلية يفسر بصورة صحيحة الانتصارات والهزائم التي منيت المناورة الفرنسية في الهند الصينية ، وتفسير ذلك :–

أن للعمليات في المناطق الجبلية بصورة عامة ، هدفا هو الحفاظ على حدود تتبع معظم الاحيان خط الذرى ، ولكن نظرية «نقطة الذروة» تثبت أنه ينبغي ان لا ينظم الدفاع على مقربة من خط الذرى في السلاسل الجبلية،

وانما من الواجب أقامته في السهل الواقع خلف السلسلة ، أي على السفح الصديق (السفح المعاكس) لان تفسير هذه النظرية يستند الى تضخيم عامل المسافة واطالتها ، بسبب صعوبات الارض ووعورتها ، ويعني هذا أن الدفاع في السفح المعاكس ، يجعل نقطة الذروة للهجوم تصل حدودها القصوى بعد عبوره خط الذرى ، او أثناء القتال في السفح المعاكس، وعند وصول تقدمه السهل يكون قد استنزف قوته الذاتية ، وطالت خطوط مواصلاته عبر ارض وعرة ، فيصعب عليه الامداد والتموين ، عندئذ يسهل القضاء عليه بهجوم مضاد ...

ان الدفاع عن لاووس أثناء معارك الشتاء ١٩٥٢-١٩٥٣ بمعسكرات محصنة واقعة على وادي الميكونغ خلف الحدود جعل الفيت - مينه عاجزين عن احتلال البلاد .. وعلى النقيض من ذلك ، خلال معارك ١٩٥٣-١٩٥٤ عندما أراد الفرنسيون بخطة دفاع طموحة اكثر للدفاع عن لاووس على حدودها بأقامة دفاعات وقلاع محصنة في (ديان بيان فو) على السفح التونكين (السفح المعادي) انتقلت كل محاسن الارض الى الفيت - مينه، فقصرت خطوط مواصلاته ، وان الهجوم المقابل ضد الفيت - منه ، تم قبل بلوغ هجوم الخصم حدوده القصوى ، ففشلت جميع الهجمات المقابلة وسقط ديان بيان فو ، وبسقوطه سقطت فيتنام الشمالية كلها وضاعت ، لان الفرنسيون لم يقبلوا هذا التخلي البسيط عن الارض الذي نصح به (كلاوزفيتز) ولم يفهموا ذلك ابداً ، لان الرأي السائد آنئذ والذي لا يزال سائدا حتى اليوم يتعارض كل التعارض مع العقيدة الكلاوزفيتزية هذه .

١٣- ويمكننا الاستخلاص من هذا السرد التفصيلي لابعاد هذه النظرية المدعومة بالوقائع التأريخية ، مايلي :-

أ - أن خسارة بضعة كيلومترات من الارض ، لغرض تطبيق المناورة التراجعية ، متبوعة بالهجوم ضد جناح الخصم المتقدم يعتبر كمقدمة لصفقة رابحة فيما بعد .

ب ـ أن فكرة الدفاع السيار (Mobil Difines) ـ ليســـت اكثر من نشاط ايجابي لاضعاف الخصم ، بعمليات الصد والحصر والتراجـع المسيطر عليه ، للمسافات القياسية المسموح بها ، الى المواقع المحصنة سلفاً ، بغية ايصال هجوم الخصم الى حدوده القصوى «نقطةالذروة» عند وصوله الى ارض القتل المنتخبة ، ومن ثم توجيه الضرب المقابلة له بعد انقلاب ميزان القوى وتدميره •

جـ ـ وكما ان استراتيجية الدفاع المتحرك او كما يسميه البعض بالدفـاع الفعـال Active Difense ، تتضمن اعمالا ، تؤدي الى اختزال قوة العدو المادية والمعنوية ، بتوجيه ضربات قوية ، ومتلاحقة له ، في مناطق التحشد ، ومواضع الاجتماع ، ولكن لا يستهدف منها احتلال الارض ، والاحتفاظ بها ، مما تؤدي تلك الضربات الى ايصال الخصم الى حدود قوته الذاتية بوقت قصير ، وبأقل مسافة من التقدم •

د ـ وفيما يتعلق بالحروب في الاراضـي الجبلية الوعرة ، فان انتخـاب المواضع الدفاعية الرئيسية في السفح الصديق (السفح المعاكس) ، يعتبر تطبيقا مثاليا لفكرة «نقطة الذروة» •

هـ ـ وفي النهاية ، نستطيع التأكيد بصورة جادة على انه لا يكون من الحكمة اطلاقاً ، وعلى جميع المستويات ، في سلم القيادة ، القيام بالهجـوم المقابل ، قبل التحقق من ان هجوم الخصم قد وصل الى قوته الذاتية « نقطة الذروة » او مناورته الاستراتيجية الى حدودها القصوى ، مع ملاحظة حدوث تبدل الموقف ، اغلب الاحيان عندما يقطع المهـاجـم تقدمه اضطراراً ، ليتحول الى الدفاع ، آنئذ ينبغي العمل على تجنب البطء وفسح المجال له لترصين مواضعه وتعزيزها •

الفصل التاسع عشر

حرب الازرار

الفصل التاسع عشر

الملحـق (ب)

الفكر وحرب الازرار

بعد أن غزت الحرب كافة ميادين الحياة البشـــرية ، الاجتماعـية والاقتصادية والسياسية والفكرية والنفسية ، أصبحت تستخدم مختلف الوسائل والوسائط والطرائق لتحقيق أغراضها .. وبأختصار كما قـــال كلاوزفيتز « ان الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون ، ولكنها تـخص الوجود الاجتماعي ، انها نزاع بين المصالح الكبرى يسويها الدم ، وبهـذا فقط تختلف عن النزاعات الاخرى » .

وكما أن مهنة الحرب اصبحت من اصعب المهن وأشقها على الاطلاق.. وكانت هذه المهنة صعبة جداً منذ القدم ، ولكنها أضحت اصعب بكـثير في أيامنا هذه ، وذلك بعد ان دخلت فيها عوامل متعددة ومتشعبة ومتسعة ، وبعد ان تضخمت تلك المصالح الكبرى المتشابكة والمتناقضـة في معظـم الاحيان ، مما دفع الفكر البشري الى ابتداع انواع الاسلحة الفتاكة ذات قوة تدميرية هائلة والمعدات التقنية المتقدمة .

فبينما قدمت تلك الوسائل التقنية المتقدمة بعض التسهيلات للقائـد الحربي من جهة ، زادت من صعوبات ادارة العمليات وقيادة الجيوش من جهـــة اخـــرى ..

وقد وصف الجنرال ديغول ، العمل الحربي في كتابه (حد السيف) وبرهن على اتسامه بصفة عدم الاستقرار وتعرضه للتبدل والتنوع ، واعتبر هذه الصفة هي التي تصنع صعوبة التفكير وعظمته •• اذ يضطر الذكاء والخيال الى سبر اغوار المجهول في هذا المجال ، والى القيام بمحاكماتفكرية تخرج عن سبيل المألوف ، في حل المعضلات التي تفاجىء القائد، اذ لا يكاد الذكاء ينكب بالطرق المألوفة على حل بعض المشكلات ، حتى تقاطعه بعض التفاصيل « فيرى عنصراً من عناصر الموضوع يفلت منه او حدثا من الاحداث يخيب أمله ، ولا يستطيع مصباح الذكاء ، أن يلقي على الاسباب المتعددة الغامضة الا بعض الضوء الخافت ، وينساب سيل الظروف المتحركة المضطربة من شباكه كما ينساب الماء من شبكة الصياد •

ان العدو عامل متبدل ، يتطور باستمرار ، وما يُعرف عنه في لحظة قد يتغير ويتبدل خلال ساعات ، ولا يمكن لذكاء القائد مهما كان قويا ، ان يكشف بدقة وتأكيد ماهيته وشكله وافعاله الحالية والمتوقعة ولهذا تلجأ القيادات باستمرار الى التلحيل المشترك — وعملية تحليل هذه تسمى باللغة العسكرية (تقدير موقف الاستخبارات) الذي يشترك فيه عدد كبير من الضباط من مختلف شعب الاركان لمتابعة كل تحركات العدو ، وجمع كل المعلومات عنه ، لغرض الخروج بحصلة تسمح بمعرفة نوايا العدو وتحركاته •

ولكن انخفضت هذه الصعوبة على الاقل في ميدان المعركة بالنسبة الدول المتقدمة ، في العصر الحالي ، بفضل المعدات الالكترونية والسبرنيطيقية « الحاسبات والرادارات الارضية والمحمولة جواً والاقمار الصناعية ••• الخ »• ولكن وفي الوقت نفسه ظهر معها نوع اخر من الصعوبات ، غير من شكل المعضلات وطبيعتها •• أذ ان ادارة مثل هذه المعدات بحاجة الى اختصاصيين يعتمد عليهم القائد الحربي (صانع القرار)

فأن المعلومات المتناقضة والخاطئة الان يكتنفها شكوك من نوع اخر تكون في الغالب تقنية ، فضلا عن الشكوك المتأتية من تناقض المعلومات وغموضها الناجمة عن اختلاف مواقع الرصد ومراكز جمع المعلومات ، والكفاءة التقنية للعاملين ..

من هنا نجد اليوم الاصوات مرتفعة ، تعبر عن المخاوف من اندلاع الحرب الكونية ، بسبب ارتكاب اخطاء تقنية محضة ، فالمحاولات جارية لحد الان دون جدوى ، للتغلب او التلافي مثل هذه المعضلة الصدفية وتجنب مخاطرها المحدقة .

ولهذا فقد يحذر العقيد ميكشه (وهو احد اساتذة فن الحرب في كلية الحرب العليا في البرتغال وأحد النقاد العسكريين المشهورين في العالم)[1] من صفة العسكري (الحديث) الذي اصبح يستخدم الازرار بدلا من سلاحه الشخصي بصورة غريزية ، ويراقب الشاشة الصغيرة بدلا من الاستطلاع الشخصي لميدان المعركة الحقيقي ، ويحاول حل المشكلات المعقدة للاستراتيجية بوسائل ينقصها المرونة، برغم من قوتها ومداها وسرعتها، او بسبب هذه الصفات ، للتلاءم مع اوضاع مختلفة ومتبدلة في الحرب.. فالرغبة في رفع مستوى الجيوش الى اخر مستوى وصلت اليه التقنية الحديثة ، يؤدي الى صيغ ميكانيكية ميتة قابلة للمناقشة بصورة عملية في ادارة العمليات ، وقابلة للمناقشة بصورة أكثر ، عندما يراد منها دعم سياسة من السياسات بالمعنى الدولي لهذه الكلمة ... أذ تحاول الدول الكبرى التي حصلت اليوم على اكبر تقدم ، وضع قواعد ثابتة لاحوال غير ثابتة ، وتحاول الحصول على حرية العمل ضمن اطار وحدود من « المعايير » وهذا

(١) كتاب آراء في الحرب ـ تاليف اكرم ديري ص ٦٤ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت .

يقود الى وضع خطط ، قد تبدو منطقية لاول وهلة ، غير انها « تتناقض وتتعارض » مع آلاف التجارب •

ويضيف العقيد ميكشه « يبدو انهم (الدول الكبرى) لم يفهموا حتى الان أن التقنية ليست هدفا في حد ذاتها ، بل أنها وسية لتحقيق غرض من الاغراض ، فهم يحاولون ان يردوا على القنابل ذات الطاقة التدميرية الهائلة بقنابل اخرى اكثر طاقة منها ، وعلى الطائرات السريعة بطائرات اسرع وعلى الصواريخ الموجهة باخرى قادرة على اعتراضها او سبقها بمئات الكيلومترات ، وهم ينسون ان « الانسان هو معيار كل شيء » وقد غاب عن اذهانهم ، ان معظم الحروب تنفجر مستقلة عن التقنية وبالتالي فانهم لا يستطيعون حل كل المعضلات بوسائل التقنية الحديثة فقط » •

فاذا كان من الطبيعي ان تطبق التقنية في كل نشاطات الحياة ، فأن تطبيقها في الميدان العسكري ، مع المبالغة والتطرف ، يؤدي بسهولة الى ارتكاب أخطاء ممتة • فانتصار المادة على الفكر قد أحط بفن الحرب الى المستوى « التقني » وهبط بالاستراتيجية الى مستوى آلي عادي ، « فالروتين التقني » يحل الان مكان الذكاء الخلاق ، ولم يعد الجنود المقاتلين محاربين أشداء ، بل انهم اصبحوا اختصاصيين في استخدام بعض الآلات والادوات • ان العقل الالكتروني هو الذي يزود اليوم الجنرالات النوويين الذين يتابعون معاركهم على الشاشة الصغيرة – المادة اللازمة – لقراراتهم • ويراقب «المقاتلون» الذين يتمتعون بأختصاص رائع في استخدام الرادارات ويرقبون السماء من الارض – والارض من السماء ، على حين يوجه جنود اخرون الصواريخ ضد المهاجمين • فالقتال بالنسبة لهؤلاء الجنود عبارة عن مراقبة مصابيح متعددة الالوان ، وادارة الازرار، والضغط عليها •

ولكن ماذا يحدث لهؤلاء المقاتلين لو ان بعض الجنود المعادين المسلحين بالسكاكين ، تسللوا الى مراكزهم ؟ ماذا تفيدهم عندئذ كل هذه التقنية..؟

أن (ميكشه) لا ينادي بالاستغناء ، بالطبع ، عن الرادارات وعن الصواريخ الموجهة او الطائرات أو المعدات الاخرى ذات الازرار ، ولكن ينبه فقط الى ان « تقنية » الجيوش تخلق نموذجا من الجنود أقل مستوى من المقاتل الحقيقي ، فيما يتعلق برباطة الجأش ، وقوة تحمل المشاق والاتعاب والآلام التي تتطلبها الحرب .. حيث يقول : ومما لا شك فيه ان تزويد المحارب بالآلات الملائمة تضاعف احتمالات نجاحه ، وتنمي بالتالي ثقة الجندي بأسلحته . غير ان المعنويات شيء اخر ، غير الشعور المبالغ بقيمته، هذا الشعور الذي يتحول فوراً الى عقدة نقص عندما يتعرض لاخفاق حتمي ومؤكد . فالمعنويات الحقيقية في نظر هذا الناقد الكبير لا « تشترى » بميزات العتاد والتحسينات الطارئة عليه ، وكما أشار الى ذلك (سوفاروف) « ان الرفاه يقلل من الشجاعة » ولكن هنالك ملاحظة مدعومة بالتجربة ومخالفة لهذا الرأي ، وهي ان العتاد والسلاح المتطور والمتفوق يدعم المعنويات ويقويها ..

صحيح ، ان جنود المشاة الذين يتحولون الى ركاب في سيارات الجيب يصبحون كسالى ، وتتجه قيادتهم عند ذلك الى مطالبة الآليات بجهود اكبر من الجهود البدنية التي تطالب بها جنودها ، فمن السهل جداً نقل مشاة مدربين على المسير راجلا لمسافات طويلة في آليات ، طالما كان ذلك ضروريا الا ان العكس صعب جداً ، ولكن ذلك لا يعني ظهور صعوبات جديدة بأستخدام الاليات ، بل على العكس من ذلك فان ظهورها أضاف وسيلة اخرى مجدية لرفع فن الحرب الى درجة اعلى ، لانها زادت من السرعة التي هي روح الحرب ، عندئذ لا يتطلب الامر اكثر من الاستمرار في تدريب جنود المشاة على السير راجلا لمسافات طويلة ، وبأستمرار .

ويقارن العقيد (ميكشه) بين جنود الماضي والحاضر ، بصورة مضللة، فيرى ان الجنود السابقين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم بؤساء ابداً ، فقد كانت روح القطعة تسود مكان روح الفردية ، وكانت المصالح الذاتية تمحى وتضمحل امام المصلحة الجماعية .. فقد كان الجنود يربون على احترام التقاليد ، وعلى الاعتزاز بقطعاتهم ، الامر الذي جعلهم يتغلبون على كثير من الصعوبات النفسية .

ومع صحة هذا الرأي جزئياً ، فأن التقاليد لا تتعارض مع التقدم أبداً كما يقول ميكشه نفسه في مكان اخر ، ولا يؤدي بالضرورة الى انخفاض روح القطعة ، وانحصار المصالح الجماعية أمام المصالح الشخصية بسبب توفر وتنوع وسائل التقنية للجنود العصريين ، وينبغي ان يرتبط التقدم بالتقاليد كحل ميسور ، وفي متناول اليد ، هذا ولا نعتقد بوجود جيوش تنكر ماضيها لتبني مستقبلها على ارضية جديدة كل الجدة ، حتى تصاب بمركب نقص ، كما يظن ذلك ميكشه في معرض حديثه عنه .

اذن يتوقف الامر على الاعداد الصحيح للجيوش العصرية ، فلابد للجندي من ان يؤمن بفكرة توحي له بالاندفاع والاستبسال مع بث روح الجماعة فيه والاعتزاز بالقطعة التي ينتمي اليها ، وتمنيه روح القتال فيه الى جانب اختصاصه التقني ..

فالحرب صراع في سبيل مصالح الجماعة التي ينتمي اليها الجندي ، عندئذ يكفي أن يشعر الجندي بانه أنما يخوض حرباً عادلة ومشروعة من اجل قضية كبرى تهم الجميع .

وبظهور ستراتيجية الردع النووي ، وابتداعات التقنية المتطورة للاسلحة والمعدات ، لا تقتضي الضرورة الى تنمية روح القتال الى جانب الاختصاص التقني فحسب ، بل تغدو الحاجة ملحة لمد الانظار نحو مجال

عمل اكبر من عمل الاسلحة والمعدات الحربية ، الى مجال «الفـكر» الذي يبتدع المادة ويقودها ، كما يقود السياسة والاقتصاد والحرب ••• لـذا كما قال (غيتون) وسبق وان اشرنا الى قوله هذا : ان رجل السياسة ورجل الحرب ورجل الاقتصاد ، كالفيلسوف والرجل العادي ، أحسـوا جميعا بأنهم معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجب الجميع الاهتمام بالاستراتيجية، عليه فقد اتجهت الانظار في العصر الحالي نحو دراسة العلاقة بين الفـكر والستراتيجية ، والحرب بمختلف اشكالها ، التقليدية ، والنووية ، وحرب الازرار او كما يسميها البعض (بالحرب الالكترونية) ، وحرب النجـوم التي عبارة عن مزيج من الحرب النووية والالكترونية والاشعاعية •

المصادر

ت	الكتاب	المؤلف	المترجم او دار النشر
١	في الحرب	كارل فون كلاوزفيتز	اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي
٢	الوجيز في الحرب	كذا	كذا
٣	آراء في الحرب	اكرم ديري	المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٤	الذكاء والقيم المعنوية في الحرب	الجنرال جان بيريه	اكرم ديري والهيثم الايوبي
٥	الفكر والحرب	جان غيتون	كذا
٦	الاستراتيجية وتأريخها في العالم	ب. هـ ليدل هارت	الهيثم الايوبي
٧	القادة الالمان يتكلمون	كذا	اكرم ديري والهيثم الايوبي
٨	الاختيار الصعب بين الهجوم والدفاع	كذا	اكرم ديري
٩	مدخل الى الستراتيجية العسكرية	الجنرال اندريه بوفر	كذا
١٠	استراتيجية العمل	كذا	المقدم الهيثم الايوبي واكرم ديري
١١	الردع والستراتيجية	كذا	كذا
١٢	التفسير الاسلامي للتأريخ	د. عمادالدين خليل	كذا
١٣	السبيل الى القيادة	المارشال اللورد مونتغمري	العميد الركن مصطفى حسن
١٤	مذكرات المارشال مونتغمري	كذا	فريد جبر
١٦	الامير	نيقولو ميكافلي	خيري حمادي
١٧	بحوث ودراسات عسكرية	العميد الركن يوسف ابراهيم سلوم	دار المريخ للنشر – الرياض
١٨	ادارة الحرب	الجنرال ج ل فوللر	اكرم ديري

١٩ـ السوق الأكبر	جون ام كولينز	اللواء الركن علاء حسين مكي خماس
٢٠ـ الستراتيجية العسكرية	مجموعة من الجنرالات السوفيت بأشراف المارشال ف.د سوكولوف	العميد الركن عبدالرزاق الدردري
٢١ـ منبع الاخلاق والدين	برغسون	
٢٢ـ رواد الاستراتيجية الحديثة	ادورد ميدايرل	اللواء أ.ج محمد عبدالفتاح ابراهيم
٢٣ـ من العدوى الثورية الى الحرب النووية	الجنرال اندريه بوفر	اكرم ديري والهيثم الايوبي
٢٤ـ انتصارات ضائعة	المشير اريش فون مانشتاين	العقيد الركن فاروق عمر الحريري
٢٥ـ التكنولوجيا والحرب الحديثة	الميجر جنرال ج ف فوللر	دار القلم ـ المكتبة العربية ـ بيروت
٢٦ـ تاريخ فن الحرب الجزء الاول والثاني	الجنرال ستروكوف	العميد الركن صباح الأناسي
٢٧ـ الحرب والسلم	العميد الركن طه ماضي	مطبعة الرابطة ـ بغداد
٢٨ـ تبسيط الاستراتيجية	العميد اركان حرب علي فهمي عبدالستار	دار الفكر العربي ـ القاهرة
٢٩ـ قائد اليانزر الجزء الاول والثاني	الجنرال هاينز كودريان	الجمهورية العربية المتحدة مطبعة القوات المسلحة
٣١ـ الفلسفة المؤسميطية	الجنرال جياب	دار الاندلس للنشر بيروت
٣٢ـ حرب المقاومة الشعبية	ركس نايت وماركريت نايت	دار الاداب ـ بيروت
٣٣ـ المدخل الى علم النفس الحديث	أدور جونو	د. عبد علي الجسماني
٣٤ـ ادارة الحرب	الخيز ج ف فوللر	ترجمة اكرم ديري
٣٥ـ العقيدة الشرفية	محاضرات كلية الاركان	الرائد الركن عزيز قادر

(فهرست)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ــ بغــداد
(٢٥١) لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة ــ بغــداد
١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م